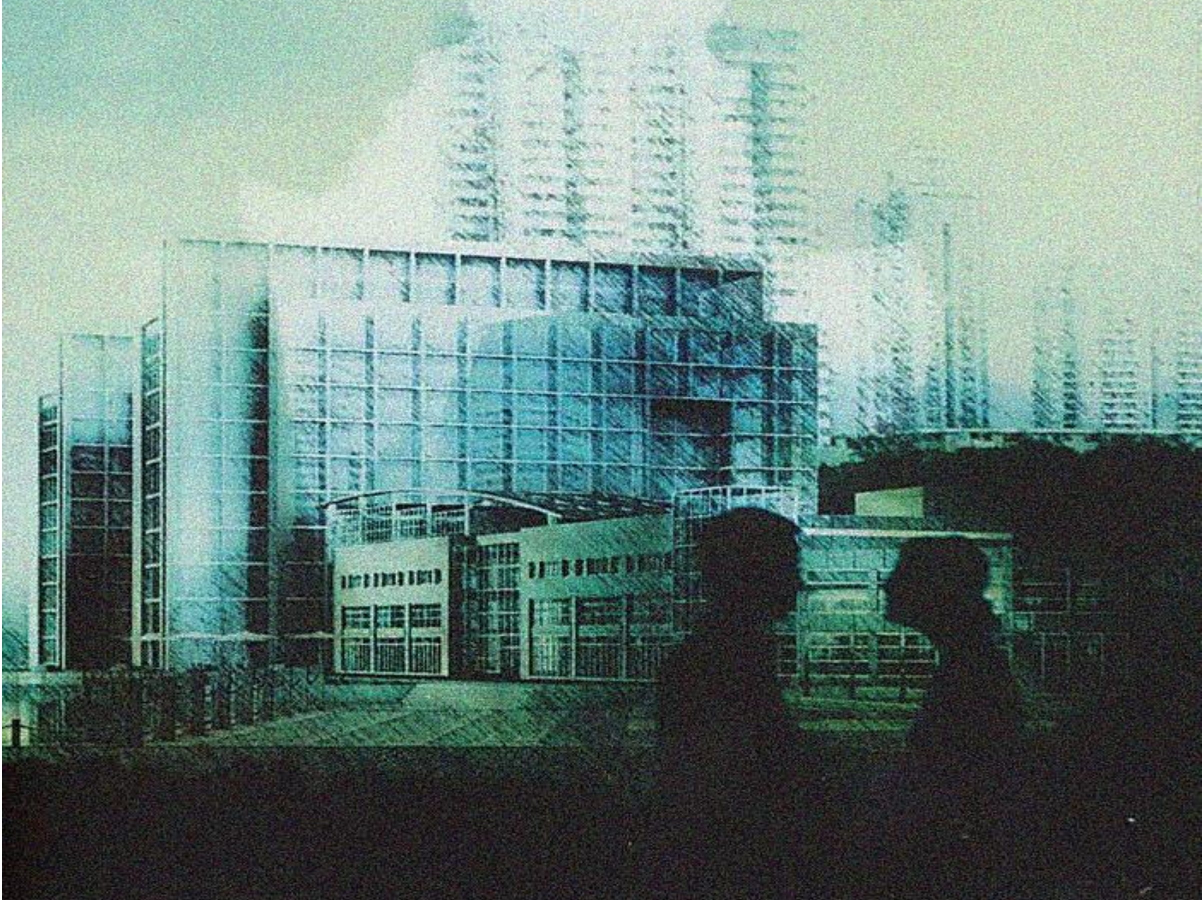
سبع سنوات

«رواية»

بيتر شتام



ترجمة: د. خليل الشيخ

بيتر شتام

سبع سنوات

رواية

ترجمة: د. خليل الشيخ

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

PT2681.T3234 S5412 2011
Stamm, Peter, 1963-
[sieben Jahre]
سبع سنوات: رواية / تأليف بيتر بيتر شتام: ترجمة خليل الشيخ.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»، كلمة، 2011.
ص 266 : 13×20.5 سم.
ترجمة كتاب: Sieben Jahre
تدمك: 978-9948-17-014-3
أ-شيخ، خليل.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Peter Stamm
Sieben Jahre

First published under the title **SIEBEN JAHRE** by S. Fischer Verlag GmbH, Frankfurt am Main, 2009

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

سبع سنوات

رواية

يتقدّم المؤلف بالشكر للمؤسسة الثقافية السويسرية pro Helvetiva
في كانتون ثورغاو، لدعمهم هذا العمل.

الأَضواء والظلال تكشفان الأشكال للعيان

لوكوربوزييه

كعادتها، كانت سونيا تقف في منتصف الصالة المضاءة وهي تخفض رأسها، وتُسبل ذراعيها إلى جوار جسدها، والابتسامة ترتسم على شفتيها. كانت تزوي ما بين عينيها وكأنّ النور قد بهرهما، أو كأنّهما تعانيان من الألم وقد بدت غائبة، شأنها شأن اللوحات المعلّقة على الحائط، التي لا يعيرها أحد اهتمامه وإن ظلّتْ تشكّل الباعث لقدوم الناس.

كُنت أدخّن السيجار وأنا أرقب، من خلال نافذة صالة الغاليري كيف يتقدّم رجل وسيم نحوها، ويتبادل أطراف الأحاديث معها. بَدت وكأنها تصحو، ابتسمتْ وهي تقترب منه، حرك الرجل شفتيه فارتسمت ملامح دهشة طفولية على وجهها ،ابتسمتّ ثانية وكنت ألحظ، وأنا أقف بعيداً ، أنّها لم تكن تصغي للرجل، وأنّ ذهنها منشغل بأمور أخرى.

وقفت صوفي إلى جواري وبدتْ، هي الأخرى، مستغرقة في التأمّل. ثم قالت: أمّي هي أجمل امرأة في العالم. أجل. قلت وأنا أربّت على رأسها، هذا صحيح، فأمّك هي أجمل امرأة في العالم.

منذ الصباح، والثلج يتساقط، لكنّه يذوب في اللحظة، التي يلامس الأرض فيها، قالت صوفي، وهي تتسلل إلى داخل صالة العرض، من خلال الباب المفتوح، بأنّها تشعر بالبَرْد.

غادر الغاليري رجل ضخم، أصلع الرأس، وهو يضع سيجارته في فمه. وقف الرجل إلى جواري على نحو مزعج، وهو يدّخن، وكأنّ بيننا سابق معرفة.إنّها لوحات قبيحة. قال الرجل. وعندما لم أرّد، استدار ومضى غير بعيد عنّي، وبدا غير واثق وضائعاً على نحو

مفاجئ. بقيتُ واقفاً وأنا أتأمل، وأطلّ عبر النافذة. ركضتْ صوفي صوب سونيا، التي أشرق وجهها، فأصيب الرجل، الذي يقف إلى جوارها ببعض الارتباك، وتعامل مع صوفي بشيء من الإهمال. انحنت سونيا على صوفي، وشرعتا تتحدثان للحظات. أشارت صوفي بعد ذلك إلى الخارج. غطت سونيا عينيها براحتيْ يديها وأخذت تتطلّع صوبي، بجبين متغضّن وابتسامة مرتبكة، كنت على شيء من الثقة، أنها لا تستطيع أن تراني في الظلمة. بعدها همست سونيا في أذن صوفي وقادتها نحو الباب.

شعرت، للحظات، بأن شيئاً يدفعُني كي أفرّ مع الناس القادمين من أماكن عملهم، الذين أشاهدهم، وهم يندفعون خارج صالة العرض. كانوا يلقون نظرة عجلى على الرجل الأنيق الملبس ويمضون سريعاً> ليذوبوا في خضمّ الجموع الذاهبين إلى بيوتهم.

لم أر أنتشه منذ ما يقرب من عشرين عاماً، ومع ذلك فقد عرفتها على الفور، ينبغي أن تكون في الستين من عمرها، لكنّ وجهها ما يزال شابّاً إلى اليوم. قالت وهي تقبلّني فوق خدي: أخيراً. وقبل أن أتمكن من الإجابة، شاهدتُ معها شاباً له لحية صغيرة مضحكة. همس الشاب في أذنها، وأبعدها عنّي، وهو يضع ذراعه بذراعها. قادها الشاب نحو الرجل ذي البدلة السوداء، الذي سبق لي أن شاهدت وجهه في الصحيفة.

انتحتْ صوفيا جانباً بالرجل، الذي سبق له أن سار مع سونيا، وتحدّثا معاً حديثاً أوقعه في حيرة، استمعتْ سونيا إلى الحديث ضاحكة، لكنّني كنت أشعر أنّ أفكارها في مكان آخر. اتجهتُ

صوبها ووضعتُ يدي على خصرها، وأنا استمتع بنظرة الحسد في عيني الرجل الآخر، الذي سأل صوفي عن عمرها. كم تظنّ؟ سألته فبدت على وجهه سيماء التفكير وردّ قائلاً: اثنتا عشرة سنة. فأوضحت سونيا أنها في العاشرة. لكنّ صوفي قالت للرجل: أنت مُبتذل. فردّ الرجل: ما أشدّ شبهك بأمّك! فشكرته صوفي بانحناءة وهي تقول:

إنها أجمل امرأة في العالم. وبدت وكأنها تستوعب هذا، الذي يحدث أمامها.

تساءلت سونيا إن كان يزعجنا أن تغادر هي وصوفي قبلنا، موضحة أنّ أنتشه ستبقى حتى الختام. رجوتها أن توصل صوفي إلى البيت؛ لتتمكن من السهر معنا، لكنّ سونيا هزّت رأسها، وأعلنت أنّها متعبة تماماً. فقد توجب عليها أن تعمل هي وأنتشه طيلة الأسبوع.

طلبتْ صوفي من المُعْجَب بها أن يحضر لها كأساً من عصير البرتقال، الذي سأل إنْ كان هناك من يرغب في شرب شيء. فطلبتُ منه أن يتوقف عن الاسئلة . وأضافت سونيا، وهي تعضّ على شفتيها، وتنظر نحو الأرض للحظات ثم تحدّق فيّ، بأنّ عليه أن يقتصر على ما طُلب منه، لكنني بدوت وكأنني لم أستمع إلى ما قالت.

أعلنت سونيا، وهي تقبلني على فمي قبلة خاطفة، أنها ستذهب هي وصوفي، وطلبت منّي أن لا أحدث جَلَبةً عندما أعود أنا وأنتشه إلى المنزل.

بدأ الناس يغادرون صالة العرض، لكنّ الأمر احتاج إلى بعض الوقت حتى غادرها الجميع، ولم يعد في النهاية إلا أنا وأنتشه ورجل

عجوز لم تقدّمه لي. كانا يقفان متجاورين أمام إحدى اللوحات، ويتحدّثان بصوت منخفضٍ. ابتعدتُ عنهما على نحو آلي، وأخذت أقلّب قائمة الأسعار، وأنا أتأملهما من حين لآخر. ضمّت أنتشه الرجل وقبّلته على جبينه وشيعّته إلى الباب. بعدها اتجهت صوبي وهي تقول: إنّه يدعى جورج. ولقد كنت مجنونة به ذات يوم. ثمّ ضحكت وهي تقول:

إنّها مسألة عصيّة على الفهم. أليس كذلك؟ كان هذا قبل قرن من الزمان! اتّجهتْ صوب البار، وأحضرتْ كأسيْن مملوءين بالنبيذ الأحمر، وقدّمت لي كأساً منهما. فهززتُ رأسي رافضاً، موضحاً أنني لن أشرب المزيد. ابتسمتْ بارتياب واحتست كأسها بجرعة واحدة وهي تقول لي: إنها على استعداد للذهاب.

ترك صاحب صالة العرض المفاتيح لأنتشه، التي قامت بإطفاء الأنوار في الصالة، وعندما صرنا خارجها تشبثتْ بذراعي وسألتْني إنْ كانت سيارتي بعيدة، فأخبرتها أنها بعيدة، إلى حدّ ما، فتساءلتْ عن طبيعة هذا الطقس، وهي تقول: في المرة القادمة سنلتقي في مرسيليا. ثم سألتْ: هل أعجبتك لوحاتي؟ فقلت لها بأنّها صارت متحضّرة، فأجابت برّقة: أتمنّى ذلك. فقلت: أنا لا أفهم في الفن، ومع ذلك فإنني أتصوّر، خلافاً لما كان يحدث في السابق، بأنني صرت قادراً على أن أضع إحدى لوحاتك في منزلي. فردّتْ بأنها لا تعرف، على وجه اليقين، إنْ كان ما أقوله لوناً من الإطراء.

سألتُ أنتشه إنْ كانت قد وجّهتْ الدعوة إلى والديْ سونيا؛ لحضور حفل الافتتاح، فقد كنت أظنّ أنهما سيحضران. لكنّ أنتشه

لم تجب. أخبرتها أنني على استعداد. لأن أعيرها سيارتي إذا كانت ترغب في زيارتهما، فالمسافة بيننا وبين شتارنبيرغ لا تزيد على مرمى حجر.

عندما وصلنا إلى السيارة، قالت أنتشه بأنّه ليس لديها الوقت، إضافة إلى كونها مرهقة تماماً، لهذا فهي غير قادرة على الذهاب إلى الضواحي، فقد تطلّب إعداد المعرض عملاً شاقاً متواصلاً. سألتها إن كان هناك مشكلة ما، فأحجمتْ عن الإجابة ثم قالت: لا. ثم أردفتْ قائلة: أجل هناك مشكلة. لقد صرتُ امرأة متقدّمة في السّن، ولم أعد أستطيع الاحتمال. فأجبتها بأنّها كانتْ على هذه الشاكلة دائماً، فنفت ذلك بهزّة من رأسها وأوضحت:

صحيح إنّ والديْ سونيا كانا محافظينْ على الدوام، لكنّه بقي لوالدها فيما مضى اهتمام أصيل بالفن. وقد اعتادت أن تناقش معه مسائل الفن في كثير من الأحيان. لكنّ الرجل أخذ يميل في السنوات الأخيرة إلى الانغلاق التدريجي، لعل الأمر يتصّل بمسألة التقدّم في السن، فهو لا يطيق الجديد، ولا يعترف به، وصار أكثر مرارة. أنا أدري أنه لا ينبغي له أن يوافقني على آرائي كلّها، لكن عليه على الأقل، أن يصغي لما أقول. وفي المرة الأخيرة اختلفنا اختلافاً كبيراً حول غورسكي[1]. بعدها لم تعد عندي الرغبة كي أراه ثانية.

تساءلتُ إنْ كان لدى أنتشه أسباب أخرى جعلتها تتجنّب رؤية والد سونيا. وقد تولّد لديّ في كثير من الأحيان، اشتباه بأنه كانت لها

(1) المقصود أندرياس غورسكي (1955–) وهو مصوّر ألماني وأحد المشتغلين في مجالات التصوير المعماري.

علاقة معه. وعندما سألتُ سونيا ذات يوم عن الأمر، أجابتْ بغضب وقالت: إنّ والديها يعيشان حياة منسجمة. فقلت في نفسي: لعلها شبيهة بحياتي مع ابنتهما، وصمتُّ.

احتجنا، على الرغم من عدم وجود ازدحام مروري، إلى وقت طويل؛ كي نتمكن من الدوران حول المدينة.كانت أنتشه صامتة، وعندما نظرت إليها، حسبتها نائمة؛ لأنني شاهدتها وقد أغمضت عينيها. لكنها قالت:

كنتَ تسألني، من حين لآخر، إنّ كانت سونيا قد أسدت إليّ خدمة ما. ماذا تعني؟ وكيف لها أن تفعل؟ لقد كانت سونيا غير واثقة. قالت أنتشه. ساد الصمت للحظات بعدها أضافت: إنّ سونيا لم تكن متأكدّة إن كنتما ستكونان قادرينْ على الانسجام. فسَألتها إن كانت تقصد أن أكون مناسباً لها بما فيه الكفاية. فأجابت بأنني كنت امتلك القوة، وهي الكلمة ذاتها، التي استخدمتها سونيا يومها. وماذا عن الآخرين ... روديغر مثلاً؟ فردّت أنتشه: أجل. كان روديغر شخصاً مرحاً، لكنه كان إنساناً خاملاً تماماً. أضافت أنتشه: بقي آخر. وشرعت تفكّر وقالت: أعني الشاب، الذي تزوج من الموسيقيّة. هل تعنين فرِدْي؟ سألتُها، فردّت بأنّ ذلك محتمل.

لم أَسْتَطِعْ أن أتصور أنّه كان لدى سونيا يومها اهتمام بفرِدْي. فأوضحتْ أنتشه بأن هذا الأمر لم يطل كثيراً. فسألتُها: إنْ كانت سونيا قد أقامت علاقة معه. توقفّت السيارة في هذه اللحظة عند إحدى إشارات المرور. فالتفتُ إلى أنتشه، التي ابتسمتْ معتذرة وقالت:

أنا لا أعتقد بأنّ سونيا قد أقامت علاقة مع فرِدْي، إذا كنت تقصد ما تقول. ألم تحدثّكَ عن ذلك أبداً؟

سونيا لا تحكي كثيراً، وكثيراً ما كان يخطر ببالي، بأنّه لم تكن لها حياة قبل علاقتنا. أو أنّ حياتها السابقة لم تترك تأثيراً عليها باستثناء ما هو موجود في ألبومات الصور الموضوعة على رفوف الكتب، التي لم يسبق لسونيا أن قامت بتقليب صفحاتها. وعندما أقوم بتأمّل الصور، يخيّل إليّ أنها تنتمي إلى زمن غابر يعود إلى حياة سابقة. وعندما كنت أسأل سونيا، في بعض الأحيان، عن علاقتها برودیغر، كانت تكتفي بإجابات ثابتة، لكنها، بالمقابل، لم تسألني عن حياتي السابقة قبل أن نلتقي، وهي تقول بأنّ المسألة لا تعنيها، ويكفي أنني أكرّس حياتي من أجلها. لكن سونيا بقيت تواظب على الصمت حتى صرت أتساءل إن كان لديها شيء؛ لتحكي عنه.

تغيّرتْ ابتسامة أنتشه، وبدأت تأخذ طابعاً استهزائيّاً وقالت: أرادت سونيا أن يكون الرجال مغرمين بها ،حاولْ أن ترى المسألة من الوجه الإيجابي، فقد كان لديها خيارات أرادت اختبارها، بعدها اختارتك أنت.

أطلقتْ السيارة في الخلف زاموراً، فانطلقتُ بقوّة لدرجة أنّ العجلات أصدرت هديراً عالياً. فسألتُ أنتشه: وما هو الدور، الذي قمتِ أنتِ به بالمجمل؟ فقالت أنتشه: هل في وسعك أن تتذكر الليلة الأولى، التي أمضيتماها في منزلي؟ لقد ذهبتْ سونيا ليلتها إلى السرير في وقت مبكرّ، وقمنا معاً باستعراض لوحاتي. تولّدتْ لديّ رغبة كبرى في إغوائك، فقد أعجبْتني يومها، كنتَ طالباً وسيماً

وشاباً. لكنني بدلاً من ذلك بدأت أدبّر مقلباً لك، فزعمتُ أنّ سونيا تحبك. وفي اليوم التالي أنساب الحديث بينكما. سألتها: لماذا فعلت ذلك؟ هزّت كتفيها وسألت: هل أنت مستاء منّي؟ كان للسؤال وَقعٌ جدّي، ثم أضافت مازحة: لقد دافعتُ عنك، فقد كان هناك أمر له علاقة بامرأة أخرى، أجنبيّة باعتقادي، وهو أمر أنت خير من يعرفه. فقلت، وأنا أتنهد: إنها إيفونا، وحكايتها طويلة.

كنتُ أجلس مع فرِدْي، ورروديغر منذ عدة ساعات في مقهى يقع بالقرب من الحديقة الإنجليزية في يوم تموزي حار. كانت فترة ما بعد الظهر، والضوء الأبيض يعشي العيون. كنّا قد انتهينا من مشروعات التخرّج، وقمنا بتسليمها إلى الجامعة قبل عشرة أيام. وكان علينا أن نقوم بعرضها خلال أسبوع. كان لدينا الكثير من الفراغ وكنا نسعى؛ لنملأه، ونقوم برفع الروح المعنوية لبعضنا بعضاً.

اخترنا نحن الثلاثة موضوعاً واحداً هو متحف الحداثة الموجود فوق المسطّح إلى جوار فناء الحديقة. جلسنا في المقهى نرسم ما قدمناه من تصورات، ونحرك دفاتر الرسم هنا وهناك، ونتحاور بصوت عالٍ، ونستمتع ونحن نرى بقية الزبائن يستديرون، ويتطلعون نحونا. قال لي روديغر:

إنّ رسمي التخطيطي يذّكره بالدوروّسي[1]. شعرت بالإهانة. وأجبته بأنه ليس لديه أدنى فكرة، فأوضح فرِدْي أنّ هناك نماذج أسوأ من نماذج الأساتذة القدامى، لكنْ أليكس (وهو يعنيني) يريد أن يقدّم جديداً للعمارة مع كل مخطط يُقدّمه. بعدها قمت بتوضيح العلاقة بين ما قدّمته، وما قدّمه روّسي، ورسمت مقطعاً من البناء، الذي قدمته ووضعته فوق الطاولة. لكنّ روديغر كان في تلك الأثناء في واد آخر، فقد تحدّث عن التفكيكيّة وقال: بأن المعماريّ هو الطبيب النفساني للشكلانية الخالصة وما شابه من كلام فارغ.

جلستْ، على الطاولة، التي نجلس عليها، فتاتان لافتتا الجمال،

(1) ألدوروّسي (1931–1997) هو معماري ومصمّم إيطالي طلائعي، نال شهرة عالمية، ويُعد من مؤسسي حركة العقلانية الجديدة، التي ترى أنّ العمارة هي العلم، الذي يمكن تفّهمه بعقلانية؛ لهذا تمثل هذه الحركة ثورة على التاريخية والتعبيرية.

ترتديان ملابس صيفية خفيفة. بعد مدة قصيرة استطعنا أن نجرّهما للحديث معنا. كانت إحدى الفتاتين تعمل في وكالة للاعلان، أما الأخرى، فهي طالبة تدرس تاريخ الفن، أو علم الأجناس البشرية، أو شيئاً من هذا القبيل. كان الحوار بيننا مرحاً يتكوّن من جمل مفردة مبنيّة على الدعابة والردّ عليها، على نحو لا يفضي إلى نتيجة محدّدة.

اقترح فرِدْي عندما دفعت الفتاتان حسابهما، أن نلتقي في الحديقة الإنجليزية. تردّدت الفتاتان بادئ الأمر وتهامستا، ثم قالت الفتاة، التي تعمل في الإعلانات بأنّ لديها ارتباطاً، لكننا نستطيع أن نلتقي، عند المعبد الموجود في الحديقة فيما بعد.في لحظات الذهاب التصقتْ الفتاتان ببعضهما، وَبَعْدَ عدّة أمتار استدارتا، وقامتا بتوجيه التحيّة لنا بالإشارة. فقال فرِدْي: الفتاة الشقراء لي. فرّد عليه روديغر: ها أنت تمارس التفكيك ثانية، فقال فرِدْي وهو ينظر إليّ: فتاتان لنا نحن الثلاثة، هذا أمر غير جائز، إنّ عليك أن تتدبّر أمرك. فقلت محتجاً: ولماذا أنا تحديداً؟ فابتسم فرِدْي ابتسامة عريضة وقال: لأنك أكثرنا وسامة، فالمرأة الجالسة هناك ترقبنا طيلة الوقت.

التفتُّ فرأيتُ عدة طاولات موزّعة في ظلال شجرة زيزفون كبرى، وكان هناك امرأة تقرأ.

كانت في مثل أعمارنا تقريباً، لكنّها تخلو من الجاذبية تماماً؛ فوجهها منتفخ، وشعرها سائب وهي ليست بالقصيرة أو الطويلة. ولعّل مصفّف شعرها قد صنع لها تسريحة قبل مدة طويلة من الزمن، ونسيها ولم يستطع تكرارها؛ لذا تجمّع شعرها على وجهها. أما ملابسها فرّثة ورخيصة كانت ترتدي سترة بنية من قماش منسوج، وبلوزة عليها نقوش بليدة

الألوان، وتضع وشاحاً حريرياً على عنقها. كان أنفها أحمر، وأمامها كومة من المناديل الورقية المجّعدة. وبينما كنت أتاملها، رفعتْ عَينيها عن الكتاب فالتقت نظرتانا، فانقبض وجهها، وارتسمت على وجهها ابتسامة مصنوعة، فابتسمتُ لها على نحو آلي، فغضّت بصرها، لكنّ حياءها بدا لي في غير موضعه، ولعوباً على نحو سمج.

قال فرِدْي: إنّ قلوب النساء تتراكض نحوه (وهو يقصدني)، لكنّه لن يستطيع أن يظفر بتلك المرأة. قال روديغر: هل نراهن؟ وقبل أن أرّد، استطرد يقول، وفي عينيه تعبير حزين: أنا أراهن أنّك لن تستطيع الظفر بها، فأجبته بأنني لا أقبل بها ولو جاءت على سبيل الهدية! فردّ فرِدْي وهو ينهض: دعنا نرى! التفتتْ المرأة صوبنا ثانية. وعندما تبيّن لها أنّ فرِدْي كان يتجّه نحوها، ارتسمت ملامح الخوف والتّوقع على وجهها. قلت من أعماقي: هل أصيب الرجل بالجنون؟ فقد صار الأمر يبعث على الألم. نظرتُ نحو النادلة فقال لي روديغر: لن تتراجع وعليك أن تبرهن أنّك رجل. فأجبته، وأنا أمد ساقيّ، بأنّ المسألة لا تعنيني.

تلاشى مزاجي المعتدل، وبدأتُ أشعر بأنّني عديم الفائدة، وبلا قيمة وغضبت من نفسي، وبدا لي وكأنّ الأصوات والضحك تتقافز خلفي، وكأنني استمع بوضوح من خلال الضوضاء الناعمة ،إلى أصوات الخطى فوق الحصى تقترب رويداً رويداً.

قال فرِدْي: هذه إيفونا من بولندا، وهذان: روديغر والكسندر. كان فرِدْي يقف ورائي. وكان عليّ حتى أراه أن أنظر نحوه على نحو رأسي. اجلسي، قال لها فرِدْي. فأحضرتْ المرأة كأسها من على طاولتها، ووضعتْ كميّة من المناديل الورقية إلى جانبه، كما وضعت الكتاب،

الذي كانت تطالع فيه. كان الكتاب رواية عاطفية ذات غلاف مزركش تتبّدى عليه صورة لرجل وامرأة يمتطيان حصاناً تحت سماء عاصفة.

جلستْ المرأة، بيني وبين روديغر بقامة منتصبة، ووضعت يديها في حجرها. ظلّت نظراتها القلقة تتوزّع ما بيننا، يمنة ويسرة، وكانت متوترة؛ لذا بدا منظرها خاملاً وخالياً من الحيوية مثل إنسان فقد كلّ أنواع الأمل، ويسعى لإرضاء كلّ أحد حتى لو كان ذلك، الذي يسعى إلى إرضائه ذاته.

قال روديغر وهو يضحك ضحكة مليئة بالشكّ والحيرة: طقس جميل. صحيح. ردّت إيفونا: لكنّه حار أضاف روديغر، فأطرقت إيفونا. سألتُها إن كانت تعاني من الرشح، فأخبرتْنا أنها تعاني من حساسية الأنف؛ لذا فإنّها تعاني من مختلف أنواع حبوب اللقاح. فسألها فرِدْي، ببلاهة، وهو يضحك: من كل أنواع حبوب اللقاح؟ فردّت إيفونا دون أن يبدو الامتعاض على وجهها: بأنها تعاني من الغبار والأعشاب.

بقيتْ الجلسة على هذه الشاكلة ، حيث ظلّ فرِدْي وروديغر يسألان أسئلة غبيّة، وظلّت إيفونا ترّد وكأنها لا تلحظ نبرة السخرية في أسئلة الشابّين. بل إنها بدت، على العكس من ذلك تماماً، سعيدة بهذا الاهتمام.

كانت إيفونا تبتسم، وهي تجيب إجابات مكررّة. أوضحت إيفونا أنّها من Posen[1] [بوزنان] فرّد عليها بوتيغر بأنه كان يعتقد أنها من بولندا Polen. فأجابته بصبر بأن مدينة بوزنان في بولندا، كانت ألمانيّتها تخلو من اللكنة، لكنّها كانت تتحدّث ببطء، وحذر وكأنّها غير واثقة

(1) لا تخفى رغبة الشباب في السخرية والعبث من خلال إيقاع الكلمتين بالألمانية.

مما تقول. قالت بأنها تعمل في مخزن لبيع الكتب، وأنها تريد أن تطوّر لغتها الألمانيّة وأن تساعد والديها ماليّاً، فأبوها مقعد ودخل والدتها لا يكفي.

بدتْ لي إيفونا شخصية غير مريحة منذ البداية، وفي الوقت، الذي كنت أتألم لحالتها، لم أكن راضياً عن أسلوبها الوديع والصبّور، لكنّني بدلاً من أن أقوم بإيقاف صديقيّ وجدتُ نفسي منخرطاً في لعبتهما المنفّرة.

بدتْ لي إيفونا ضحيّة منذ ولادتها، وقد حاولتُ أن أُبدي اعتراضاً عندما قال فِردْي لها بأنّ لدينا موعداً مع امرأتين في الحديقة الانجليزية وسألها إن كانت ترغب في القدوم. ولكن ما الذي كان يمكن لي أن أقوله؟ تردّدتْ إيفونا فأخبرها فِردْي بأن اللقاء سيكون في الرابعة قرب المعبد الموجود في الحديقة الإنجليزية، بعدها التفتَ فِردْي نحونا وسألنا إن كنّا نود أن نغادر المقهى.

وصلنا في الموعد المحدّد إلى مكان اللقاء، ثم جاءت الفتاتان، ولم تظهر إيفونا على الإطلاق. قلت: الحمد لله أنّها لن تأتي. فسألت إحدى الفتيات: من هذه التي لن تأتي؟ فردّ روديغر: بأنها صديقتي. ثم التفت وقال لي: انتظرها. فأنت تعلم أين سنكون.

قال لي روديغر إنه يريد أن يؤمّن صحبة لي. جلسنا فوق منّصة المعبد الصغير. فقدّم لي سيجارة، وهو يقول: أصعب المهمات هي الظفر بالنساء القبيحات، فنظراً لأنّ أحداً لا يظفر بهن، يعتقدن بأنهن استثنائيات. هززتُ رأسي، وقلت كلام فارغ. بعدها أضاف روديغر بانّ إيفونا تذكرّه بفتاة عرفها في بداية المرحلة الثانوية. وبعدها لم يستطع

أن يُفسّر السبب، الذي دفعه للتعرف عليها آنذاك، كان يومها يحب سونيا ،لكنّ جمالها ومؤهلاتها الأخرى حمّلاني فوق ما أطيق، ولعلّي أقمت علاقة مع الفتاة الأخرى خوفاً منها، أو لعلي أردت أن اتحدّاها. لم تكن بريغيتي جميلة، بل كانت تعاني من الإرهاق، ومن المزاج السيّء. ولم تزد علاقتي بها على تبادل القبلات واللمسات. لكنّني لم أستطع الانفصال عنها. لقد استطاعت أن تتلاعب بي، ولم أستطع أن أعرف كيف استطاعتْ أن تفعل ذلك بي. ظلّ روديغر يحكي، لكنني لم أعد أصغي له، فمزاجي لم يتحسّن، وقد أتعبني احتساء البيرة، فبدأت أتصبّب عرقاً وأشعر بعدم الارتياح. وأخذت أتساءل عن السبب، الذي يدعوني إلى انتظار إيفونا، إن كانت صحبتها متعبة لي إلى هذه الدرجة؛ لعل ذلك بقيّة من بقايا اللياقة أو الفضول، أو لعلّ ذهابي يستدعي الحسم، ومزاجي الرديء يحول بيني وبين القدرة على اتخاذ ذلك القرار.

وصلتْ إيفونا متأخرة عشرين دقيقة، عن موعدها. كانت ترتدي الملابس ذاتها، التي كانت ترتديها ظهراً. بل إنّها أضافت إليها سترة زرقاء مع أنّ درجة الحرارة ما تزال مرتفعة. اعتذرْت عن تأخرّها دون أن توضح أسباب ذلك. نهض روديغر وهو يقول: هيّا بنا.

التقينا بالآخرين في موضع بالقرب من البحر، حيث اعتدنا غالباً، أن نكون. حيّت الفتاتان إيفونا، لكنهما لم تهْتما بها كثيراً. كنا أحضرنا أغطية معنا، مثلما أحضر فرِدْي بعض زجاجات البيرة، التي أضحت فاترة. جلسنا بتثاقل وقمنا بتوزيع الزجاجات، وشرعنا نتحدث حول أشياء كثيرة. لم تذق إيفونا شيئاً من الشراب كما أنها لم تكد تشارك في الحديث، الذي دار بيننا. كانت تنظف أنفها بين الحين والآخر، وتبتسم

بسذاجة عندما يبدي أحدنا ملاحظة غبيّة. حاولتْ أن تتكلم غير مرّة، لكنّ أحداً كان يقطع الحديث عليها، فتصمت على الفور. لاحظتُ أنها كانت تتأملني، وعندما كنت أنظر إليها، كانت تشيح بنظرها بعيداً وكأنّما أمسكتُ بها متلبّسة، فنمتْ لدي الرغبة مجدداً في أن أسيء إليها وأجرحها. أثارني قبحها وضآلتها، وصرت أعتقد أنّ حرصها على أن تكون واحدة منا سيفضحنا، ويجعلنا أضحوكة. وصرت أفكرّ في الطريقة، التي نستطيع أن نتخلص منها. فسألت:

ألا تريدون الذهاب إلى السباحة؟ جمعنا أشياءنا وغادرنا لا نلوي على شيء. لم تنبس إيفونا ببنت شفة، لكنّها هرولت وراءنا صوب النهر الصناعي في الحديقة(1). كان الجزء الأعظم من الحديقة يقع في الظل، وهناك قليل من الناس كانوا يتجمعون في المناطق المشمسة. اعتقدتُ أنّ منظر العراة سيصيب إيفونا بالفزع، لكنها لم تكترث كثيراً، وجلست صامتة فوق أحد الأغطية وكأنّ المكان معدّ لها. أعلن فرِدْي أنه ذاهب لشراء البيرة ثم اختفى.

كانت الفتاتان ترتديان ملابس السباحة تحت ملابسهما، أما أنا وروديغر فقد خلعنا ملابسنا واتجهنا صوب الماء وقفزنا. وعندما رجعنا بعد مدة قصيرة، وجدنا الفتاتين تستلقيان فوق الغطاء وتتجاذبان أطراف الأحاديث بصوت منخفض.

خلعتْ الفتاة الشقراء القسم العلوي من لباس السباحة، واستلقت على بطنها. أما إيفونا فبقيت تجلس في الظل دون أن تخلع سترتها.

---

(1) يدعى بالألمانية Eisbach وهو نهر صناعي موجود في الحديقة الإنجليزية في مدينة ميونخ.

تطلّعتْ نحوي بنظرة مملوءة بالدهشة فتألّمتُ لمنظري، وسارعت لارتداء بنطالي. بعدها أخذت ألعب مع روديغر لعبة الصحون الطائرة. بدا لي أنّ الفتاتين لا تهتمان كثيراً بنا، ولعلّهما كانتا تتهامسان عن الكيفية، التي ستمضيان فيها المساء، دون أن يكون لنا دور في مخططاتهما، لهذا سرعان ما أعلنتا عن رغبتهما في الذهاب عندما عاد فرِدْي، الذي حاول بشيء من الفتور أن يقيهما لكنهما كانتا سعيدتين بالذهاب. أما إيفونا فإنها لم تظهر ما يعكس رغبتها في مغادرتنا.

صار المسطح العشبي بأكمله يقع في الظل وقد ارتدى آخر السابحين ملابسه، وغادروا الحديقة والمقاهي والحانات متجهيّن صوب المدينة. أما أنا فصرتُ موزّعاً بين السوداوية والانتظار، وبدا لي وكأنّ الحاضر كلّه قد انكمش للحظات، وانفصل عن الماضي والمستقبل وغدا بعيداً تماماً ولا يمكن الوصول إليه. بدأ روديغر وفرِدْي يتناقشان حول فن العمارة مُجدداً، لكنّ الحوار لم يكن شبيهاً بحواراتنا السابقة، بينما كانت إيفونا تجلس قبالتنا وهي تضع يديها على ساقيها الشاحبين. ومع أنها لم تتحدث بكلمة إلا أنها كانت مصدر إزعاج لنا. وقد عبّر فرِدْي، الذي كان يجلس خلفها، من خلال إشارات صامتة بيديه وانحنى عليّ هامساً يقول:

إنّ علينا أن نرميها في الماء وإلّا فإننا لن نستطيع الخلاص منها، فقال له روديغر بصوت غير مسموع: لقد قمت أنت بدعوتها، فهذه مشكلتك. فردّ فِرْدي بأنّ إيفونا من اختصاص الكسندر. ولست أدري إن كانت إيفونا قد سمعت هذا الكلام، لكنها لم تحرّك ساكناً على كل حال، فقد أمالت رأسها على كتفها وأخذت تتأمل الأشجار، عندها

نهض روديغر وقال: ليس لكلامنا معنى.

قمنا بترتيب أشيائنا، فنهضتْ إيفونا بتثاقل، وأخذت تنظر إلينا ونحن نقوم بلّف الأغطية. وعندما ذهبت سارت خلفنا بضعة أمتار، فطلب فرِدْي منا أن نركض عندما يعطي إشارة الانطلاق، لكنّه توقف عن الركض بعد قليل وانتظر حتى عدنا وأخذناه معنا ثانية.

عدنا إلى مقهى الحديقة، الذي كنا فيه عند الظهر، وكان علينا أن نجلس إلى جوار أشخاص آخرين. جلست إيفونا إلى جواري. وكعادتها لم تتحدّث بكلمة وبدتْ وكأنّها لا تصغي إلى حوارنا. في وقت لاحق جاء إلينا بعض الأصدقاء، وصار علينا أن نتحرك؛ لتتسع الطاولة، فانحشرت إيفونا إلى جواري فبدأت أشعر بحرارة كتفها العلوي وطراوته.

وضعتُ يدي في لحظة من اللحظات، التي كنتُ فيها أشعر بالدوار، جرّاء الكحول والضجيج، فوق الكتف العليا لإيفونا وربّتُ عليه ببراءة. لكنّ هذه الحركة لم تؤثر فيها ما يبدو، وبدا الأمر شبيهاً بحال الحيوان، الذي يقترب من حيوان آخر؛ طلباً للدفء. وعندما نهضتُ بعد ذلك بقليل، وودعتُ الآخرين بحركة من يدي، تبعتني مثلما يتبع الكلب سيّده. عندما غادرنا مقهى الحديقة، استأذنتْ إيفونا بالذهاب إلى المرحاض، فخطر ببالي أن أختفي، لكنّ فكرة بقائي معها أثارتني. ولم تكن تراودني الأفكار، التي اعتادت أن تمرّ بي. وأنا أستعد لخوض غمار علاقة مع امرأة جديدة؛ فقد تولّد لديّ الاعتقاد بأنّ إيفونا ستستلم لي، فأنا مسيطر عليها وأستطيع أن أفعل بها ما أشاء. لكنّ إيفونا كانت تتسم باللامبالاة المطلقة، ولم يكن لدي ما أخسره أو أخشاه.

عادت إيفونا من المرحاض بعد وقت طويل، فسألتها إن كانت

تودّ أن أرافقها إلى المنزل. فردّت بأن سكنها غير بعيد. كان الطريق إلى منزلها يمرّ خلال حديقة صغيرة، وكان الهواء بارداً ويفوح برائحة أرض رطبة وبرائحة براز الكلاب.

عندما وصلنا إلى أكثر المناطق إظلاماً ضممتُها وقبلتُها، ولم تبد إيفونا ممانعة، وبدت راضية عندما مددت يدي إلى صدرها وإلى ظهرها، لكنها استدارت وأبعدت يدي عنها عندما حاولت أن أفك حزامها.

كانت إيفونا تعيش في غرفة في سكن مخصّص للنساء. صعدتْ الدرجات قبلي، فبدأتُ أصحو بالتدريج، وبدأت أعي ما ارتكبته من غباء، لكنّني كنت أشعر بالإثارة، وصار من الصعب عليَّ أن أتراجع. أغلقتْ إيفونا باب الغرفة وأشعلتْ النور. وما أن أغلقت الباب حتى ضممتُها، وقدتها إلى السرير الضيّق. حاولت أن أخلع ملابسها، لكنّها لم تسمح لي بذلك، بل قاومتْ وتملّصتْ مني بمهارة مدهشة. قبّلتها وربّت على جسدها، وحاولت أن أفكّ حزامها، لكنّ الحزام كان مشدوداً على نحو محكم، بحيث كان يصعب عليّ أن أحركه. كانت إيفونا تُصدر في تلك الأثناء لوناً من التذمّر، الذي لا أدري إن كان يصدر عن رغبة أو عن خوف أو عنهما معاً.

لم أشعر بالرغبة من قبل، كما كنت أستشعرها في تلك اللحظات؛ لأنني لم أكن أحفل بما ستقوله إيفونا عنّي. حاولت أن أفك حزامها ثانية، فمانعتْ. تفوّهتُ ببعض الكلام الغبيّ فتمتمتْ هي: لا وكلّا. بدا صوتها غامضاً وغضّاً.

كنتُ أشعر بالدوار عندما صحوت، ولم أكد أتبيّن المكان الذي أوجدُ فيه. كان الظلام قد حلّ في الخارج، أما الغرفة فكانت تقع بين الظلمة

والنور. كنت أشعر بالصداع، وكنت مضطراً للذهاب إلى المرحاض. لاحظت أنّ الجزء العلوي من جسدي كان عارياً، في حين كانت إيفونا ترتدي ملابسها كلّها، وإنْ بدا أنّ الأزرار العليا لبلوزتها مفتوحة.

في الحمّام قمت بفتح الرف الصغير الخاص بالمرآة، فوجدته يغصّ بنماذج من الشامبو وبالأدوية، التي أعرف أسماءها ولا أعرف دواعي استخدامها. استدرتُ، فتبيّن لي أنّ إيفونا قد صحت وأخذت بمراقبتي. أخبرتها أنني سأغادر على الفور. فنهضت واقتربت مني وهمست: أُحبّك. لم يكن لكلامها وقع الاعتراف بالحبّ بقدر ما كان أقرب إلى الحقيقة غير القابلة للاهتزاز. استدرت وشرعت أبحث عن قميصي وفانيلّتي. تأملتني إيفونا وأنا أرتدي ملابسي، وبدا في عينيها شيء من الفخر. غادرت دونما كلمة.

وقفت أمام السّكن محاولاً الرجوع، فأنا لم أعد أتذكر من أين جئنا إليه في الليلة الماضية. كانت العصافير فوق الأشجار تغرّد بصوت عال تماماً، لدرجة أنني فكرت في إحدى لحظات التفكير اللامعقول، أنّ هذه العصافير ستقع فوقي. تساءلتُ عن الغرض، الذي جاء بي إلى هنا، وكيف قطعت هذه المسافة الطويلة. كانت المسألة كلّها، بالنسبة لي، أمراً يبعث على الألم. ثم صار الأمل يحدوني بأنني لن أتصل بإيفونا ولن أرى وجهها في يوم من الأيّام. لكنّني لاحظتُ، مستغرباً، أنني أتمتع بمزاج عال، فقد بدا أن كلّ تجاربي السابقة مع النساء هي لون من اللّعب مقارنة بالليلة السابقة. فقد أحسست مع إيفونا بالنضج والمسؤولية والحريّة المُطْلقة.

كنتُ أسكنُ في منزل صغير في القرية الأولمبيّة، كان منزلي ضيقّاً،

لكنّ أصدقائي جميعاً، سواء من يسكنون في سكن جماعي، أم في منازل الطلبة، كانوا يحسدونني عليه.

كانت مئات المنازل الصغيرة قد بنيت على شوارع ضيقّة، محاطة بسلسلة من العمارات العالية كالجبال، لتصنع هذه البيوت الصغيرة مكاناً شبيهاً بالقرية. جرى تصميم البيوت؛ لتكون مكاناً يقيم فيه المشاركون في الألعاب الأولمبية، ثم صارت سكناً للطلبة بعد انتهاء الألعاب.

تبلغ مساحة المنزل 24 متراً مربعاً، وأجرته الشهرية ثلاثمائة مارك. يوجد في الطابق السفلي من المنزل خزانة متحركة، ومطبخ صغير، ووحدة استحمام أسطورية الأناقة، مكوّنة من حمّام جاهز مصنوع من البلاستيك، يشعر المرء وهو يستحّم فيه وكأنّه في إحدى السفن الفضائية. في الطابق العلوي توجد غرفتان للنوم وللعمل. ولّما كان أحد جدران غرفة المكتب مصنوعاً من الزجاج، فقد نشأ في المنزل شرفة صغيرة. ورغبة في استثمار المكان الضيق تم إنشاء سرير عال فوق الدرج، لهذا كثر الحديث في القرية حول سقوط العشّاق عن تلك الأسّرة، لكنْ مثل هذا الكلام كان جزءاً من خيال الطلاب.

لقد تمّ بناء هذه البيوت على عجل، ولم تكن بالتالي في حالة مثالية؛ فلم تكن النوافذ محكمة الإغلاق، وكان على الطالب أن يقوم بتغيير الهواء في المنزل؛ لأنّ إغلاق النوافذ يؤدي إلى نشوء العفن في خزانة الحائط. وقد سبق لاتحاد الطلبة أن وضع أصباغاً ملونة كي يقوم الطلبة بطلاء الواجهات، فأنجز بعضهم أعمالاً فنّية متقنة، في حين قام آخرون بكتابة شعارات سياسية على الجدران، وبدت بعض اللوحات وكأنها من رسوم الأطفال.

اعتاد الطلبة أن يقيموا الأعياد وحفلات الشواء السريعة في القرية وبخاصة في فصل الصيف، لذا كان من الصعب أن يركزّ الطلبة في مطالعاتهم. وهناك أمر آخر وهو أنّ في وسع الجيران أن يستمعوا إلى كلّ همسة تقال في المنزل المجاور؛ فقد كان يسكن إلى جواري، طالب يدرس الأدب الألماني، لا أكاد أعرف اسمه، لكنني أعرف الكثير من تفصيلات حياته العاطفية. كما أعرف لحظات الخصام مع صديقته ،ولحظات الصلح والتسامح.

كانت سونيا، زميلتي في الدراسة، تزورني بين الحين والآخر. وكانت مهتمّة بمعمار القرية الأولمبية، وقد جاءت فيما بعد؛ لتدرس معي. وعندما كنا ظهر يوم صيفي حار ندرس تاريخ العمارة معاً، سمعنا صرخة قادمة من المنزل المجاور. وكنت أرغب في الذهاب إلى ذلك المنزل؛ محتّجاً على ذلك الصراخ، لكنّ الهدوء حلّ فجأة. بعد ذلك صرنا نستمع معاً إلى تأوهّات الرغبة، صادرة عن إحدى النساء. كان ذلك يفوق طاقة سونيا على الاستيعاب، فاعتقدتْ أنّ أحداً ما في المنزل يتعرّض للتهديد وأنّ علينا أن نذهب إلى هناك؛ لنرى ما يحدث. فقلت لها ضاحكاً: لا أظن أنّ أحداً هناك يحتاج إلى مساعدة. بعد ذلك أدركت سونيا ما كان يحدث، وقد قلت لها: كان عليّ أن أدرس الآداب الألمانية؛ لأنّ أعباء الدراسة خفيفة وفي وسع المرء أن يفعل بالتالي ما يشاء. احمّر وجه سونيا وذهبتْ إلى الحمّام. ولم يكن الضجيج في المنزل المجاور قد توقّف بعد عودتها، فأعلنت أنها ستغادر في الحال؛ لأن لديها موعداً. بعد ذلك، صرنا نتقابل في المكتبة. لم تكن الساعة قد بلغت السابعة عندما وصلتُ إلى المنزل. كان الهدوء يعمّ القرية الأولمبية، وكانت الطرقات

فارغة تماماً. بدأتُ بإعداد ماكنة القهوة وذهبت؛ لأستحم وبدأتُ أتجهّز للحركة دون أن أدري إلى أين، فقد كنت أشعر بالنشوة.

اتجهت صوب وسط المدينة وبدأت أفكرّ بالمستقبل، كانت كلّ الاحتمالات أمامي ممكنة، ولا شيء يمكن أن يحدّ طموحاتي؛ سوف أجد وظيفة في أحد مكاتب الهندسة المعمارية، وسأقوم لاحقاً بتأسيس مكتب خاص بي، وسأبني عمارات كبرى في أرجاء العالم المختلفة. سرتُ على امتداد الشارع وأخذت أتأمل فاترينات محلات بيع السيارات، وتخيّلت نفسي جالساً وراء مقود عربة باذخة، باهظة الثمن، أتنقل من عمارة إلى أخرى.

ذهبت إلى المكتبة وقرأت مقالة عن موجات النزوح من ألمانيا الشرقية. ناسبتْ تلك المقالة عن ثنائية الحرية والسقوط مشاعري. كل شيء ممكن، حتى لو كان المعلّق يطالب بالحذر ولا يعتقد بسقوط ألمانيا الشرقية. عند الظهر تناولت سندويشة، ثم واصلت السير عبر المدينة، احتسيت القهوة واشتريت بنطالاً وقميصين بلا أكمام، لونهما أبيض. وعندما رجعت إلى القرية الطلابية مساء، كنت مرهقاً وسعيداً وكأنني عائد من يوم عمل طويل.

ذهبت مبكّراً لأنام، ومع ذلك فقد صحوت قرب الظهر، بسبب جرس الهاتف. كانت سونيا على الطرف الآخر، سألتني ماذا فعلت، لا شيء. أجبتها، فأنا استريح من عناء أطروحة الماجستير. تواعدنا أن نلتقي؛ لتناول طعام الغداء بالقرب من المكتبة.

كانت علاقتي مع سونيا معقدّة، فقد أعجبتني منذ اليوم الأول من أيام الدراسة، لكنني لم أتعرف عليها إلا من خلال روديغر. انسجمنا

على نحو حسن، وبدأنا ندرس معاً. كانت أكثر ذكاء وموهبة منيّ، كما كانت أكثر اجتهاداً واتّسمت دائماً بالنبل، لهذا فهي لا تزدري ، ما ينجزه الآخرون، مثلما اعتدت أنا وفرِدْي أن نفعل.

كانت سونيا ذات عقليّة ناقدة، لكنّها تملك إحساساً بالعدالة، وقد حرصتْ على أنْ تغلّف انتقاداتها بطريقة يشعر المرء معها وكأنّها توجّه الثناء له. لذا بقيت موضع تقدير الطلبة والأساتذة معاً، فهي تملك القدرة على الإعجاب بالآخرين، فكان من الطبيعي أن تكون موضع إعجاب.

كانت هي، ورروديغر يظهران في أعلى درجات الإنسجام، ويبدوان كزوجين عندما يقيمان احتفالاً في منزل والديهما، ويظهران وكأنهما جزء من ذلك المنزل.

تعرّفت إلى أليس في واحد من تلك الاحتفالات، وأمضينا معاً بضعة شهور، وقد جرى انفصالنا، أنا وسونيا، كلّ عن رفيقه في وقت واحد تقريباً. تمّ ذلك في أيام الامتحانات، وما يصاحبها في العادة من توتّر. جاء انفصالي عن أليس بشعاً، وكان على سونيا، التي ترتبط بعلاقة صداقة مع أليس أن تستمع إلى شتائمها، التي كانت تصفني بالخنزير وتعدّد ما قمت به من أعمال رديئة. ومن المستغرب أنّ ذلك لم يؤثر سلباً في مكانتي لدى سونيا، بل جعل الصداقة بيننا تتعمّق وتقوى.

كنت أظنّ أنّ سونيا تريد أن تعيد المياه إلى مجاريها بيني وبين أليس حتى قالت لي ذات يوم: بأنّ أخبار لقاءاتنا ينبغي أنّ تظلّ سراً؛ لأن معرفة أليس بها ستؤدي إلى انهيار علاقات الصداقة بينهما. لكنّها لا تمانع في أن يعرف روديغر باللقاءات، لأنه جرى بينهما اتفاق متبادل بشأن

الانفصال. وقد انفصلا دون أن يتبادلا كلمة قبيحة. وعندما يراهما المرء معاً، يظن أنهما ما يزالان أصدقاء. وعندما سألت سونيا عن أسباب الانفصال أشاحت بيدها ولم تقل شيئاً.

كنت أنشغل، في بعض الأحيان، بفكرة حبّي لسونيا، لكنّه كان يتبيّن لي أنها بالقدر، الذي تبدو فيه قريبة مني، تبدو غير ملائمة لي ولعل ذلك يعود إلى أننا عرفنا بعضنا بعمق، مما رسخ جذور الصداقة بيننا. قمت ذات مرة بالتلميح، فقلت:

سيكون رائعاً إذا تصاحب روديغر وأليس، وأنا وأنت. فردّت سونيا وهي تضحك: تخيّل!

إنّها على حقّ، فأنا لم أستطع أن أتخيّل أن تكون سونيا صاحبتي، وليس بمقدوري أن أتخيّلها نائمة إلى جواري، صحيح أنها جميلة جداً، لكنّ الوصول إليها ينطوي على مشّقة ،وقد كنت أتخيّلها في بعض الأحيان كالدمية، التي لا تنفصل ملابسها عن جسدها على نحو يستحيل فك تلك الملابس. ومع ذلك قالت سونيا: بأن أليس وروديغر يشكّلان ثنائيّاً جميلاً، ونحن كذلك أيضاً، ثم أضافتْ. بأنّ هذا يمكن أن يقضي على أليس. وفضلاً عن ذلك فليس لديها الوقت في هذه اللحظة لبناء علاقة، فهي مضطرة للبحث عن عمل، وتريد الذهاب إلى الخارج، وهذا سبب قوي يحول دون إقامة علاقة معها. قلت لها: إنّني أرغب في أن أراها تعيش حكاية حب حقيقية، وأن تشعر بالمعاناة جرّاء ذلك الحب فضحكتْ كنت الشخص، الذي يستطيع أن يقول لها مثل هذا الكلام.

وصلتُ إلى البار قبل مقدم سونيا، وأخذت أنظر من النافذة وأتأملها

وهي تمشي في الشارع متجهة صوبي. كانت ترتدي بنطالاً أبيض اللون، وقميصاً أبيض بلا أكمام، وقد مال لونها إلى البُنيّ. أشرأبّتْ أنظار الجميع نحوها عندما دخلتْ واتجهتْ صوبي وقبّلتني على خدّي. نظرتْ يمنة ويسرة أثناء جلوسها وكأنها تبحث عن شخص بعينه، وسارع النادل إلى المجيء حتى قبل أن أشير إليه.

حكت لي سونيا عن مسابقة تريد أن تتقدّم إليها، وهي بناء حضانة لمجمّع صناعي ضخم. وضعتْ نظارتيها فوق عينيها،وهو ما يشعرها، عادة،بمزيد من الإطمئنان، وأرتني مخطّطاتها. أبديت بعض ملاحظات، لكنّها رفضتها. أخبرتُها بأنني أشعر الآن ببعض التحسن، فقد عانيتُ من نوم رديء، فنظرتْ إليّ بأسف مصطنع، وواصلت الحديث عن مشروعها. تحدثتْ عن الاندماج، والشعور بالاستقرار، وضرورة اكتساب الأطفال للشخصيّة، وتميزهم وقدراتهم. ثم قالت وهي تبتسم وتضع نظارتها فوق شعرها: الأطفال زبائني.

كانت سونيا على النقيض من إيفونا تماماً، فهي جملية وذكية وتتقن فن الحديث، ولها سحر وثقة طبيعية بنفسها. كان حضورها يخيفني بعض الشيء، ويجعلني أسعى؛ كي أكون أفضل مما أنا عليه. مع إيفونا كان الوقت يمضي ببطء السلحفاء، وتتسم اللحظات بسكون مؤلم. فقد كانت تمضي الوقت وهي تبتسم وترّد على أسئلتي بإجابة واحدة لا تختلف. وكان عليّ أن أبذل ما في وسعي؛ كي لا يموت الحوار بيننا. بالمقابل كانت سونيا سيدة اجتماعية من طراز رفيع. فهي تتحدّر من أسرة ميسورة ولم يكن أتصور أنها تقدم على عمل أو تتفوه بكلام ليس له مستوى. ومن المؤكد أنها ستحقق تقدّماً مهنيّاً سريعاً. وستنخرط

في حركة العمران وتشارك في بعض اللجان، وتنجب طفلين أو ثلاثة أطفال، سيكونون على قدر عالٍ من النظافة، والرعاية، والتربية العالية. لكنّ سونيا، لن تقول لرجل بأنها تحبّه، مثلما سبق لإيفونا أن قالت لي. إنّ إعلان إيفونا عن حبّها لي كان أمراً مؤلماً، مثلما ما هو مؤلم كذلك أن أتصور أن يراني الآخرون وأنا أصاحبها، وبالمقابل فقد كان التفكير بحب سونيا ينطوي على قدر من السمّو ،وقد بدا الأمر وكأنّ إيفونا هي الإنسانة الوحيدة، التي عاملتني بجدّية، والتي كنت أمثّل بالنسبة لها قيمة –لقد كانت المرأة الوحيدة التي نظرت إليّ بوصفي شاباً لطيفاً، أو مهندساً معمارياً واعداً. فمذ عرفتها، صرت لا أتوقف عن التفكير فيها.وكنت أعي في داخلي أنّ عليّ أن أراها ثانية، حتى لو كانت رؤيتي لها وسيلة، كي أتحرّر منها. كانت قد حدثتني بأنها تعمل في مخزن كنسي لبيع الكتب، وليس من الصعب علي أن أعثر على هذا المخزن.

روت لي سونيا عن مسيرة احتجاجية شاركت فيها؛ إحياءً لذكرى ضحايا مذبحة تيان آمن[1])،ففي الليلة التي سبق لي أن أمضيتها في غرفة إيفونا، سارت سونيا مع الكثيرين من ساحة غوته إلى مارين بلاتس. وهناك رسموا بالشموع أشكالاً صينية تدل على الأسى. ففي ضوء التصّور البوذي تشرع الأرواح بعد تسعة وأربعين يوماً من موتها بالبحث عن جسد جديد. وكان هذا الأمر، كما روت سونيا، مثيراً تماماً لدرجة أنها كانت على وشك أن تنخرط بالبكاء. ويبدو أنها هي نفسها تفاجأت بفورة المشاعر هذه، فقلت لها: إنني آمل أن لا تبحث روحك

(1) Tianamen التي عرفت باسم مذبحة ميدان تيان آمن في بكين في الخامس عشر من آذار عام 1989، ضد الطلبة الصينيين المحتجين.

عن جسد آخر؛ لأن ذلك سيكون أمراً باعثاً على الأسى. تطلّعتْ سونيا نحوي وكأنني أنا، الذي قمت بإطلاق النار على الطلبة الصينيين. استاذنتْ على الفور، وسألتني إنْ كنت سآتي إلى الحفل، الذي سيقيمه روديغر بمناسبة التخرّج، فقلت: بأنّني لم أقرّر بعد.

عثرتُ في دليل الهاتف على ثلاثة مخازن كنسيّة لبيع الكتب. ذهبت إلى الأوّل فأخبروني هناك بأنّ من غير المسموح إعطاء معلومات عمّن يعملون لديهم. تأمّلتُ المكان وعندما لم أر إيفونا غادرت على الفور. كان بائع الكتب في المخزن الثاني أقل حذراً وارتياباً، فأخبرني بأنّه لا تعمل أية امرأة بولندية هنا، وأضاف بأنّ إيفونا لن تكون في مخزن كتب كلاوديوس، لأن المخزن تابع للكنسية البروتستانتية. بعدها فكرّ قليلاً ثم قال بأنّ هناك مخزناً صغيراً تابعاً لرعاة كنيسة القديس يوسف في منطقة الشفابينج(1). وفيه تباع الكتب. ومن يدري فلعل صديقتك تعمل هناك. فأجبته بأنها ليست صديقتي.

كان عليّ أن أدور حول الكنيسة؛ لأتمكنّ من العثور على مخزن بيع الكتب الواقع بمبنى جانبي في ركن ظليل. كانت هناك درجات تقود إلى المدخل ونافذة إلى جوارها بضع شماعات ولوحات باللون الأصفر عليها: «المسيح والتلفزيون»، و«أرفعُ عينيّ نحوك» و«الرابطة الخالدة» وأشياء من هذا القبيل.

نظرتُ عبر الزجاج فلم أر أحداً، وعندما دخلت، دوّى صوت الجرس بقوة، بعد ذلك تحرّكت السّتارة الثقيلة في آخر الصالة. كانت

(1) Schwabing: منطقة من مناطق ميونيخ، التي تحظى بشعبية كبيرة لدى السواح؛ نظراً لما فيها من حانات ونواد ومطاعم.

الغرفة الخلفيّة مغمورة بنور الشمس؛ لهذا بدا ظهور إيفونا، محاطاً بهذا النور شبيهاً بالتجلّي، بعد ذلك عادت الستائر إلى مكانها فصار المكان وسطاً بين الظلمة والنور.

تأملّتني إيفونا بحذر، دون أن تُبدي أيّة إشارة تدّل على معرفة بيننا، جَلسَتْ على كرسي وراء الفاصل وانشغلتْ هي بترتيب كومة من الصور المقدّسة وبدأتُ، بدوري، أتأمل الكتب المرتبّة فوق رفيّن طبقاً لموضوعاتها: التبشير، العون في العقيدة، الزواج، والعائلة، والنِحَل والأديان الأخرى. وكان هناك موضوعات حول المرح والأشياء الحسّية. سحبتُ عن أحد الرفيّن كتاباً عن الطرائف الكهنوتية، على غلاف الكتاب كان هناك رسم لأسد، يجثو على ركبتيه أمام راهب طوى كفيّه للصلاة. أعدتُ الكتاب واستدرت ناحية إيفونا، التي ظلت حريصة على أن لا تعيرني أدنى اهتمام. اتجهت نحو الفاصل وتأملتها من أعلى إلى أسفل حتى رفعتْ عينيها. تغيّرت صورتها في ذكرياتي، عندما رأيتها وجهاً لوجه، وتساءلت، لماذا كنتُ في تلك الحالة من الرغبة؟ كانت نظرتها تتسم بالخوف، أو بالذّل وبدت غير مريحة على الإطلاق. غادرت المخزن دون كلمة، لكنني استدرت ونظرت إلى الوراء بعد أن مشيت عدّة أمتار، كانت إيفونا تقف عند الباب الزجاجي و تبدو راضية، أو لعلها كانت غير مكترثة، ببقائي أو بذهابي، وكأنّها تعلم أنني سأعود.

ذهبت إلى منزلي وشرعت في قراءة أطروحة الماجستير، التي ينبغي أن أتوّلى عملية عرضها بعد ثلاثة أيام. بدا وكأنني قد نسيت كلّ ما فكرّت فيه على امتداد الشهور الثلاثة الأخيرة. أخذت أقلّب الرسومات

والمخطّطات، فبدا لي أنّ روديغر على صواب فالمشروع، الذي أقدمه في هذا العمل غير أصيل، ولا يمتلك الطاقة أو الاستقلالية ويبدو أنني قد أضعت في أثناء هذا العمل طاقة لا متناهية؛ طاقة إبداعية لم أعرف كيف أوجهّها، وفي أيّ مسار أضعها. بدا لي أنني سرت، على غير وعي مني، أمام النموذج الخاص بي. فلم تؤثّر فيّ أساليب روسّي في العمارة، بقدر ما أثر فيّ عداؤه للحداثة وسوداويته، التي لم تكن، في الواقع، إلّا تعبيراً عن الجبن. وقد سخرتْ سونيا من ميلي لغير العصري وقالت بأنّ أعمال روسّي تبدو وكأن الرجل كان يلعب، أثناء تصميمها، بألعاب البناء الخاصة بأطفاله.

بدت لي أطروحتي ضحلة وخالية من الخيال، ومع ذلك فقد كنت واثقاً من النجاح، لكنّ ما آلمني أن أكون متوسط المستوى، وأن أقرّ في داخلي بأنّني لستُ ذلك الطالب العبقري، الذي حلمت طويلاً به. وضعت الأطروحة، على نحو لا إرادي جانباً، وبدأت أفكر بإيفونا وأحاول أن أرسم ملامح وجهها من الذاكرة، لكنني لم أستطع، اتصلت بسونيا هاتفيّاً فلم تكن في الغرفة، تناولت بعد ذلك طعاماً خفيفاً، وخرجت، لأتمشّى وحرصت على أن أتجنب الأماكن، التي اعتدت أن أذهب إليها بصحبة روديغر وفرِدْي، فلم تكن لديّ رغبة في الالتقاء بهما، خشية أن يوجهّا لي أسئلة غير مريحة. سرت عبر المدينة وشعرت بالوحدة، وأحسست بالرعب عندما.شعرت بأن إيفونا هي الإنسان الوحيد، الذي أرغب في رؤيته في هذه اللحظات.

احتجت إلى شيء من الوقت حتى استطعت أن أعثر على المنزل، الذي تسكن إيفونا فيه. كانت أجراسُ الغرف مرقمّة وخالية من الأسماء ولم

أكن أدري رقم غرفتها. وقفت أمام المنزل وبدأت بالتدخين. بعد مدة خرجت امرأة شابة واستطعت، على نحو لا يلفت النظر. أن أبقي بوابة المنزل مفتوحة. انتظرت حتى فكّت المرأة الشابة دراجتها الهوائية، وركبتْها وذهبتْ.

يعود زمن البناية إلى الخمسينات؛ فأرضيتها رماديّة،أمّا جدرانها البيض فقد تم طلاؤها بالأصفر، كما جرى تغيير بعض مواضع الغطاء البلاستيكي الخاص بدرابزين الدرج بأغطية معدنية. ومع أنني كنت، شبه ثمل، في زيارتي الأولى للمنزل، إلا أنني استطعت العثور على غرفة إيفونا دون صعوبات تذكر. على باب غرفتها كانت هناك لوحة صغيرة، عليها رقم الغرفة، كما يحدث في الفنادق. وتحتها ثبتّت إيفونا لوحة أخرى كتبت عليها بخط طفولي اسمها المعقّد، الذي نسيته ولا أستطيع إلى اليوم تهجئة حروفه. قرعت الباب ففتحتْ إيفونا، التي لم تقل شيئا ، لكنّها أفسحت المجال لي؛ للدخول، وبدت وكأنها تنتظرني. كان التلفزيون يعرض فيلماً عن الأزياء النسائية مصحوباً بموسيقى رومانسية. أغلقتُ الباب خلفي واتجهت نحوها، فتراجعت وبدا على وجهها ملامح الترقّب. وعندما وصلتُ إلى النافذة توقفت، فأمسكت بيديها وقبلتهما كما قبّلت ذراعها البضّ الشاحب. ابتعدت إيفونا قليلاً، ثمّ بدا وكأنها تستسلم، وأبعدتني عن النافذة، دون أن تنظر في عينيّ. كانت نظراتها فارغة وكأنها نظرات إحدى الحيوانات. استلقيت بحذر إلى جوارها وقبلتها ومددت يدي إلى صدرها، فلم تمانع وعندما حاولت خلع ملابسها قاومتْ بضراوة لا تقل عن المرة السابقة. كانت الموسيقى في التلفزيون تعلو والفيلم يقترب من الذروة، أو من

النهاية ربما. كنت في غاية الإثارة، لكنها إثارة من نوع مختلف، فلم يعد جسد تلك الفتاة هو ما يثيرني بقدر ما صار عقلها ومشاعرها الدافئة، وتحولت الإثارة إلى لون من الشعور القويّ بالأمان. لذا لم أشعر بالحرج حين خلعت ملابسي مع أنني كنت أعي الصورة المضحكة، التي تتولد عن هذا، عندما ترى رجلاً عارياً ممدّداً إلى جوار امرأة ترتدي ملابس قبيحة وغير عصرية. لكنّ هذا لم يكن يعنيني، تنفست إيفونا شهيقاً وزفيراً وهي تضع يديها على ظهري كأنها تريد أن تحتفظ بي دون أن يحدث بيننا شيء. وصار لدي شعور بأنها ستستلم لي.

لم أبق طيلة الليلة هذه المرّة، لكنّ إحساسا غمرني وكأنني أقوم بالهروب. لم تقل إيفونا شيئاً سوى أنها تحبني، وإن كانت تلهث، في بعض الأحيان، على النحو الذي سبق لي أن عرفته. وعندما أمسكت بيديها، وحاولت أن أبعدهما وأَضعهما جانباً تراجعت إلى الوراء. ابتعدت عنها. كنت مرهقاً وتعيساً وما أزال أشعر بالإثارة. رأيت نفسي عارياً إلى جوار امرأة مثقلة بالملابس المجعّدة والمنزلقة عن بعض جسدها. فتساءلت: ما الذي نفعله هنا؟ وما معنى هذا؟ عندها قالت إيفونا إنّها صلّت من أجل أن أجيء إليها. كانت تتحدّث بصوت فتاة صغيرة مقتنعة تماماً بأنّ صلاتها قادرة على تغيير العالم. أخبرتها أنني غير مؤمن فردّت إيفونا بقولها: بأن هذا لا يغيّر شيئاً. كنت مضطراً للضحك، وسألتها إن كانت تؤمن بأن الربّ يهتم بحياتها العاطفية؟ صمتتْ، وعندما نظرت صوبها بدت على وجهها ملامح فخر تشبه تلك، التي كنت رأيتها بعد ذلك ظهر ذلك اليوم عندما كانت تقف على بوابة مخزن بيع الكتب. شعرت بالغضب ورأيت نفسيْ أمزّق ملابسها عن جسدها، لكنها

واصلت الاحتفاظ بتلك الملابس فوق رأسها وعلى ذراعيها، ولم تتغيّر ملامح وجهَهْا. وبدت عليها ملامح الرضا، التي ترتسم على وجوه القديّسين الذين شاهدت صورهم الصغيرة في مخزن بيع الكتب والذين يقولون: بأنّ كل خطأ ترتكبه بحقيّ، يربطك بي بقوّة.

جلست وأنا أفرك عينّي مملوءاً بالخجل من أفكاري. وعندما لمستْ إيفونا ظهري، جفلتْ وقفزتْ عن السرير. قالت إيفونا بأنّها صلّت من أجل أن أعجب بها؛ لأنها سبق أن جلست على مقربة منّي في المقهى عدة مرات ولم أتنبّه لها. ارتجفت، فقد تصوّر أن تقوم إيفونا باصطفائي يبعث على الفزع. لماذا أنا تحديداً؟ لم تجب. أخبرتها أنّ علي أن أذهب، ارتديت ملابسي بسرعة وربطت حذائي فوق الدرج.

في الأيام التي تلت، تجنّبتُ إيفونا. كان عليّ أن أتجهّز؛ لعرض أطروحتي. فبدأت أعمل من جديد. صحوت مبكّراً وأنجزت رسومات جديدة لم يتمخّض عنها الكثير، لكنّ أفكاري بدأت تتضّح وبدأت أعي أمراً أكثر أهمية من الشكل، أو الأسلوب، أو الستاتيكيّة . وصرت أشعر، على الرغم من كل شيء. بالثقة وأحسست بالسعادة لما قمت بإنجازه. بدا لي وكأنني عرفت الحل، أو أنني صرت أضعه في رأسي ولا يحتاج إلا إلى تدوين. إنّ عليّ أنْ أضع هذا الركام، الذي تدربت عليه جانباً وأن أتبع الحركة والخط النابعين من أعماقي.

كنت قد وضعت تصميمي الأول دون أنّ آخذ بعين الاعتبار مساحة الأرض المكعبّة المتاحة والارتفاع الكلي المسموح به، فجاء التصميم المعماري مثلما ينحت نحّات تمثالاً من كتلة صخرية. نشأ عن ذلك بناء معماري خالص لم يكن يخلو من الإثارة كنموذج، لكنّه يفتقد الأصالة

على المستوى الداخلي مثلما يفتقر إلى الدراسة. أما الآن فصرت أسعى للاشتغال على الداخل والانطلاق منه، فلم أعد أبدأ من الواجهة بل من الصالات. لقد وضعت نفسي مكان زائر المتحف، وطوّرت بناء المتحف من خلال جولة متخيّلة. لم يكن عملي مجرد تصميم، بقدر ما كان عملاً نابعاً من المشاعر. قمت باختبار تلك الصالات كما يختبر المرء ثيابه. وكثيراً ما وقفت في غرفتي وعيناي مغمضتان وأزحت الجدران يمنة ويسرة وراقبت. سقط الضوء وتلمست ذلك ببطء. ولو راقبني أحد لظنّ أنني أصبت بالجنون. مع مرور الوقت بدأ يتضح نظام الصالات، والمداخل، والفتحات وأخذ يتشّكل على نحو هو أقرب إلى الكائن الحيّ منه إلى المبنى. بعد ذلك بدأتُ أعمل على البناء المغلّف، الذي كان أقرب ما يكون إلى المغلّف.

كان الجو حارّاً في القرية الأولمبية، وقد أمضيت النهار كلّه، وأنا أرتدي الملابس الداخلية وأتحرك وراء ستائر مغلقة. وقد احتسيت كمية ضخمة من القهوة حتى أصابني التعرّق. ولم أتناول الطعام إلّا بعد أن كدت أهلك من الجوع. عند المساء غادرت المنزل؛ لشراء بعض زجاجات البيرة وقليل من الكباب، الذي حملته معه إلى المنزل.

كانت الحركة في القرية الأولمبية، قرب نهاية الفصل الدراسي لا تنتهي، وكانت الموسيقى تصدح عالياً كل مساء وتجيء أصوات المحتفلين من الساحة الرئيسية في القرية. ابتعدت عن الجميع وجلست فوق الشرفة الصغيرة أتأمّل السماء وأفكر بإيفونا؛ رأيتها تقف في المطبخ المشترك حيث تسكن، تُعدّ وجبة بسيطة من البيض المخلوط، أو البطاطا وتأخذها إلى غرفتها؛ لتتناولها وحدها وهي تجلس على

طاولتها الصغيرة. وعندما تفرغ تعود إلى المطبخ ثانية وتقوم بتنظيف الصحون وتبادل بعض الكلمات مع بولندية أخرى لا تعرفها إلا عندما ترى وجهها. لكنها سرعان ما تعلن أنها متعبة، فتعود إلى غرفتها وتخلع ملابسها وتنظف غرفتها بالممسحة. كان هذا هو الخيال الإيروتيكي، الذي بنيته لها، وهو لا يزيد على وقوفها على المجلى وكيف يهتز بطنها وظهرها وصدرها الناعم وهي تعمل. وعلى الرغم من حرارة الجو، فإنّ تيار الهواء البارد جعلها ترتجف؛ لهذا ارتدت قميص النوم الأبيض المرصّع بالورود وهو قميص ليس له شكل محدد مصنوع من قماش التريكو الرفيع. وتساءلت إن كانت قد أدت صلاتها قبل أن تذهب إلى السرير أم إنها نامت في الحال على ظهرها في الظلام الدامس، كأنّها ميتّة وأخذت تسمع إلى الأصوات، التي تأتي من الغرف الأخرى، كصوت الماء وهو يتحرك في الحمامات، ورنين الهاتف في الممرات، وصوت امرأة وهي تهتف بأحد الأسماء أو صوت الموسيقى أو ضجيج السيارات في الخارج. كانت ترقد فوق السرير صاحية تفكرّ بي، كما أفكر أنا الآن بها. أسعدتني هذه الفكرة على نحو استثنائي. وبدا لي وكأننا نشاهد معاً عالماً مملوءاً بالغربة والخطر.

واصلت العمل في اليوم التالي، وعندما كنت أسمع صوت الهاتف. كنت أتجاهله. وكان مجموع المكالمات المسجلة على الرّد الآلي يبلغ ست مكالمات. تركت لي سونيا خبراً يقول: بأنّ عرضها لأطروحتها مرّ على نحو رائع، وهي تتمّنى لي التوفيق يوم الخميس. كما اتصل بي روديغر وفرِدْي وأمّي وكلّهم تمنى لي النجاح.

بقيت أعمل على مشروعي الجديد حتى منتصف ليلة ما قبل

الامتحان، يوم الخميس صحوت مبكراً، وألقيت نظرة على المشروع القديم، الذي استطعت تخيّله سريعاً والذي بدا لي غير مقبول.

في الطريق إلى قطار الأنفاق رأيت طائرة الحدأة والغراب يقوم بالهجوم عليه. سار الطير الجارح بهدوء. فحلّق الغراب حوله وعلاه وسقط فوقه. لم تقم الحدأة إلا بحركة طفيفة حركت فيها ذيلها. توقفّتُ طويلاً، وأخذت أشاهد هذا العرض الساخر. بدا طير الحدأة وكأنه يريد أن يستسلم، لكنه وسع حركة الدائرة في الاتجاه المقابل واختفى خلف الأشجار، وعندما ظهر، واصل الغراب هجومه مجدداً. حلّت عليّ السكينة، فما الذي سيحدث لي؟ إنّه امتحان لا أكثر وسأعيده في العام المقبل في أسوأ الأحوال.

كنت سعيداً؛ لأنّ امتحاني يبدأ في الصباح الباكر. كانت الأجواء في قاعة الامتحان باردة بعض الشيء وكانت تخلو من الجمهور. أرادت سونيا أن تأتي، لكنني رجوتها أن لا تفعل؛ لأن حضورها يجعلني عصبيّاً. كان والداي يجلسان في المقاعد الخلفية وقد لوّحا لي عندما اقتربتُ منهما.

اضطربت، عدّة مرات، أثناء العرض وخلطت أشياء ببعضها بعضاً، وأشرت إلى التشابه مع ألدوروّسي، وكأنّني أدّل ناقدي بأنني سطوتُ على آرائه. فاجأني الممتحن الأول عندما تحدث على نحو إيجابي عن عملي حتى لو كان الاتكاء، على حد تعبيره، على نماذج بعينها واضحاً على نحو لا تخطئه العين. أما الممتحن الثاني فقد دخل في تفصيلات العمل على نحو مطول، ورأى أنّ بيوت الدرج ضيّقة جداً، ثم أنهى حديثه بملاحظة يُثني فيها على البناء. ولم يرغب الأساتذة الآخرون

الإسهام في النقاش، وقد تولد لديّ الانطباع بأنهم أصيبوا بالملل، أو أنهم احتفظوا بطاقاتهم للطلبة الآخرين الذين سيأتون بعدي. استغرق الامتحان خمس عشرة دقيقة، غادرت بعدها القاعة مصحوباً باثنين من مساعدي البحث اللّذيْن أخرجوا الجدران المتحركة، والمخططات والنموذج المعماري.

كان الطلبة الممتحنون يقفون في الخارج وكان روديغر واحداً منهم. كانت عيناه تلمعان، وكأنه واقع تحت تأثير المخدّر. ربتُّ على كتفه وتمنيّت له التوفيق والنجاح، فابتسم ابتسامة غامضة ولم ينبس ببنت شفة.

كان والداي قد خرجا من قاعة الامتحان بعد خروجي بقليل. وقفا بعيداً، وكانا يبتسمان بفخر واعتزاز. تحدثت قليلاً مع زملائي بعدها قال لي والدي بصوت فيه شيء من التساؤل:

لقد سارت الأمور سيراً حسناً، وأطرقت أميّ برأسها مؤيّدة، مع أنني كنت على ثقة أنها لم تستوعب إلا نصف ما دار من حديث. جاملاني، على النقيض منّي، وصمّما على دعوتي للغداء. لاحظت أنهما مضطربان، وبدا لي أنّهما قد تقدمّا في السّن، على خلاف ما كنت أراه عندما أشاهدهما في البيت، أو في المحيط الخاص بهما وقد تألّمت جراء ذلك. ذهبنا عند الظهر إلى مطعم غير باهظ السعر، وعندما ودعتّهما بعد تناول الطعام بدت الراحة علينا؛ لأننا استطعنا اجتياز هذا الأمر.

في يوم الجمعة حصلت على علامتي، التي كانت 2,0 وهي علامة فاقت توقعاتي، وحصل فرِدْي على العلامة نفسها، في حين حصلت

سونيا على 1,0. أما روديغر فقد سار في أثناء عرضه في مسار خاطئ تماماً، وعندما أدرك ذلك، طلب من اللجنة أن تمنحه فرصة التقدم للامتحان في العام القادم، فوافقت اللجنة على طلبه.

أقمنا ليلة الإعلان عن النتائج حفلاً كبيراً رقصنا فيه حتى الصباح، وشربت الكثير فيه. وعندما وصلت إلى منزلي كان الفجر قد بزغ، ولم أتمكّن من النوم، فقد كانت الأفكار تتلاطم في رأسي ومع ذلك شعرت بالراحة؛ لأن الأشياء كلها صارت تعتمد على قراري، فليس في وسع أحد منذ اليوم أن يفرض عليّ ما ينبغي أن أقوم به، أو أدعه وشرعت أفكّر في التصميم الجديد، الذي قمت به، فيجب أن يكون ممكناً تصميم القاعات والتعبير عن المشاعر والأحاسيس المتعلّقة بالحرية والانفتاح. لقد رأيت صالات مرتفعة، شفّافة وبيوت درج مفتوحة وحركات تقوم على الضوء والظل، ولم أكن أعرف أرأيت هذا في اليقظة أم في المنام، لكنّ ما رأيته كان في غاية الوضوح والتميّز.

صحوت ظهر اليوم التالي وكنت ما أزال أشعر بالدوار جراء الكحول: لم أكن قد اتخذت قراراً بشأن الحفل الذي سيقيمه روديغر، وشعرت بالتّردد مساء بخصوص ذهابي إلى هناك، فلم أكن أشعر بالارتياح، وكنت أخشى أن ألتقي بأليس هناك، لكنني ذهبت في نهاية المطاف.

كان لوالديْ روديغر منزل في بوسّن هوفن يقع على بحيرة شتان بيرغ(1) مباشرة. كان والده محامياً لإحدى شركات السيارات. وقد

---

(1) Starnberger See بُحيرة على بعد 25كم في الجنوب الغربي من مدينة ميونخ، ومساحتها تزيد على 56كم2.

ورث أموالاً طائلة عن جدّه. لم يكن روديغر يتباهى بأموال عائلته، على الإطلاق، لكنّ المرء يلحظ بسهولة طريقة اللامبالاة، التي يتعامل فيها مع الناس والأشياء. كان ذلك يعجبني في بداية الأمر، لكنه صار يؤلمني في النهاية.

كانت الشمس توشك على المغيب عندما وصلت، وكان روديغر في طريقه؛ لإشعال الشموع الكبيرة المثبتة في الأرض، والموزّعة على أطراف الحديقة. حيّاني بمرح وربّت على كتفيّ وهو يقول: لم نرك منذ مدّة. كان يبدو في غاية الارتياح، مع أنه الوحيد، الذي لم يجتز الامتحان بيننا.

فوق العشب انتصبت طاولة طويلة مغطّاة بالأبيض بين المنزل والبحيرة. كان الضيوف ما يزالون على الشاطئ، وكان بعضهم ما يزال في الماء. أخبرني روديغر بأنّ عليّ أن أسرع في الذهاب إلى البحيرة إن كنت أرغب في السباحة. ألقيت نظرة على الشواء، فتركني أقف؛ لألقي نظرة أخرى على الآخرين هناك. كانت الشمس قد صارت وراء ظهورنا، وصار الظلام يلِفّ كلّ شيء لكن المشهد سيطر عليّ نظراً لما ينطوي عليه من هدوء لا متناه. كان هناك أحد يعزف على الغيتار، وعندما لا يكون العزف جميلاً، يبدو لي مضحكاً. تمشيّت نحو الشاطئ وهناك تمّ استقبالي بالصراخ. كانت سونيا مستلقية فوق أحد الأغطية فمدت لي يدها، فساعدتها على النهوض.

كانت سونيا ترتدي ملابس سباحة بيضاء اللون وتضع على كتفيها قميصاً رجالياً ذا لون أزرق فاتح. ضمتّني وقبلّتني على خدّي، وبدت ودوداً أكثر من المألوف. همستْ لي ويدها ما تزال على كتفي: انظر وأشارت برأسها. عندها رأيت أليس مستلقية فوق العشب وهي تضع

رأسها على فخذ فرِدْي. تساءلت: الاثنان معاً؟ فردّت سونيا وهي تمسك بيدي وتَقترح أن نتمشّى قليلاً: أيؤلمك هذا؟ لم أفهم المقصود في بداية الأمر، لكنّ هذا الأمر لا يؤلمني على الإطلاق. فأنا لا أحزن عندما أرى فرِدْي وأليس معاً، بل إنّ ذلك يفرحني؛ لأن أليس استطاعت أن تعثر على صديق، حتى لو كنت أتصوّر أنّ فرِدْي ليس هو الإنسان المناسب لها.

كنت أخشى أن ألتقي بأليس لما تتصف به من حزن جنائزي، ولنظراتها المملوءة بالاتّهام. أما الآن فإنني أشعر بالراحة. تمشيت مع سونيا عبر الحديقة فحكت لي كيف تم التفاهم بين أليس وفرِدْي. كان لروديغر، أو القوّاد الكبير كما وصفته سونيا، دور في هذاالتفاهم وقد سبق له أن عرّفك بها. فقلت: بأنّ هذا لم يخطر أبداً على بالي، لكنّني سعيد، على كل حال؛ لأنّها لم تعد وحيدة، وأنا أيضاً، قالت سونيا وهي تشبك ذراعها بذراعي، ثم أردفتْ: بأنّ علينا أن نجد الآن صاحبة لكَ. ولكِ أيضاً قلت. فضحكت سونيا وهي تهز رأسها، ليس لديّ الوقت لذلك. قالت سونيا، فقلت: بأنني لا أصدّق كلمة واحدة مما تقولين، فضحكت مجدّداً وأطرقت وكأنّها اكتشفت شيئاً بين الأعشاب ثم سألتني: أكلّ شيء لديك على ما يرام؟ فقلت: اعتقد ذلك.

جاء روديغر ومعه طبق ضخم من اللحم، تتبعه أمه، التي كانت تحمل سلّة من الخبز. ركضت سونيا نحوهما وسألتهما إن كانت تستطيع المساعدة، ثم اختفى ثلاثتهم في المنزل. تخيلّت كيف سيكون الوضع لو كانت إيفونا حاضرة. كانت ستجلس عابسة دون أن تتفوّه بكلمة، أو كانت ستتصرف بغباء كما كانت تفعل في الحديقة الإنجليزية. كنتُ

سأشعر بالخجل لوجودها. هذا مؤكد، كما أنّ وجودي معها وحدنا على شاطئ البحر، لم يكن ليبدو مثيراً أو جذّاباً. إن إيفونا تجعلني أشعر بالملل، فليس لدينا ما نقوله. لكنّني أشعر بالسعادة وأنا استلقي إلى جوارها في السرير، وهي ترتدي ملابسها القبيحة، وأنا أشعر بالحرية المطلقة الخالية من القيود

تمّ إعداد البوفيه. كانت والدة روديغر تقف أمام البوفيه، وهي تضع إحدى يديها على عينيها؛ لتتقي الشمس وتتمكن من النظر نحوي. لوّحتْ لي بيدها فذهبتُ إليها فحيتني بقبلة على خدّي وهي تقول: حسن أنكَّ جئت، فقد افتقدتك.

لم أعرف والدة روديغر إلا معرفة سطحية، لكنّ مودّتها نحوي كانت واضحة حتى في زيارتي السابقة لمنزلهم. مثلما تبّدى لي مرحها وخلوّ بالها من الهموم. قالت بصوت مرتفع: لا تقلقوا سأغادر على الفور! وعندما طلب منها روديغر أن تبقى؛ لتتناول الطعام مع المحتفلين هزّت رأسها وضحكت وأعلنت أنها ستذهب؛ لتنام، وأنها تريد أن تتمّنى لي: ليلة سعيدة!

سألتني بضعة أسئلة عن أطروحتي وأصغت إليّ بانتباه عندما تحدثتُ عن بدايتي الجديدة وأبدت عدة ملاحظات ذكية جداً. عقّب روديغر بأنه سيغدو سعيداً لو أنها تولت كتابة أطروحته، فردّت الأم بأنها درست تاريخ الفن في الجامعة، وأنها عُرفت بميلها الدائم لفن العمارة.

بعد هذا الحديث دخلتُ إلى المنزل، فنادى روديغر على الآخرين وشرع يضع اللحوم والنقانق فوق الأماكن المخصصة للشواء.

كنا مجموعة صغيرة لا يزيد عدد أفرادها على اثني عشر رجلاً وامرأة. كان نصف المدعوين من زملاء روديغر في الدراسة، أما أليس

وصديقتها فتدرسان في المعهد الموسيقي. وكان أحد أصدقاء روديغر في بدايات عمله الدبلوماسي. أما بيرغيت فهي تدرس الطب وتقيم مع سونيا في سكن مشترك. وقد سبق لي أن رأيتها عندما كنت أذهب إلى هناك؛ لأخرج مع سونيا، لكنّه لم يسبق لنا أن تبادلنا الحديث. كان هناك ضيوف لا أعرفهم. كان أحدهم يدرس الطب البيطري. كان فظّاً بعض الشيء ولا يتحدّث كثيراً، لكنّه التهم كمية كبيرة من اللحوم.

قام روديغر بتنظيم الجلوس حول المائدة ودّلنا على مقاعدنا ويبدو أنه كان يتوقع قدومي. جلست بين سونيا وسيدة أخرى لا أعرفها، في حين كان فرِدْي وأليس يجلسان على الطرف الآخر للطاولة. وعندما التقيت بفرِدْي أثناء تناول الطعام، بدا له أنّ من الضروري أن يقول شيئاً فقال: لا أظنّك مستاءً مني. هززت رأسي نافياً وبدت ملامح الدهشة على وجهي وقلت: لماذا أستاء منك؟ على العكس، أنا سعيد؛ لأنك بين أيد جميلة، فابتسم ابتسامة عريضة ورفع يديه عالياً وحرّك أصابعه ثم سأل: ما أخبار البولندية؟ تظاهرت بعدم استيعاب ما قال، فسألني: هل التهمتها؟ قلت له: بأنني لا أفهم ما يعنيه وعدت إلى مكاني. لكنّ ملاحظته استطاعت أن تعكّر مزاجي. فبدا لي كل شيء مصنوعاً وأضجرتني حوارات الآخرين وأفكارهم الكبرى، مثل خرافات فرِدْي عن التفكيكية وتقويضها لوحدة البناء. كان فرِدْي يتقن الحديث أضعاف إتقانه للرسم. وقد ظلّ يغيّر نماذجه المعمارية مثلما يغيّر المرء قمصانه. ففي يوم تراه معجباً بغيري الكبير[1]؛ لتراه

(1) Frank Owen Gehry: مهندس مغماري كندي–أمريكي من مواليد عام 1929 وهو من المعماريين المشهورين في االمذهب التفكيكي.

في اليوم التالي معجباً بليبس كند[1] أو كول هاس[2]. كانت رسوماته تأخذ شكل النموذج، الذي يقلّده، وظلّت تفتقر إلى لغتها الخاصة، وكانت رسوماتٍ مُقلِّدة تحمل طوابع الأفكار الكبرى، وهو قادر على أن يجمع الكثير من المال، وأن يحقق نجاحاً كبيراً من خلال عمارات من الدرجة الثانية في المدن المتوسطة الضخامة، التي سيعدّها وكيله نماذج معمارية متفوّقة.

بدأت سونيا تجادله، فهي من المعجبات بالمعماري لوكوربوزييه[3] وتحتقر التفكيكية، تحدثت سونيا عن البنايات الكبرى، وآفاق الوظيفة الاجتماعية. وقد قلت بأنها ينبغي أن يتمّ الربط بين حب سونيا الساذج للطبقات الاجتماعية الدنيا، وأصولها البرجوازية الكبيرة. أدركتُ أن ملاحظاتي قد آلمتها، لكنني لم أعر الأمر كبير أهميّة. لم يكد روديغر يشارك في الحوار، مع أنه كان على الأرجح، الاكثر موهبة وأصالة بيننا. لكنّه استطاع أن يفشل على هذا النحو المذهل. كانت آراؤه استثنائية وتتسم بالاستقلالية، لكنه لم يكن يمتلك الطاقة؛ ليكملها أو لعله كان يفعل ذلك بقدر واضح من اللامبالاة، مما كان يُجبر الأساتذة على أن يمنحوه أدنى العلامات. ومع ذلك كان الجميع يعاملونه باحترام. وكانت الجملة، التي تتكرّر عند الحديث عنه. إنّه يمتلك الكفاءة. كان روديغر يصغي إلينا ثم يُدلي بملاحظة لا يفهمها أحد. وفي أثناء سعيه، لإيضاح

(1) Daniel Liebeskind: معماري أمريكي من أصل بولندي من مواليد عام 1946، وهو الآخر تفكيكي وأستاذ جامعي ومنّظر مشهور.

(2) Rem Koolhaas: معماري هولندي ولد عام 1944 درس في هارفارد وله إنجازات معمارية مهمة، وهو تفكيكي كذلك.

(3) Le Corbusiers: (1887–1965) معماري سويسري فرنسي الأصل اشتهر بمساهماته في عمارة الحداثة.

موقفه، يصبح موقفه غير مفهوم فيصمت وهو يبتسم ابتسامة قانعة.

فجأة ودون أيّة مقدمات شرعت أليس تحكي عن حفل موسيقي شاهدتْهُ. كان عرضها يبعث على الرثاء، فقد كانت تتحدّث بحماسة مصطنعة وكأنها فتاة صغيرة. فالناس الذين تتعامل معهم عباقرة، والكتب، التي تقرؤها هي الأعمال الخالدة والموسيقى، التي تستمع إليها هي الموسيقى الأروع.

لم أستطع احتمال هذه الثرثرة، فاتجهّت بعد مدة نحو الشاطئ كانت الأشجار القديمة المزروعة يمنة ويسرة قبالة أماكن السباحة، تبدو في ضوء نور الشموع الباهت، وكأنها كائنات حيّة. على الشاطئ المقابل كانت الأضواء تنعكس في المياه وتتضاعف. أشعلت سيجارتي عندها أحسست بوقع الخطى خلفي. كان الطبيب البيطري يحمل النقانق المشوية في يديه ويمضغ الطعام.

مدّ يده نحوي مصافحاً، وقال: بأننا لم نتعارف. كان اسمه يعقوب وكان يتحدث بلكنّة محليّة طاغية. أخبرني أنه من الغابة البافارية ومن أوبر كاشوف تحديداً. سألني إن كنت أعرف المنطقة. فأجبته إنها على مقربة من أنتركاشوف. قهقه ضاحكاً وربّت بقوة على كتفي وقال: بأنني شخص متوازن. بعد ذلك بدأ يتحدث عن سونيا بكلام شبيه بالهذيان. فوصفها بأنها شبيهة بفستان درندل[1] نظيف. ولست أدري كيف توصل للحديث عن الأزياء؛ ليشرح لي أنّ فستان الدرندل هو الزّي المثالي للجسد الأنثوي، فهو يبرز الصدر ويركزّ على الخصر

---

(1) Dirndl فستان تراثي يُرتدى في جنوب ألمانيا وليختن شتاين والنمسا وسويسرا وإيطاليا والبلدان المحيطة بجبال الألب.

ويخفي الأرداف. وتساءل: ترى كيف ستبدو سونيا لو أنها ارتدت ذلك الفستان؟ كان وجهه ينضح بتعبيرات اللذة. ضحكتُ فبدأ بعد ذلك حديثاً عن الخصيان، وتحدث عن تاريخهم قديماً وحديثاً وأفاض في الموضوع فقلت له: سأذهب؛ لأحضر شيئاً أشربه.

عندما مررت بالمائدة، كانت أليس تتحدث عن وفاة كاريان[1]، الذي كان يقود تجربة لعزف أوبرا «حفلة راقصة تنكرية»[2]. وهنا اشتّد صوتها، وهزّت رأسها ورفعت نظرها إلى السماء كالمجنونة:

دعنا نراك وقد أنقذته يا رب السماء!

دعنا نراه، دعنا نراه وقد نجا!

إنه يموت! إنه يموت!

أيتها الليلة المرعبة!

عدت إلى المدينة مع سونيا بقطار الأنفاق. عند الوداع سألني روديغر عن إيفونا، فأشرت له أن يتوقف، فقد كان الأمر مؤلماً لي؛ لأن سونيا تقف إلى جواري. في القطار بدأت سونيا توجه لي أسئلة متتابعة وتبتسم ابتسامة ساخرة وتقول: امرأة بولندية إذاً! إنّها لا تعني لي شيئاً، فقد تحدث فرِدْي معها، ومنذ تلك الليلة لم أرها ولا أعرف شيئاً عنها. فقالت سونيا: إن البولنديات نساء مفعمات بالحيوية فخذ حذرك. فقلت: أظن أنك ينبغي أن تشاهديها؛ فهي قبيحة المنظر ومملّة ولا تتحدّث وعندما تقول شيئاً، فإنها تتحدث على نحو مبتذل. نظرت سونيا نحوي مندهشة. وقالت: لا تغضب. فأضفتُ: وهي أيضاً

(1) المقصود Herbert von Karajan (1908—1989) وهو مؤلف موسيقي وقائد أوركسترا نمساوي عزف أكثر من 700 عمل موسيقي.

(2) أوبرا من ثلاثة فصول تعود إلى Giaseppe Verdi وقد عرضت لأول مرة عام 1859.

كاثوليكية مؤمنة، إنها لا تهمنّي حقيقة أمِنَ الصعب أن تفهمي هذا؟ لكنك قد قمت بإيصالها إلى منزلها. فهل فعلت ذلك من باب اللياقة؟ إنها لا تستحق ذلك بحسب وصفك لها. زاغت عيناي. فعندما تتضامن النساء ، فمن الأفضل أن يغلق الرجل فمه. صمتت سونيا هي الأخرى مدة من الزمن، وكانت سيماء التفكير تبدو عليها. بعد ذلك قالت: إنها ستسافر في الأسبوع القادم إلى مرسيليا؛ كي تتمكن من مشاهدة المدينة ،التي يعود إليها لوكوربوزييه. وسألتني أن كانت لديّ الرغبة للذهاب معها إلى هناك. وأضافت بأنّها ستسافر بالسيارة، و سنقيم عند إحدى صديقاتها، وهي فنانة ألمانية تعيش هناك.

فكّرت أنه من المناسب أن أستريح بضعة أيام من عناء الامتحان، كما أنّ الرحلة لن تكلّف كثيراً. ومن يدري فلعلّي أستطيع أن أتخلّص من إيفونا، فأنا لن أفكّر كثيراً فيها طيلة بقائي مع سونيا. فأجبت: بكل تأكيد. يسعدني أن أذهب معك. ضحكت سونيا وقالت: أنا لا أعدك بالكثير على كل حال، فأنا أعرف أنك لا تقيم وزناً لمهندس معماري آخر، وهذا هو غرور العباقرة.

فتأملتها بنظرة ساخرة. كنت أدري أنها تهزأ بي، لكنني مع ذلك شعرت بالفرح؛ لأنها وصفتني بالعبقري.

قررنا أن نسافر يوم الاثنين. أخبرتني سونيا أننا نستطيع أن نقطع المسافة في يوم واحد إذا ما انطلقنا مبكرين. لم يكن غير يوم الأحد؛ لترتيب الأشياء الخاصة بالسفر. نهضت مبكراً وذهبت إلى المغسلة الموجودة في القبو. عندما دخلت القرية الأولمبية تأملت نفسي على نحو لا إرادي. وخشيت أن تتمكن إيفونا من مراقبة ما أقوم به. وبدا

لي الأمر وكأنني أقدم على خيانتها عندما أجهز نفسي للسفر مع امرأة أخرى. لم أشاهد أحداً. فمن الراجح أنّ إيفونا لا تعرف مكان سكناي. ومن المؤكد أنّها الآن في الكنيسة تصلّي من أجلي. أغضبتني هذه الفكرة وفكّرت للحظات أن أكتب لها بأنّ عليها أن تتركني وشأني؛ لأنني لا أريد أن أراها ثانية. ولكنّ ما هي التهمة، التي يمكن أن أوجهها لها؟ إنه، بالتأكيد، ليس ذنبها أنّني أفكّر فيها دوماً، حتى استطاعتْ أن تسيطر عليّ؛ وهي فكرة سحرتني وأغضبتني في الوقت ذاته. وقد كنت على يقين تقريباً أنّ سيطرتها عليّ ستدوم، طالما بقيت بعيدة عني، وأنني إذا أردت أن أتحرّر منها، فعليّ أن امتلكها جسدياً.

وضعت الغسيل في الغسالة وأدخلت النقود المطلوبة، كان الجو في القرية الأولمبية حاراً على نحو لا يطاق؛ فتمددت على السرير وأخذت أحدق في السقف كنت في مزاج قلق، وهو المزاج، الذي أستشعره قبيل السفر، عندما لا يكون لدي ما أفعله سوى الجلوس والانتظار. ولعل هذا هو السبب، الذي جعل مثل تلك الأفكار تستحوذ عليّ، حتى صرت غير قادر على التفكير بوضوح.

ذهبت صوب الشوارع الفارغة، التي تنخفض فيها درجات الحرارة. كنت أتصبّب عرقاً، وكانت الضوضاء تدخل في أذنيّ وكأنها مفلترة. كانت الأفكار تدور في رأسي؛ ينبغي أن أظفر بها، إنها تنتظرني. وقفت فترة من الزمن تحت ظلال سقف سكنها، وكانت بلوزتي قد غدت مبللّة تماماً، وكنت لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي من الركض. إنّ بوسعي أن أعود القهقرى، كنت أقول لنفسي، وستعود الأشياء إلى طبيعتها. كانت اللحظات تتسم بانعدام الوزن، حيث ساد السكون، لكنني قرّرت أن

لا أتردّد، كما حصل معي لحظة أن قررت الهرولة، كانت لحظة الهدوء المطلق وانعدام التركيز تماماً. رأيت نفسي وأنا أقرع جرس غرفة إيفونا، وكان بوسعي أن استمع إلى صوت الرنين العالي، الذي يمزّق السكون.

بعد مدّة رأيت إيفونا من خلال الباب الزجاجي، وهي تهبط درجات المنزل. كانت ترتدي تنوّرة بنيّة غامقة وبلوزة بيضاء، وهو الزي، الذي ترتديه يوم الأحد، على الأرجح، للذهاب إلى الكنيسة. تراجعتْ قليلاً إلى الوراء عندما رأتني ثم نزلت سريعاً عن ثلاث الدرجات المتبقيّة ورفعت مزلاج الباب. مددتُ يدي نحوها، لأصافحها، فاستدارت وهي تشعر بالحرج، في حركة تتناسب مع فتاة صغيرة السن، لكنها بدت مضحكة لامرأة في سنّ إيفونا. صعدتُ الدرج خلفها وذهبنا إلى غرفتها. كنت ما أزال أتجلّى بالهدوء، إلا أنها لاحظت أنّ هناك شيئاً غير طبيعي. تراجعتْ إيفونا صوب النافذة، فلحقت بها دون أن آخذها هذه المرة صوب السرير. بقيت واقفاً إلى جوارها أمام النافذة. ولما حاولت أن أفتح أزرار قميصها وضعت يديها على يديْ وأمسكتهُما بقوة، ثم تملّصت منّي، من خلال حركة سريعة: أبدت إيفونا بعض المقاومة عندما أجبرتها على خلع ملابسها وجواربها، التي ترتديها رغم شدة الحرارة، وعندما حاولت أن أمضي قدماً في ذلك قاومت بضراوة وتملصت خلسة من بين يدي. كان موقفها يتسمّ بشيء من الحماقة، فقد كانت تقف فوق أرض الغرفة بقوة وتحاول أن تستر عُريها، لكنني أمسكت يديها بقوة وانحنيت عليها وقمت بتقبيلها. كان رائحة جلدها شبيهة بالنباتات والخضار، وكان جسمها يحتوي على الكثير من الشامات السود، وكنت فاقداً للوعي جرّاء الرغبة. اتجهت إيفونا صوب النافذة

ووقفتْ قبالتها على نحو يسمح لمن يمر في الشارع أن يراها. كان الشارع خالياً، ولم يكن يتحرك فيه أحد.

عندها أخذت إيفونا بالبكاء وتصاعد بكاؤها حتى وصل حد النحيب، وصار جسدها كلّه يرتجف ويهتزّ، ثم أطرقت وانشغلت بنفسها وصارت تبكي بصوت منخفض. فجأة صحوت من الحالة، التي أمرّ بها فجلست على حافة السرير وأخذت أحدق فيها. وخطرت على بالي جملة ألدوروسي التي تقول: إنّ هناك كارثة ما في كلّ غرفة. وقد تبدت هذه الكارثة بوضوح معي ومع إيفونا. مددت يدي نحوها كي أمسك بها، أو لأتماسك من خلالها لكنها تراجعت إلى الوراء. نظرت إليّ، كانت نظرتها مملوءة بالفزع والحزن. فارتديت ملابسي وغادرت سريعاً.

قالت أنتشه: ليست هذه حكاية جميلة. وكان صوتها مملوءاً بالجديّة، فقلت: هذا صحيح. لكنّك أوّل من يعلم بها. فتساءلت: لماذا أنا تحديًدا؟

وبدلاً من أن أسلك الشارع، الذي يدور حول تراوبينج، سرت على امتداد البحر مع أنّ الوقت كان ليلاً والرؤية متعذّرة. كان هذا المنظر يثير الملل في نفسي سابقاً. لكنني كلّما أنعَمتُ النظر فيه تبّدت لي جمالياته. فقد كنت أتمشى صوب الأكاديمية، أحياناً، ولاسيما عندما تكون سونيا مستغرقة في النوم وأتأمل حياتي. بدا لي أن الأمور جرت على غير قصدٍ منّي، وأنّه وقع ما ينبغي أن يقع. لهذا أعجبت بأناس مثل أنتشه ظلّت حياتهم في متناول أيديهم، فهؤلاء حددوا أهدافهم وسرعان ما اتخذوا ما يحتاجون إليه من قرارات.

أوقفت السيارة أمام المنزل، لكنّه لم يصدر عن أنتشه أية حركة تشير إلى رغبتها في النزول.

قالت بصوت منخفضٍ: ليست لدي رغبة، حقيقة، في الذهاب معك، إلى الداخل. فأنت تعيش في هذا البيت مع زوجتك الجميلة وابنتك الحلوة. ترى ألا تشعر بالخجل؟ فقلت: لكنّ الحكاية لم تنته بعد. فقالت: يكفيني ما سمعته اليوم ونزلتْ.

قدتها إلى غرفة الضيوف الواقعة قرب المدخل، ومقابل المكتب في الطابق السفلي من المنزل. كانت سونيا قد أعدت كل شيء، فقد وضعت المناشف فوق السرير، الذي جرى تغيير ملاءاته حديثاً، إضافة إلى باقة من الورود فوق الطاولة القريبة من النافذة، وعليها بطاقة ثُبتّت على المزهرية. قرأت أنتشه البطاقة مبتسمة وأعادتها إلى مكانها. جاءت قطتنا ماتيلدا

ومشت بهدوء. كانت صوفي قد ألّحت في الحصول على قطة منذ مدة من الزمن، لكنّها لم تحصل عليها إلّا عندما احتفلت بعيد ميلادها العاشر. وهو ما ظل جدها وجدتها يعدانها به مدة طويلة من الزمن. لكنّ اهتمام صوفي بالقطة تراجع بعد مرور ستة أشهر، وصار علينا أن نذكرّها؛ لتهتّم بها .جلست ماتيلدا في حجري وشرعت تنظر إلى أنتشه، التي أخذت تستخرج ما يلزمها من حقيبة السفر الخاصة بها. أخبرت أنتشه أنّ لها حماماً مستقلاً يقع على اليمين مباشرة ،فطلبت أنتشه أن تغادر القطة الغرفة في الحال، فسألتها إن كانت لا تحبّ الحيوانات، فردّت بأنها تحب الحيوانات البريّة أما الداجنة فإنّها لا تحبّها.

تمنيت لها ليلة سعيدة وأردت أن أذهب، لكنّ أنتشه استلقت فوق السرير وقالت: مهلاً. أنت لم تجب على سؤالي. لماذا اخترتني أنا؛ لتفضي إليّ بهذا الحديث فنحن لا نكاد نعرف بعضنا بعضاً؟ قلت: لعلي فعلت ذلك لهذا السبب تحديداً. ترى هل تتذكرين الطريقة، التي جعلتني أشاهد فيها لوحاتك؟ بدت معالم الريبة على وجه أنتشه وقالت:أنت لم تُحّب تلك اللوحات، ولم يحبّها أحد في الواقع، حتى أنا لم أحبها. لقد قلت في نفسك: بأنني ما زلت فتى غرّاً، لكنني لم أكن كذلك. لقد استطعت أن أتعرف ذاتي في حيوان الكِمْيرَ(1) الأسطوري. وشعرت بأنه قبض عليّ متلبسّاً. لهذا – لم أرغب في رؤية اللوحات ليلتها. سألتني أنتشه: ألا تلاحظ أنك تبسّط الأمور؟ إنك تتصرف كالخنزير، ثم تسلك سلوك الحيوان الذي يتزيّا زيّ رجل.قلت : هذا ما لا أقبله منك، لعلي

(1) يسمى هذا الحيوان الأسطوري بالألمانية Schimäre. وهو Schimera بالإنجليزية يملك تجمعيّن أو أكثر من الخلايا المتميزة جنسياً. وتصوّره الأساطير على أنّ له رأس أسد، وجسم شاه، وذنب أفعى.

اعتقدت أنك بوصفك فنّانة، قادرة على استيعاب ذلك، فأطرقت أنتشه تفكر. وقالت: إنّ بوسعها أن تتعاطف مع الجنون، لكنها لا تستطيع أن تتفهّم ما أقدمتُ عليه. إن علينا أن نميّز بين الخيال والواقع. تخيّل أن يفعل ذلك أحد الناس مع ابنتك. قلت لها: إنّ هذا ليس عدلاً، فصوفي ما تزال طفلة. فردت أنتشه: أنها لا تتحدث عنها بوصفها طفلة.

تبادلنا تحية الوداع ثانية، وذهبت إلى غرفة صوفي. كان هناك ضوء ليليّ أزرق صغير، شاهدت في هذا الضوء المحدود وجه صوفي. وبينما كنت أراقبها، تجعّد جبينها، فتساءلت عن طبيعة ما يجري في رأسها، وبأي شيء تحلم يا ترى. كانت تجيء في بعض الليالي إلى غرفتنا، فأصحو عندها دون أن أدري سبب الصحو، فتقف هي إلى جوار السرير، وتحدّق بجبين متغضّن. وعندما أقوم بإرجاعها إلى غرفتها كانت تقول: بأنها رأت حلماً مزعجاً؛ لتقوم وتحكي حكايات مضطربة عن الحيوانات المفترسة، والرجال الشريرين، أو عن بعض الآلات الكبرى المدمّرة في بعض الأحيان. فأقول لها: إنّ عليها أنْ تفكرّ بأشياء أخرى جميلة. فترد: هذا صعب.

ارتديت بيجامتي وعندما استلقيت على السرير، صحت سونيا للحظات وقبلتّني ونامت في الحال. فكرّت في الصور، التي سبق لي أن ألتقطتها لها أثناء النوم، والتي اكتشفتْها فيما بعد. لحظتها تبادلنا القبلات لأول مرة، وكان ذلك في الجزيرة الصغيرة في ميناء مرسيليا. كان ذلك يبدو وكأنه حدث منذ زمن طويل.

عندما وصلتُ إلى مواقف السيارات وجدت سونيا بانتظاري. نزلت من سيارتها وفتحت الحقيبة الخلفية، فتمكنت بصعوبة من إدخال حقيبتي الرياضية إلى جوارها. سألتها ما الذي وضعته في هذه الحقيبة الضخمة. فأنا اعتقدت بأننا سنمضي بضعة أيام في الخارج، ولن نحتاج إلا لأشياء محددة. ردّت بأنها لم تضع فيها إلا ما هي بحاجة إليه: كالكتب، وجهاز التصوير الخاص بها. سألتني بعد ذلك إن كنت أحضر كاميرتي. أوضحت أنني لست بحاجة للكاميرا، فلديّ عينان وذاكرة. فقالت سونيا: أنت كسول جداً.

كان ذلك الصباح بارداً، وكان كل شيء يتسّم بالنضارة والنظافة. سترتفع حرارة الجو عند الظهر، كما أوضحت سونيا، لكنها وعدت بأننا سنكون لحظتها في الجبال. كانت سونيا قد حسبت حساب كل شيء: كبطاقات الشوارع الضرورية، والماء، والثيرموس المملوء بالقهوة. وقد ملأت إحدى الحقائب المبردة بسندويشات خفيفة. سنسافر حول سان بيرونااردينو، ونمرّ بمايلاند على امتداد ساحل ليغوريا[1]. هكذا أوضحت سونيا مسار الرحلة. مسافة طويلة لا شك. قلت لها مبدياً استعدادي، لمساعدتها في قيادة السيارة. سنرى ردة الفعل عند سونيا.

كانت رحلة جميلة حقّاً. فلم يسبق لنا أن أمضينا معاً وقتاً طويلاً كهذا الذي أمضيناه معاً، وكان التفاهم بيننا رائعاً. تحدثت سونيا عن لوكوربوزييه، الذي كانت تعرف كل شيء عنه وعن أعماله. سألتني ما الذي آخذه عليه. لا شيء. أجبتها، لكنني ببساطة لا أحبه. إنّ معماره، في نظري، معروف للجميع. ويبدو لي وكأنه يريد تحويلي مثلاً إلى

(1) أحد أقاليم إيطاليا، يقع في شمال غرب إيطاليا، ويطل على البحر الليغوري.

إنسان مثالي. هل سبق لكَ أن كنت في واحدة من البنايات، التي قام بنائها؟ سألتني سونيا. كلا، لكنني شاهدت الكثير من البنايات، التي قام بتصميمها، ردّت سونيا بأن الصور وحدها لا تكفي، فإنّ القيمة النوعية لتصميمات لوكوربوزييه تتبدى في الصالات أكثر مما تتبدّى في واجهات المباني، فضلاً عن أنه ليس من الخطأ أن يقوم المبنى بتغيير سلوك ساكنه نحو الأفضل. فقلت إنّ للإنسان تاريخاً ينبغي مراعاته، وأخذه بعين الاعتبار، وكل المحاولات، التي تسعى إلى صناعة إنسان جديد، إما أن تفشل في أحسن الأحوال، أو تقوده في أسوأ الأحوال ، إلى جرائم لا توصف. فما الذي فعله لوكوربوزييه في الحرب حقيقة؟ أجابت سونيا بأنّ هذا الأمر غير واضح، لكنّ الرجل لم يكن فاشيّاً بالتأكيد، وفي غضون عشرين عاماً لن يتحدث أحد عن التفكيكية، لكنّ لوكوربوزييه سيبقى خالداً.

بعد ذلك تحدثنا عن أطروحات الماجستير وعندما أخبرتها بأنني بدأت كتابة أطروحتي من جديد، نظرتْ إليّ بتعجب: حدثتها عن أفكاري الجديدة، التي ترى أنّ البنية تتولد من الأسلوب وهي تنمو كالنبات، وأنّ الغرف ليست مجرد الفراغ الواقع بين الجدران، بل إنها المجال المجسّد أو الهياكل العظمية المكوّنة من الضوء والظلّ. وقد خامرني الشعور وأنا أتحدث أنّ ما قمت بإنجازه في الأسابيع الماضية لم يكن عملاً رديئاً، وإن كان بلا معنى، بطبيعة الحال، بعد أن حصلت على الدرجة الجامعية. سألتني سونيا إن كانت لديّ الرغبة في مشاركتها في مسابقة دار حضانة الأطفال، فعجبت؛ لأنها رفضت جميع مقترحاتي قبل أيام، ولأنّ وجهات نظرنا بخصوص فن العمارة مختلفتان اختلافاً

جذرياً. سألتها أتعتقدين أننا نشكل فريقاً جيداً؟ فردت سونيا وهي تضحك ساخرة: إنك أنت، الذي تصنع الأخطاء الجسيمة أكثر مني.

وصلنا عند الظهر إلى الممرّ، أوقفنا السيارة وتناولنا بعض السندويشات الصغيرة، ثم تمددنا في الشمس حتى نهضت سونيا وأعلنت عن رغبتها في مواصلة السير. سألتها إن كانت ترغب في أن أقود السيارة، لكنها هزت رأسها رافضة وهي تقول: فيما بعد، فأنا لا أشعر بالتعب. لم أكن غير سعيد بهذا القرار، فأنا لست سائقاً ماهراً وكنت مستمتعاً بالجلوس المريح إلى جوار سونيا وتأمل الطبيعة، التي نمرّ بها عبر النافذة.

ولست أدري كيف انفتحت سيرة روديغر، فسألت سونيا عن الأسباب، التي أدت إلى انفصالها عنه، فردّت بأنه هو، الذي بادر للانفصال عنها فقلت: هذا أمر محيّر، فكيف يمكن لأحد أن يترك امرأة مثلك؟ أدارت سونيا رأسها نحوي وضحكت هازئة. وهي تقول: قل ذلك له!

كنّا معاً منذ المدرسة الثانوية ونشأنا معاً في منطقة واحدة لا تكاد تفصل بينها سوى بضع كيلومترات، وقد اختار روديغر أن يدرس هندسة العمارة، لأجلي، فقد كان في وسعه أن يدرس تخصّصاً آخر، فهو قادر، كما تعرفه، على أن يفعل كلّ شيء، لكنّه لا يفعل شيئاً على الإطلاق.

استأجرت سونيا في بداية الدراسة غرفة في سكن جماعي، أما روديغر فكان يسافر كل يوم من بوسّن هوفن إلى المدينة. وقد أمضينا وقتاً جميلاً، لكنه كان يغيظني في إصراره على أن يقيم عند أمّه وأبيه. قلت لها: إنّ أمه سيدة لطيفة. فقالت: هذا صحيح وأبوه أيضاً، لكنّ روديغر على ما يبدو، لا يستطيع أن يتركهما. وقد وجهّتْ له ذات

مرة إنذاراً نهائياً، فاختار عائلته. قالت ذلك وضحكت: إنني أستطيع أن أتصور أنّ روديغر لن يتزوج فهو لا يهتم بالنساء. في واقع الأمر. سألتها إن كانت تقصد أن له ميولاً مثلية. كلّا ردت سونيا وهو لا يهتم بالرجال أيضاً. بم يهتم إذاً؟ سألتها. فهزت كتفيها وقالت: لا أدريّ .ثم أردفت: إنني لا أتهّم روديغر بشيء، فقد كانت سعيدة أن يكون روديغر وهي في سن السابعة عشرة، صديقها، الذي لم يجبرها يوماً على فعل شيء. سكتُّ. وهو يتحلّى بالصفات نفسها أثناء العمل، أضافت سونيا وهو ما كان يزعجني أكثر في الغالب، فهو لا يمتلك الطاقة، لذا كان من الطبيعي أن يرسب في الامتحان، وليس من المستغرب أن لا يحصل على شهادة الماجستير أبداً.

غادرنا الجبال وصرنا نسير في السهول المنبسطة. وكلما اقتربا من مايلاند، ازدادت حركة المرور كثافة، فصمتت سونيا؛ كي تكون أكثر تركيزاً. بعد ذلك وصلنا إلى الريف فخفّت حركة المرور. سألتني سونيا: ما الذي تتوقعه من المرأة؟ قلت بأنني لا أتوقع منها شيئاً عندما أقع في حبها، وعليّ أن أقبل بها كما هي. ضحكت سونيا. وقالت: بأنني رومانسّي فاقد للأمل. أجبت بأنه يتوجب على النساء أن يكنّ عاقلات، وأن يبحثن عن الرجال المناسبين. ثم سألتها: أتفعلين ذلك؟ صمتت لحظات ثم قالت: أنا بالتأكيد أفعل ذلك.

كان الهواء رطباً والأجواء في السيارة قد أصبحت حارة جداً. فتحنا النافذة، وأخذنا نستمع إلى المذيا ع، ثم إلى أشرطة التسجيل. كنت أطلب من سونيا من حين لآخر، أن أتوّلى القيادة لكنها كانت ترفض، وتقول إنها ليست متعبة. وقد توقفت أثناء الرحلة مرتين، أو ثلاث مرات، عند

أماكن مخصصة للراحة دون أن تخبرني من قبل، وهناك احتسينا القهوة الفاترة، وذهبنا إلى التواليت وبعدها واصلنا الرحلة.

عند وقت متأخر من العصر وصلنا إلى الشاطئ، وبعد ذلك بساعة وصلنا إلى فرنسا، فقالت سونيا: بأننا لسنا بعيدين عن مرسيليا.

وصلنا إلى مرسيليا في الثامنة مساء بعد اثنتي عشرة ساعة من السفر المتواصل. وقد استغرق وصولنا إلى المنزل، الذي تسكن فيه صديقة سونيا حوالي نصف ساعة. لم يكن ذلك المنزل بعيداً عن البناء القديم، لكنّ الحيّ كان شبكة معقّدة من قطارات الشوارع، وقد درنا بالسيارة حول دائرة لا تفضي إلى شيء، متبعين إشارات المرور، التي كان مكتوب عليها،وسط المدينة وأخرى كُتب عليها. جميع الاتجاهات تساءلت أليس هذا جميلاً؟ فبصرف النظر عن الجهة، التي يقصدها المرء، ليس هناك إلا طريق واحد. لم تجب سونيا كانت متعبة ومتوترة.

عثرنا أخيراً على المنزل. إنّه شقّة في الطابق الخامس في مبنى له طابع شبابي وواجهة قذرة وليس بعيداً عن موقف مجاني للسيارات. أطفأت سونيا محرك السيارة وظلّت جالسة. كانت تشعر بالإنهاك تماماً. سألتها إن كانت ترغب في أن أحملها، بعد أن قالت بأن أنتشه تسكن في الطابق الخامس.

ذهبت سونيا قبلي، بينما كنت مشغولاً بجرّ حقيبتها الضخمة، وحقيبتي فوق الدرج. من الأعلى جاء صوت الصديقتين وهما تتبادلان التحية. قدمتني سونيا لها قائلة عندما وصلت إلى المساحة الصغيرة أمام الشقة: هذا هو الاكسندر وكنت أمد يدي لمصافحة الفنانة، التي كانت ترتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً بلا أكمام. كان شعرها أشقر شبيهاً

بشعر سونيا، ويداها صغيرتان وقويتان، ويبدو أنها تفوقنا سنّاً فهي في الأربعين. قالت أنتشه بابتسامة ساحرة: هل استطعتِ أن تظفري به؟ فصاحت سونيا بغضب مصطنع وهي تضحك: أنتشه! نحن زملاء، هذا ما سبق أن قلته لك. دعتنا أنتشه؛ لتناول بعض الطعام، الذي كانت قد أعدّته، وسارت أمامنا في ممر مظلم.

كانت العمارة تبدو متداعية من الخارج، لكنّ الشقّة كانت بحالة حسنة، فغرفها مرتفعة وإضاءتها جيّدة، أما أرضيتها فخشبية عتيقة تصدر صريراً أثناء المشي فوقها. كانت اللوحات الزيتية موزعة على الجدران، وهي لوحات مملوءة بصور الحيوانات، والقطط البحرية والعصافير، وذوات الحوافز والقوارض. كانت تلك المخلوقات تبدو غير طبيعية، ففيها ما يبعث على الانقباض. كانت تبدو وكأنها تراقبنا، أو تتربص بنا. قادتنا أنتشه إلى الشرفة؛ لتناول الطعام. كانت أنتشه قد وضعت على المائدة مصباحاً يشتعل بمشتقات البترول، وإلى جانبه بعض الشموع. كما وضعت بعض الخبز المدهون بالجبن واللحم المقدّد والزيتون وصحناً مملوءاً بالسلطة الخضراء.

تناولنا الطعام وشربنا النبيذ وتبادلنا الحديث، سألتنا أنتشه عند الساعة الحادية عشرة، إن كنا نرغب في الخروج، لكنّ سونيا قالت بأنها تكاد تموت من الإرهاق. عندها خيّرتها بين أن تنام مع زميلها المهذب في غرفة الضيوف، أو أن تنام معها في غرفة نومها على السرير المزدوج. شعرتْ سونيا بالارتباك، على نحو لم أره من قبل، فقد كانت تبدو وكأنّ في أعماقها شيئاً يتحرّك. وبعد قليل من التردّد قالت سونيا لأنتشه سأنام إلى جوارك. فقالت أنتشه: بأنها كانت تخشى ذلك، ثم أخذتها؛ لتريها

الغرفة، واختفتا. بقيت جالساً على الشرفة أتأمل الشارع، واستمع إلى الأصوات المرتفعة، التي تتصاعد. وقفتْ إحدى عربات النقل في منتصف الطريق، فانحنى أحد سائقي السيارات على النافذة وشتم السائق، الذي كان يُفرغ، بكل هدوء، صناديق كرتونية كبيرة ويكدّسها فوق الرصيف.

جاءت أنتشه وأخبرتني أنّ سونيا تتمنّى لي ليلة سعيدة، وطلبت مني سيجارة. سألتها إن كانت الرسومات في شقتها من إبداعها. كانت تبدو غير طبيعية، لكنها قالت، وهي تبتلع أنفاساً متلاحقة من سيجارتها، وتطفئها، تعال معي.

سبقتني أنتشه إلى غرفة المعيشة، وأضاءت النور وقالت لي: تأمل بدقّة ما ستراه. أحسست أننيّ مراقب للمرة الثانية. بيد أن الأمر تطلب بعض الوقت حتى استطعت أن أتبيّن السّر. كانت للحيوانات أعين بشرية. قالت أنتشه بعد ذلك: تعال، سأريك أحدث لوحاتي. قادتني إلى غرفة كبيرة في نهاية المَمَر. كان خشب الأرضية قد تمّت تغطيته بورق مقوّى من القطع الكبير.وعلقت على الجدران لوحات سود، وإن كان من الصعب عليّ أن أتبيّن ما هو موجود بدقّة من خلال الأضواء الخافتة. كانت أنتشه قد سارت داخل الغرفة وانحنت، فانبثق ضوء باهر من مصباح كهربائي مثبت على قاعدة ثلاثية. كان الضوء ساطعاً لدرجة أنني شعرت بالعمى للحظة من اللحظات. بعدها بدأت أرى مخلوقات أنتشه العجيبة: رجل له رأس سمكة، وعضو تناسلي ضخم، ثور ينزو على بقرة وللثور والبقرة رأسان بشريان. كلبان لهما أعضاء تناسلية بشرية. أما خلفيّات اللوحات فهي تتوزع بين مناظر طبيعية مدينية، ومبانٍ

جاهزة متهالكة، وممرات مشاة فارغة، وتجمعات صناعية رمادية. كانت اللوحات مرسومة بالزيت، وذات إيقاع مظلم، أما أسلوبها فيذكر بروّاد الفنّ المتميزيّن. لم تكن أنتشه قد انتهت من رسم اللوحة، التي تحتوي على كلبين بعد، وكانت خلفيتها مرسومة بالفحَم. كنت حائراً لا أدري ما أقول. لم أجد اللوحات جميلة، ووجدتها تبعث على القلق أكثر من تلك، التي رأيتها في الغرف الأخرى، لكنّ لتلك اللوحات، دون أدنى شك قوة جاذبة قادرة على إثارة القلق. كما بدت لي اللوحات لا تنسجم وطبيعة أنتشه، التي تبدّت في أثناء الحوار سطحية وبخاصة وهي تتحدث مع سونيا عن الملابس، والخروج وميونيخ ومرسيليا. ظهر لي أنّ أنتشه ليست حريصة على وجهة نظري، فقد قالت ووجهها ينّم عن تعبيرات ساخرة: أهلاً وسهلاً بك في حديقة الحيوانات. أطفأتْ أنتشه المصباح الكهربائي، فحلّ الظلام مجدداً، لكنه كان ظلاماً مختلفاً، صرت فيه قادراً على أن أتبيّن أية مخلوقات مرعبة يخفي. عدنا إلى الشرفة من جديد، فملأت أنتشه الكؤوس ثانية وتفحصتني على نحو مكشوف. ساد صمت غير مريح، وشعرت بأنّ عليّ أنْ أتكلم. قلت: أنت تشعرين بالقلق. هذا صحيح. قالت أنتشه ولم يكن ذلك اعترافاً بقدر ما كان لوناً من التشجيع على مواصلة الحديث، وكأنّها كانت تتوقع أن أواصل كلامي. كان الأمر يبدو لي وكأنني أتعرض لإحدى الامتحانات. من هو الفنان الذي رسم حديقة اللذة؟ حاولتُ أن أتذكّر. لكنّ أنتشه قالت: لا تتعب نفسك، فسونيا هي الأخرى لم تعجبها لوحاتي، ولعلّكما شابان وما تزالان تحتاجان إلى رعاية. سألتني عن الحيوان، الذي أتماهى معه. فكرّت، لكنّ اسم حيوان ما، يمكن أن يناسبني، لم يخطر ببالي،. قلت:

عصفور. قالت أنتشه وهي تهز برأسها: هذا ما يقوله الجميع. غزالة؟ ثم قلت: هذا مناسب لسونيا. لَوتْ أنتشه فمها وقالت: لا. سونيا داجنة، ماعز أو خنزير البحر فقلت: خنزير البحر. ضحكت. قالت أنتشه: أنت غير مهذب، وأنني كلب في أحسن الأحوال. كلب ضال. وهذا ليس مدحاً بالضرورة. تساءلت ترى ما هو الحيوان المناسب لإيفونا؟ لعله الكلب، لكنّ إيفونا ليست داجنة، فوراء هدوئها الظاهري وصبرها، يكمن حيوان متوحش، وتصميم ندر أن تراه عند أحد من الناس.

سألتني أنتشه: هل تُعجبك هذه الكابيرا[1]؟ قلت: لقد درسنا في الجامعة معاً ولعلنا نتقدم إلى إحدى المسابقات. ولكن ألم تدرك أن سونيا تريد المزيد منك؟ سألتْ أنتشه. هززت رأسي وقلت: ليس لديها الوقت؛ لإقامة علاقة. وهل تصدقها؟ سألتني وهي تضحك ضحكة تدّل على الكثير. قلت: أنا لا اعتقد أنها تحبني. ولا أنا أيضاً أظن ذلك. قالت أنتشه. إنّ عليك ألاّ تتوقع منها الكثير.

واصلنا الشراب والحديث. كان مما يدخل الفرح إلى قلب أنتشه أن تجعلني غير واثق. أخبرتني أنّ صديقها يعيش في ميونيخ، وهو أمر مناسب تماماً لها؛ فهي لا تطيق أن يظل الرجل يعيش إلى جوارها؛ لأنه يزعجها في عملها. ثم سألتني: لا شك أنك تريد أن تتزوج وتبني عائلة. أليس كذلك؟ لا أدري أجبتها فقالت: إن كنت ترغب في الزواج، فإنّ سونيا زوجة مثالية. فهي جميلة وذكية ومتحضرة، وهي صديقة وفيّة. قلت: كلّ هذا لا يكفي. فأجابت أنتشه: أنا لا اعتقد أنك مخلوق للحب

(1) يشار هنا إلى ما يعرف بالإنجليزية باسم Cary أو Caviiade وهي فصيلة من القوارض تنتشر في أمريكا اللاتينية.

الكبير ثم قالت: وأنا أشبهك.

سبق لأنتشه وهي في العشرين من عمرها، أن عشقت جورج أستاذها في أكاديمية الفنون الجميلة، الذي كان يكبرها بخمس عشرة سنة.. كان جورج يعيش في هامبورغ ويجيء إلى ميونيخ مرة كلّ بضعة أسابيع، ليتابع أعمال طلبته. كان متزوجاً ولَدَيْهِ أربعة أطفال وهو ما قاله لأنتشه منذ البداية. كانت العلاقة معه، في بادئ الأمر، لا تزيد على لحظة طيش.

بعد ذلك تحوّلتُ إلى محظيّته، فكان يأخذني؛ لأشهدَ معه افتتاح المعارض، ويقدّمني إلى شخصيات مهمة، وقد ساعدني في الحصول على غاليري خاص بي، وقد كنتُ الأولى بين الخريجين الذين لهم غاليري خاص بهم.وقد أعجبها أن تكون عشيقة لرجل معروف، يعاملها معاملة كريمة، ويأخذها إلى المطاعم الراقية ويقدّم لها الهدايا.

صارت أنتشه بعد تخرجها تشعر بالفراغ، فهي لا تدري ماذا تصنع بحرّيتها، التي اكتسبتها ولم يكن لديها تصور عما ينبغي أن تفعله.

فظلّت تواصل العمل بجنون، لكنّها لم تتقدم خطوة إلى الأمام؛ لأنّ جورج هو الذي كان يمثّل صلتها بالحياة الفنية. وقد صار يجيء إلى ميونيخ فيمضي بضعة أيام يزوران فيها المعارض الفنيّة ويمضيان الليل معاً.

لاحظت أنتشه أنه صار لجورج طلبة آخرون، غدوا مصدر إلهامه فأضحت العلاقة بينهما مقتصرة على الجنس، وكلّما كان جورج يُعرض عنها. كان تعلّقها به يزداد قوة. لهذا لم تتقدّم من الناحية الفنية؛ لأن حياتها غدت فريسة للغيرة.

كان لجورج طالبة موهوبة جداً، قالت أنتشه، وأنا أعتقد أنه لم تكن بينهما علاقة، لكنني لم أعد قادرة على التفكير بوضوح. فصرت أذهب للأكاديمية؛ كي أمسك به متلبسّاً، وأقوم بتتبعه عندما يذهب مع طلبته إلى أحد المقاهي. كنت أجلس على الطاولة المجاورة، بحيث يكون في وسعه أن يراني. ثم كتبت له في النهاية رسالة مطولة وهي رسالة مخجلة، آمل أن يكون قد ألقى بها في سلة المهملات. كنت أتصرف معه على نحو عدواني، تارة، وعلى نحو متذلل تارة أخرى، وأجمع بين السلوكين في بعض الأحيان. وعندما يكون في هامبورغ، كنت أواصل الاتصال به في منزله حتى اضطررته إلى تغيير رقم هاتفه. هدّدني، على أثر ذلك، بأنّه سيدمرّني. كنت مجنونة بحبه، وليس عندي وصف آخر. وقد صارت لدي أعراض جسدية مرضية مثل حالات الصداع النصفي، والتشنجات المعوية. وعندما لاحظت في إحدى المرّات، أنه ذهب مع الطالبة إياها لحضور افتتاح إحدى الفعاليات الفنية، أمضيت الليلة وأنا أتقيّأ. اتصلت به في الرابعة فجراً في الفندق، الذي يقيم فيه، لكنّ الموظف المناوب رفض تحويل مكالمتي لغرفته. كنت على ثقة أن جورج كان في تلك الليلة معها ، فقد كان لدي إحساس بأنه ليس نائماً.

بوسعي اليوم أن أضحك، قالت أنتشه، لكنّني كنت يومها على وشك أن أصاب بالهذيان. وعندما انتهى كل شيء، أقسمت بأنني لن أقع في الحبّ ثانية، وهو قسم اعتقد أني قد بررتُ به. لقد كان حبّاً من ألوان الحب المملوءة بالنقص، حتى لو أنّ الروايات تزعم شيئاً نقيض ذلك. فعندما يتصرف شخص متحضّر كالمجنون، فإنّ هذا يكون أمراً

مخجلاً ويعد إشارة إلى عدم النضوج. ثم ملأتُ الكؤوس ثانية وقالت: إنها حكايات يفضّل كل واحد منا أن يستمع إليها، لكنّه عندما يعيش الحالة ويكون في قلبها، فإنه لا يتمنى سوى أن يمضي إلى آخر الشوط. ثم سألتني عما أتوقعّه من سونيا فقلت: بأنني لا أتوقع شيئاً، فأخبرتني أن سونيا تحبّني ، فعندما اتصلت سونيا بها؛ كي تخبرها أننا قادمان إليها، كانت سونيا في حالة من الرومانسية، فسألتها إن كنتما قد تصاحبتما، فأجابت: ليس بعد.

شربت ما تبقّى في كأسي، وأخبرت أنتشه أنني تعبت وأنّ عليّ أن أنام. أمسكتني أنتشه من ذراعي وقالت: تعال! كان صوتها واضحاً تماماً، لكنّ حركاتها كانت تبيّن أنها ثملة. أرتني غرفة الضيوف والحمام. وقبل أن نصل إلى غرفة نومها، وضعت أصبعها على شفتيها، وأمسكتني بيدي ثم فتحت الباب بهدوء وقادتني إلى السرير. لم يسبق لي أن شاهدت سونيا نائمة من قبل. وبينما كنت أتأملها، حدث شيء غريب، فقد تغيّرت ملامحها، وبدا لي وكأنني أشاهد ملامح امرأة عجوز، التي ستصير سونيا إليها ذات يوم. انحنت أنتشه فوق سونيا وقبّلت جبينها ثم قالت: نامي نوماً هانئاً أيتّها الكابيرا!

عندما ذهبت صباح اليوم التالي إلى المطبخ، كانت سونيا وأنتشه تحتسيان القهوة. وكانتا تنظران نحوي وتبتسمان. كنت متأكداً أنني موضوع الحديث. نهضت أنتشه؛ لتحضر لي فنجاناً فقالت سونيا بأنها امرأة نؤوم.

بعد أن تناولنا طعام الأفطار، اتجهنا صوب القرية الطلابيّة وتأمّلنا المبنى شبه المتداعي هناك. كانتْ سونيا تلفت نظري إلى التفاصيل كلّها

وتسير ببطء وخطى وئيدة فوق الممر المظلم، وكأننا موجودون في مكان مقدّس.

كانت سونيا على حق، ففي هذا المبنى استطعت أن أتبيّن نوعية المباني، التي كان يبنيها لوكوربوزييه؛ فالغرف وبيوت الدرج صغيرة على نحو يبعث على الدهشة، ومع أنّ ارتفاع المبنى يبلغ ثمانية عشر طابقاً، فإنّ ثقله يبدو خفيفاً على الأعمدة والقواعد الأسمنتية. كان المبنى، هو المبنى الأول، الذي شيدّه لو كوربوزييه في ضوء النظام المعماري، الذي قام بابتكاره، كما أوضحت لي سونيا. تذكرت، بصعوبة، أنه سبق لنا أن درسنا ذلك في الجامعة. وقد أرتني سونيا في دليل الرحلة الذي معها، صورة لكائن عضلي ولا جنسي له أيد طويلة، ورأس صغير، وبدلاً من السّرة كانت صورة لإحدى الحفر. سألتها: أيقيم الرجل هنا؟ فسيكون الساكن النموذجي في المبّنى النموذجي.

ركبنا المصعد إلى شرفة السقف العلوي. كان الطقس هناك حاراً؛ لهذا جلست في ظلال السقف، وأخذت أقرأ في دليل الرحلة بينما كانت سونيا تتأمل كل شيء حولها.

عدنا إلى المدينة بالباص، كانت عينا سونيا تشعّان؛ لأنها تعيش حالة من الإثارة بعد أن شاهدت المبنى، وقد حكت لي عن هذه التجربة وكأنني لم أكن معها. لقد سحرني المبنى. نمتْ عندي الرغبة في مشاكستها فسألتها: قولي بصدق أيمكن لك أن تقبلي بالسكن هناك؟ فردّت بسرعة: وماذا عنك؟ ألا تقبل بذلك؟ فقلت: إنّه مبنى تنقصه التكنولوجيا. ولم أزد على ذلك. ردّدت سونيا بأنّ الفرديّة لا تتحقق إلّا من خلال ساكن البيت، وما المنزل إلّا وعاء. بدا لي أنّ انتقادي قد أغضبها، فاحمّر وجهها قليلاً، وكان

ذلك مناسبا لها. سألتها إن كانت ترغب في الذهاب إلى البحر، فردّت بأننا قد نذهب فيما بعد، فأنا أرغب في تدوين بعض الملاحظات.

كانت أنتشه قد غادرت المنزل، وهي لن تعود إلا عند المساء، كما سبق لها وأخبرتنا أثناء تناول الإفطار. أكلنا أشياء خفيفة من الثلاجة، ثم ذهبت سونيا إلى غرفة أنتشه، وجلست أنا في غرفة الضيوف أُقلب بعض الكتب عن الحيوانات، التي كانت موضوعة على الكنبة. قرأت في كتاب بريم[1] «حياة الحيوانات» ما كتبه من الكابيرا؛ فهي حيوانات قنوعة، وغير مؤذية، وودوة، ويسهل الاحتفاظ بها، وهي تشعر بالرضا إذا أعطيت ما يمكن لها أن تفترسه، لكنّها لا تتعلّق بأحد معيّن وتظهر الودّ لكلّ من يحسن معاملتها.

كانت الأجواء حارّة داخل الشقّة، ولم يكن الهواء الطريّ يدخل إلى المنزل إلّا من خلال الشرفة المفتوحة، ويجيء معه ضجيج الشارع، الذي بدا قريباً.

استلقيت على الكنبة وشرعت أتخيّل كيف سأعيش مع سونيا في القرية الطلّابية في مرسيليا. تخيّلت أننا أنجبنا ولداً وبنتاً وكيف سنتناول طعام الإفطار معاً، ونأخذ الطفلين إلى الحضانة ونذهب بعد ذلك إلى مكتبنا الهندسي، الذي نقوم فيه بتصميم مبانٍ للطبقات الاجتماعية الفقيرة. كان هذا المكتب واسعاً ومنيراً، يقع في وسط المدينة، يحوي طاولات كبيرة عليها التصميمات، والنماذج الخاصة بالبنايات الكبرى والمصنوعة من الورق المقوّى،. ثم تخيّلت أننا موجودان في إحدى

(1) ألفرد إديموند بريم (1829—1884) Alfred Edmund Brehm وهو أحد علماء الحيوان الألمان. أما الكتاب المشار إليه فقد نشر للمرة الأولى عام 1860م.

الورش المعمارية، كانت سونيا تبدو في غاية الجمال وهي ترتدي بنطالاً بنياً فاتحاً وبلوزة من الكتّان.

كانت هناك رافعة حمراء اللون تقف إلى الجوار، لكنّ أحداً لم يكن يعمل على ما يبدو، وكانت السماء زرقاء والبحر يُرى من بعيد، ويمكن للمرء أن يتصور القارة الإفريقية على الجانب الآخر من الماء. كان المنظر شبيهاً بمشهد سينمائي في فيلم فرنسي يعود إلى الخمسينيات أو الستينيات. لكنّ حياتنا كلّها كانت فيلماً من اللقطات الطويلة، فيه صالات فسيحة تبدو في ضوء النهار، يتحرّك فيها أناس صغار، وكلّ شيء يظهر في غاية الجمال والبرودة والعقلانية.

نهضت وذهبت إلى الممّر. قرعت باب غرفة نوم أنتشه قرعاً خفيفاً وناديت على سونيا، لكنها لم تجب، كان الباب مواربا فدخلت. وجدت سونيا نائمة على السرير، وقد وضعت إحدى ذراعيها على المخدة كانت تحت إبطها بقع عرق صغيرة سوداء، تشكّل العيب الوحيد في هذا المشهد المثالي. حاولت إزالة البقعة بإصبعي ثم لم أجرؤ أن أكرّر المحاولة ثانية. كانت كاميرا سونيا على الطاولة فأخذتها وشرعتُ بتصويرها وهي نائمة. كانت الصورة تبدو على الزجاج معكوسة وقد احتجت إلى بعض الوقت حتى اعتدتُ على استعمالها، فقد كانت كل حركة أقوم بها تظهر على نحو معكوس. درت حول السرير ببطء، كي أتمكّن من العثور على اللقطات السليمة، فاقتربت منها ثم ابتعدت مجدداً. ضغطت على زر الكاميرا عدة مرات، وعندما صرت قريباً منها، عقدت سونيا ما بين حاجبيها أثناء الضجيج، الذي أحدثه الضغط على أزرار الكاميرا، حتى ظننت أنها صحت من النوم، لكنّها سرعان ما فردت جبينها،

وواصلت التصوير وسرعان امتلأ الفيلم بالصور، فاستخرجته ووضعته إلى جانب الأفلام، التي ستقوم سونيا غداً بتحميضها. وعندما أردت أن أغادر الغرفة، سمعت سونيا النائمة وهل تتلفظ باسمي. استدرت واتجهت صوبها فصحت، وقالت: يبدو أنني قد غفوت، فقلت لها: أما أنا فتمنيّت لو أنني استطعت أن أغفو.

أخبرتني سونيا أنها ستذهب إلى الأستوديو؛ لتحميض الأفلام. وسألتني إن كنت أرغب في مرافقتها. ذهبنا إلى أستوديو للتصوير في الشارع المجاور، ثم تناولنا شراب ما قبل الغداء في حانة صغيرة في الميناء القديم.

في اليوم التالي كانت سونيا ترغب في رؤية القلعة[1]، فأوضحت أنتشه أنّ بوسعنا أن نركب من هناك سفينة تقلنا إلى بضع جزر صغيرة، السباحة فيها ممتعة. أخذنا أدوات السباحة، واشترينا بضع سندويشات، وأخذنا الصور من الأستوديو.

انطلق القارب من الميناء القديم في وقت مبكّر ، ومع ذلك احتشد الراغبون في السباحة عند الحاجز. ولمّا غادرت السفينة الميناء شاهدنا عدداً من قوارب الصيد وعبّارات ضخمة يبدو أنها قادمة من كورسيكا، أو من شمال إفريقيا. أعادتني الأضواء والملوحة والسفن إلى العطلات الصيفية، التي كنت أقضيها مع عائلتي، وعاودني الإحساس بالضياع وبالتوقعّات الكبرى، كما كان يحدث آنذاك.

لم ينزل إلى القلعة سوى أربعة ركاب، وواصل الباقون إبحارهم إلى

---

(1) تشير الرواية إلى Château d'If وهيَ قلعة وسجن سابق تقع على جزيرة صخرية وتبعد كيلو متر عن ساحل مرسيليا.

الجزر. سحرتني القلعة من النظرة الأولى؛ نظراً لما تتصف به من طابع أثري ومن بناء بسيط. تتكون القلعة من بناء مركزي مربّع، وثلاثة أبراج موزعّة على الزواياوقد بنيت منذ خمسمائة عام.للقلعة فناء داخلي فيه آبار وممرّات تفضي إلى الزنازين الكئيبة، التي لا يدخلها إلا قليل من الضوء عبر كوى ضيقة وغائرة في العمق.

أخبرتني سونيا أن سُمْك جدران القلعة يبلغ أربعة أمتار، ثم شرعت تدوّن بعض التفصيلات المعمارية في دفترها.بدأت أتخيّل حياة السجين في هذه الزنازين المعزولة، والغريب أنّني شعرت بشيء من الحماية والأمان.

كان الضوء فوق سطح البرج ساطعاً يعشي العيون، ويلقي بظلال سوداء حادة على حجارة البرج الحمراء، وكانت المدينة تبدو من هنا ظاهرة للعيان، لكنّه لم يكن بوسع الناظر إليها أن يرى أكثر من خيالات مبانيها.

بعد ساعة من التجوال ركبنا القارب وأبحرنا صوب الجزر، التي كانت تكتظّ بالشباب. كانت بشرات هؤلاء الشباب قد أضحت بُنيّة محروقة، ولم يكونوا يرتدون سوى أحذية بلاستيكية ولباس السباحة. وقفت سونيا إلى جوارهم متصلّبة وغير واثقة وبدت وكأنّها خارج المكان.

غادرتْ السفينة أولى الجزر. كان عند رصيف الميناء قطار صغير ينقل الراغبين في السباحة إلى الشاطئ، لكنّ سونيا رغبت أولاً في رؤية أطلال القلاع الألمانية الموجودة فوق مرتفع قريب من الشاطئ. صعدنا الطريق الحجرية نحو الأعلى وكان الحر لا يطاق. وعندما وصلنا إلى

القمة كنت أتصبب عرقاً، فخلعت بلوزتي. أما سونيا فيبدو أنها لم تستشعر تأثير الحر وكانت تبدو مشرقة. أخبرتني سونيا، وهي تتجول بين الأطلال، أنّ باول فريليو[1] عقد مقارنة بين القبور والأقبية. وبدا له أن الناس يذهبون إلى الأقبية عن طيب خاطر؛ كي يحموا أنفسهم من الموت. وصلنا إلى نقطة الذروة، حيث كان يلوح في الأفق مجموعة من الصلبان الأسمنتية. وعندما اقتربنا تبيّن لنا أننا لسنا في مقبرة للجنود بل أننا أمام ركائز كانت تحمل في الماضي أشياء بعينها، لعلها كانت سقوفاً أو أبراجاً. ومع ذلك فإن الصلبان تضفي على المكان طابعاً مَرَضيّاً. وقد أوضحت سونيا أنّ فريليو ذكر معابد الأقبية دون أن ينسبها إلى دين بعينه.

سألتني سونيا في أثناء نزولنا عن المرتفع إن كنت مؤمناً، ولم تكن سعيدة بجوابي، وبدت لها وجهات نظري مضطربة جداً وقليلة الأهمية. قلت: إنّ على المرء أن تكون له رؤية بهذا الخصوص، وأضفت بأنها تؤمن بالإنسان والإنسانية والتقّدم. فهي من هذه الناحية واحدة من بنات الحداثة. ضحكت سونيا وقالت بأنها تعد كلامي لوناً من الإطراء. وهنا خطرت على بالي مقولة قالها لوكوربوزييه، وسبق لي أن قرأتها على واجهة مبنى في القرية الطلابية: كل شيء مختلف، كل شيء جديد، كل شيء جميل. وللحظات فكرّت بأنّه يمكن لي أن أؤمن بمثل هذا الكلام.

كان الشاطئ الصغير الواقع على قدمي الجبل مكتظّاً، لكننا استطعنا

(1) Paul Virilio فرنسي من مواليد باريس 1932، منظّر ثقافي ومهندس معماري مختص بتصميم المدن.

أن نجد في مكان غير بعيد خليجاً، غير مكتظ بالناس. كانت الصخور حادة وكان علينا أن نفتش عن مكان مناسب حتى استطعنا أن نجد منطقة مستوية نضع عليها مناشفنا. كان الهواء ساكناً ورائحة عفونة تنتشر في الأجواء .على بعد حوالي خمسين متراً، كان هناك يختان راسيان وليس هناك أحد فيهما على ما يظهر. ارتديت ملابس السباحة، أما سونيا فقد جلست دون أن يبدو عليها الاستعداد للسباحة. سألتها: ألا تأتي معي إلى الماء؟ فهزّت رأسها وقالت بأنها تفضل الاستحمام في برك السباحة؛ لأنها تخاف من قناديل البحر والقنافذ البحرية، وكل أنواع الحيوانات البحرية.

كان عليّ أن أتسلق الصخور كي أستطيع الوصول إلى الماء، الذي بدا لي بارداً مقارنة بالوقت الذي نحن فيه. سبحت عدة أمتار واستدرت إلى الوراء، فشاهدت سونيا تخرج المظروف، الذي يحتوي على الصور من حقيبتها. واصلت السباحة حتى وصلت إلى اليختين ودرت حولهما ثم عدت. كانت سونيا تجلس جلستها المعتادة وتنظر صوب البحر. وعندما استلقيت فوق المنشفة الموجودة إلى جوارها، تناولت الصور من حِجْرها وأعطتها لي دونما كلمة. نشفّت يديّ وشرعت بتقليبها، كانت صور القرية ومبان أخرى، وساحات في وسط المدينة بعدها جاءت الصور، التي التقطتها لها أثناء نومها. كانت الصور أقلّ جودة مما توقّعت، لكنّ سونيا بدت فيها رائعة الجمال وكأنها تمثال منحوت. استدرت ناحيتها، كانت مستلقية وقد أغمضت عينيها، كانت تبدو وكأنها تريد أن تكون على هيئة الصور، لكنّ حالتها كانت تشي بشيء من التوتر، فقد ضمت ساقيها وضغطت ركبتيها وبدت وكأنها صغيرة

جداً. كنت أظن أنها تنتظر أن أقبلّها، ولم تكن تشعر بالمفاجأة لو أن هذا وقع، لكنها وضعت ذراعيها على عنقي وضمتني نحوها.

عندما عدنا إلى الميناء كنا نسير بأيد متشابكة دون أن نتبادل أية كلمة، وإن كنت أضم سونيا وأقبلّها أحياناً. كنت في مزاج احتفالي وحيوي، فقد سبق لي أن فكرّت بها طويلاً مثلما سبق لها أنْ فكرّت هي الأخرى بي. ولم تكن القبلة، التي تمت تعبيراً عن مزاج لحظي، فقد كان واضحاً لي من اللحظة الأولى أنّ القبلة هي قرار حاسم اتخذه كلانا.

في أثناء العودة بالسفينة سألتني سونيا عن مخططاتي وأرادت أن تعرف إذا ما كنت سأتدرّب في الخارج، وإذا ما كنت سأقوم بتأسيس مكتب هندسي خاص بي مستقبلاً وأبني عائلة. كنّا نحكي بصوت منخفض لكنّ أجواءً من الجدية كانت تغلّف أحاديثنا، وهي جدّية لا تحدث في مثل هذا العمر إلا إذا اتصلت بالحياة. ولم أشعر من قبل بالحبّ وهو يختلط بمشاعر السعادة والثقة والفخر إلّا في لحظات كهذه.

عندما وصلنا باب العمارة، التي تسكن فيها أنتشه قبلتني سونيا قبلة خاطفة، جاءت بمثابة قبلة أخيرة تبيّن لي أنها تريد أن أخفي علاقتنا عن أنتشه. لكننا سرعان ما تخلينا خلال المساء عن هذه السريّة. فقد جلسنا ثانية على الشرفة؛ لتناول طعام العشاء. وبقينا جالسين وتحدثنا عن هندسة العمارة ومرسيليا. أوضحت سونيا أنّها لم تأت إلى مرسيليا من أجل لكوربوزييه فحسب، لكنها جاءت للعثور على مكان يمكن لها أن تتدّرب فيه، وقد دوّنت بضعة عناوين لمكاتب هندسية مهمة هنا، تريد أنّ تمّر بها، وتستطلع إمكانية قيامها بالتدريب في واحد منها، ثم التفتت نحوي وأمسكت بيدي وقالت: هذا إذا كنت لا تمانع في ذلك.

رفعت أنتشه حاجبيها من الدهشة وابتسمت ابتسامة ساخرة، وقالت وهي تتأمل سونيا:أخيراً، سأتمكن من النوم وحدي فوق سريري. أليس كذلك؟ لم يُجب أحد وأعتقد أنّ الصمت كان جارحاً لأنتشه، فلعلّها اعتقدت أننا نعرف بعضنا من قبل على نحو عميق؛ لأنه ليس من الممكن أن نصبح عاشقين بين عشيّة وضحاها.

لقد سبق لي أن خلعت ملابسي أمام سونيا أثناء السباحة، لكنني الآن أشعر بالخجل عندما أفكر أنني سأنام معها في سرير واحد، ويبدو أنّ هذا ما كانت تشعر سونيا به، فقد همست لي بصوت منخفض ينطوي على قدر من التردّد بأنها ستبقى في غرفة أنتشه،إن كان بقاؤها هناك لا يضايقها، ثم نهضت وقبّلتني، كلون من التعويض ،على فمي ثم اختفت سريعاً في الشقّة.

بعد مدة من الزمن، ذهبت إلى غرفة أنتشه؛ لاستطلع الأمر، فوجدت سونيا هناك تجلس على حافة السرير وتبكي. جلست إلى جوارها وضممتها وسألتها عما بها. ردّت بأنها في غاية السعادة، لكنها خجلة من نفسها. أخبرتها أنها خجلة، في واقع الأمر، من أنتشه، لكنني كدت أكون واثقاً أنها خجلة مني، ولعلها خجلة من نفسها. ثم قلت: لا بأس، فلدينا وقت طويل.

في صباح اليوم التالي عادت سونيا إلى طبيعتها ، فقد كانت تصنع القهوة في المطبخ عندما دخلت. أمسكتها من خصرها فقبلتني وكأننا عشاق منذ سنوات، ثم استدارت وأخرجت الزبدة والحليب من الثلاجة. قالت بأنها ستقوم اليوم بزيارة مكاتب الهندسة المعمارية. ثم سألتني وهي تبدو مرتاحة: هل ترغب في كأس من عصير البرتقال؟ سألتها

إن كان من الضروري أن تتصل بهذه المكاتب الهندسية هاتفياً لحجز مواعيد للقاءاتها، لكنّها هزت رأسها؛ وقالت إنّ من الأفضل أذهب إلى هؤلاء الناس فجأة على نحو يكون فيه من الصعب أن يتخلصوا مني. سألتها إنْ كانت تعني أنّ جمالها قادر على إقناعهم؟ فنظرت إليّ نظرة تأنيب وقالت:

هذه وقاحة، فأنا غير مسؤولة عن شكلي. فقلت وأنا أضع يدي على كتفيها وأضمّها إنه يمكن أن يكون أكثر سوءاً. سألتني إن كنت قد نمت على نحو مريح. فقلت لها بأنني حلمت بها فقالت: اعترف بأن هذا غير صحيح!

أمضت سونيا سحابة اليوم التالي وهي تتنقل بين مكتب هندسي وآخر. رافقتها وكنت انتظرها في مقهى قريب أحتسي القهوة وأقرأ حتى تعود. كانت تعود فتهزّ رأسها وتقوم بإخراج القائمة وتشطب المكتب الهندسي، الذي ذهبت إليه وتبدأ رحلة البحث عن المكتب التالي.

إنّ كثيراً من الذين لم يقبلوا بها لم يكونوا يمتلكون بمستوى ما تتمتع به من وعي، وقد كانوا في كثير من الأحيان غلاظاً على نحو لم تجده سونيا في الجامعة. ففي حين كنت أرد على نحو عدواني على كل نقد يوجّه لي وأصف الأساتذة سراً بأنهم أغبياء، كانت سونيا تصغي باهتمام لما يقال، وتحاول أن تقدم أفضل ما عندها في المرات القادمة.

أمضينا النهار ونحن ننتقل من مكان إلى آخر، وانتقلت من شرب القهوة إلى أنواع أخرى من الشراب، وتوقفت عن القراءة وبدأت أراقب الناس في المقهى. عندما لاحظت أن سونيا قد خرجت من

المكتب الذي كانت قد اختفت فيه قبل نصف ساعة. فتح الباب لها رجل في منتصف العمر، وسارا في الشارع هبوطاً. دفعت الحساب وسرت خلفهما، وقبل أن ألحق بهما فتح الرجل باب سيارة ستيشن بيضاء، وطلب من سونيا أن تصعد، فتطلعت نحو سيارة أجرة، لكنني بقيت مدة أنتظر حائراً دون أن أرى أية سيارة وعندها توجهت صوب منزل أنتشه.

كانت أنتشه جالسة في غرفة المعيشة تطالع في أحد الكتب، فسألتني أين خلّفت سونيا؟ أخبرتها أنها ركبت السيارة مع أحد الرجال وذهبت. بداية حسنة. قالت أنتشه، وسألتني إن كنت أرغب في شرب النعناع، الذي كانت صنعته للتو.

في المطبخ سألت أنتشه عن الطريقة، التي عرفت سونيا من خلالها. فردّت بأنها كانت على صداقة مع والديْ سونيا، لهذا عرفتها يوم كانت فتاة صغيرة. وهل كانت دوماً على هذه الشاكلة؟ أطرقت أنتشه موافقة وقالت بأنها كانت مبكرّة النضوج، ورزينة تماماً وقد كانت منذ طفولتها تفرض احترامها على الجميع، وكان الجميع يفعلون ما تريد، كما كانت كثيرة التفكير بالآخرين، لهذا لم يخطر ببال أحدٍ أنها تفعل شيئاً لمصلحتها. وقد عرّفني أحد أساتذتي على والديْ سونيا، اللذين كانا يحضران دائماً افتتاح المعارض الفنية. وعندما حدثت معي مشكلة جراء الحمل ساعدني والد سونيا، وعاملني بعدها لسنوات طويلة معاملة رائعة، وقد أهديته لوحة أو لوحتين، قبلهما مني، في أغلب الظن؛ ليشعرني بأنني لست مدينة له، لكنه لم يُعلّق واحدة منهن على جدران منزله. ومن يدري فقد تكون زوجته غير راضية عن اللوحات. إن والد

سونيا رجل واسع الثقافة، فهل سبق لك أن عرفته؟ لم أعرفه إلا على نحو سطحي في أثناء عرض الأعمال الفصلية. فقد قدّمت سونيا والديها لي لكنها كانت يومها مع روديغر. ضحكت أنتشه وقالت: إنها زارتني بصحبته وكنت يومها أقيم في فيلا ماسّيمو في روما. وقد كان روديغر من عيار مختلف. سألتها ماذا تقصد؟ فهزت كتفيها وقالت: لا أدري ماذا أقول، لكنّ روديغر كان نمطاً مختلفاً وفتى مجنوناً. لقد جعلنا من روما مدينة لا تعرف الاستقرار، بينما كانت سونيا تمضي يومها في مشاهدة النصب التذكارية الحضارية، وتذهب إلى السرير مبكرة لتنام، تساءلت متى حدث ذلك يا ترى؟ في العام الماضي، ردّت أنشته. نظرت أنتشه صوبي وضحكت، ثم قالت: لم يحدث بينهما شيء على الإطلاق. أليس هذا ما تفكّر فيه؟ لا. ليس الأمر كذلك. قلت. لقد كانت علاقتنا طيبة، لكنني كنت أحسّ منذ تلك الأيام، أنّ الأمور بين سونيا وروديغر لن تستمر طويلاً على هذه الشاكلة.

ذكرت أنتشه بأنها ترتاح كثيراً لسونيا، ولوالديها من أجلها، لكنّ سونيا تكون، أحياناً، جادّة ورزينة أكثر مما ينبغي. تذكّرت أنّ فِرْدي قال ذات يوم، بأن سونيا هي أقل الناس مرحاً بين الذين عرفهم، فهي تذهب إلى القبو؛ لتضحك حتى لا يدري بها أحد. يومها عارضته كما عارضت أنتشه، لكنهما على صواب في الغالب.

رجعت سونيا بعد ساعة من وصولي وسألتني أين اختفيت، فقد بحثتْ عني في المقهى، وكانت ثائرة جرّاء اختفائي وتشعر بالاستياء، لكنني كنت غاضباً. أخبرتها أنني شاهدتها وهي تركب السيارة مع ذلك الرجل وقلت: إن في وسعك أن تخبريني على أقل تقدير أم ترى

كنت تشعرين بالخجل مني؟ فقد وقفت على قارعة الطريق مثل شخص منسيّ لا يفكر فيه أحد. ضمتني سونيا إليها وقبلتي وقالت: يا مسكين، لقد كان ذلك الرجل هو إلبرت، الذي سأمضي في مكتبه مدة التدريب. وقد أراني ورشة معمارية يشرف مكتبه الهندسي عليها، كان الرجل في طريقه إليها، فاصطحبني، ولم أكن أدري أنّ الأمر سيطول إلى هذا الحد.

بقيت سونيا رفيقة معي طيلة المساء، ولست أدري إن كان ذلك من تأنيب الضمير. تناولنا الطعام هذه المرة في مطعم زعمت أنتشه أنه يقدم أفضل أنواع السمك في مرسيليا، وهو حانة صغيرة في الميناء القديم. شربنا الكثير من النبيذ وشربت سونيا أكثر من المعتاد. كنا نشرب أنخاب الوظيفة، والمستقبل، وهندسة العمارة، وأنخابنا. بعد ذلك ذهبنا إلى أحد النوادي وكان الضجيج هناك مرتفعاً على نحو غير عادي. فأمضينا الوقت صامتين، نضحك، ونقهقه، ونهز رؤوسنا. فجأة اكتشفت أنتشه واحداً من أصدقائها، فدعته بحركة من يدها للقدوم إلى مائدتنا. فجاء على الفور. عندها بدأ ضحك أنتشه يعلو، وضعت أنتشه يدها على كتف الرجل وانحنت عليه وصارت تحكي له كلاما مسلّيا، بصوت يبلغ حد الصراخ. غادرنا المكان بعد ساعة. قدمت أنتشه لنا ذلك الرجل، الذي يعمل مصوراً. أصرّت أنتشه والرجل على الذهاب إلى مطعم آخر. لكنّ سونيا أعلنت أنها مرهقة ولم تكن لدي الرغبة للذهاب معهما. تساءلت إن كانت أنتشه قد تعمّدت الذهاب مع المصّور؛ كي تخلى لنا الأجواء في منزلها، لاسيما أنها رجعت في وقت متأخر جداً.

قبّلت سونيا على الدرج، ثم تبادلنا القبلات في الممّر. كانت سونيا

ثملة بعض الشيء، لهذا كانت تضحك وتحرك يديها أثناء الضحك حركات عفوية غير منتظمة، فتمسّ عنقي وكتفي وتربّت على شعري وفوق ظهري. كنا نشعر بالتوتر أكثر مما كنا نشعر بالإثارة. لم أتمكن من فك حزام سونيا، فقد ضحكت بعصبية وذهبت إلى الحمّام، سمعت صوت الماء يجري في التواليت، كما سمعت صوت تنظيفها لأسنانها، لكنها خرجت وهي ترتدي ملابسها، فسارعت إلى الدخول وأغلقت باب الحمام خلفي.

استلقتْ سونيا في سريري وقد غطّت جسدها بالغطاء حتى عنقها، وعلّقت ملابسها فوق أحد الكراسي. خلعت ثيابي، فأطفأت سونيا المصباح الكهربائي، فصار علي أن أجد طريقي في الظلام، فاصطدمت بالكرسيّ، الذي وضعت سونيا ملابسها فوقه، مما أحدث ضجّة مزعجة. فتسّللت إلى السرير وأنا ألعن. رحّبت سونيا بي بصوت فيه مداعبة ومدّت يديها نحوي وكأنها تريد أن تبعدني عنها. قلت لها: أريد أن أراك وانحنيت فوقها؛ لأضيء المصباح الكهربائي. لكنّها طوقت عنقي وقبلتني. سألتني سونيا إن كنت أمتلك واقياً، فسألتها بدوري إن كانت تتناول حبوب منع الحمل، لكنها نفت ذلك بهمس، ثم طلبت مني أن أبحث في غرفة أنتشه، ذهبت وعدت خالي الوفاض. وعندما رجعت أضأت مصباح الغرفة، فأغمضت سونيا عينيها وأشاحت بصرها. تسلّلت إلى جوارها وأخبرتها أني لم أجد المطلوب. قالت سونيا بأنها لن تغامر وطلبت أن أذهب بسرعة إلى الصيدلية، تردّدت في الذهاب فألحّت عليّ بالذهاب والعودة بسرعة. وعندما رجعت بعد نصف ساعة وجدت الغرفة مطفأة وسونيا نائمة.

صحونا في اليوم التالي مبكرين، ولم أعد أتذكر من الذي صحا قبل الآخر. بدأنا باللمس دون أن ننبس بكلمة واحدة؛ لأننا كنا ما نزال شبه نائمين. وكان اللقاء البطيء بيننا يجسد رغبة حيوانين مليئين بالرغبة والنعاس يريدان أن يتحولا إلى شخص واحد.

بقينا طيلة النهار نائميْن، نلتقي دون أن نتبادل الكلمات. كانت أنتشه تدّق الباب بين الحين والآخر، وتمدّ رأسها وتسأل إن كنا نرغب في تناول الإفطار. وعندما كنا نعلن عن عدم رغبتنا، كانت تختفي دونما كلمة. طلبت مني سونيا بعد مدة من الزمن أن أحضر لها كأساً من الماء، فارتديت الملابس الداخلية على عجل. في الممر لقيت المصور فتبادلنا التحية. لم يكن الأمر مؤلماً لي، بل على العكس، فقد شعرت بقدر من الارتياح. هل صحوتما أخيراً؟ جاء صوت أنتشه من المطبخ. لم أجب وسارعت إلى الذهاب إلى غرفة الضيوف. كانت سونيا في تلك الأثناء قد ارتدت ملابسها، وفتحت الباب على مصراعيه وبدأت تنظر من النافذة. دخلت من ورائها وضممتها، فتناولت الكأس من يدي وشربته ببطء حتى لم يبق فيه قطرة واحدة.

لقد كانت الأيام، التي أمضيناها في مرسيليا أسعد أيام عرفتها علاقتنا. كنا نذرع شوارع المدينة يداً بيد، ونتأمل الأبنية القديمة، ونقف طويلاً عند ورش العمل؛ لنتأمل العمال وهم يعملون. وعندما كانت الشمس تصبح عمودية وقت الظهيرة، وتغدو ظلال الأشجار كالجزر الصغيرة في البحر مملوءة بالضوء كنا نهرب طلباً للنجاة. وعندما تغدو درجة الحرارة لا تطاق، كنا نعود إلى المنزل، حيث تقوم سونيا بالرسم، وأشرع أنا بتصفح ما تمتلكه أنتشه من مجلدات قديمة في موضوعات معرفية متعدّدة.

أظنّ أن أنتشه كانت تغار قليلاً، كانت تُبدي بعض الملاحظات الساخرة عن العشاق الصغار، وتقول: بأنهم عاجزون عن العمل ولن يستطيعوا إنجاز شيء إذا ظلوا يتسكعون طيلة النهار، ويهمسون بكلام لا معنى له. كانت أنتشه قد أقامت معرضاً في الخريف ولم تكن راضية عما أنجزته في العام الماضي، وكانت تبقى وحدها جالسة على الشرفة مع زجاجة النبيذ نصف الممتلئة، عندما كنا نذهب أنا وسونيا للنوم مبكرين. كانت سونيا تذهب قبلي إلى السرير وتنتظر قدومي تحت الغطاء فتطفئ النور، عندما آتي. وعندما أصحو أجدها وقد ارتدت البيجاما، وهي تتمتم بأنّها لا تريد أن تظلّ نائمة طيلة النهار. كان الأمر يبدو وكأنها تتملّص مني. وكأنّ ما عرفته من لذة في الليل صار مؤلماً لها في النهار. ذهبت سونيا إلى الحمام وعادت وقد استحمت، وارتدت ملابسها، وبقيت مستلقياً في السرير. كانت سونيا تأتي وتنام إلى جواري، لكنها سرعان ما تبتعد عني وتصفني بأنني واحد من التنابلة، الذين لا تستطيعون أن يصنعوا شيئاً لمستقبلهم.

سألتني سونيا ذات مرة: أليس من الجميل أن نعيش هنا؟ هذا صحيح. قلت ذلك؛ كي أرضيها، أو لعلي كنت أعتقد لحظتها بصّحة هذا الرأي، ناسياً أنني لا أكاد أعرف شيئاً من اللغة الفرنسية، أو أنّ من الصعب عليّ أن أعثر على عمل مناسب هنا. لم أفكر لحظتها بميونخ ولا بالمستقبل، وبدا الأمر لي وكأنّ ساعة الزمن قد توقفّت، ولم تعد تستطيع الحركة وليس هناك سوى البحر وهذه المدينة وهذا الحر الشديد. فعندما تهب الرياح هنا أتذكر أفريقيا. لقد قرأت في أحد المجلدات حول صحراء الكلهاري ثم غفوت، فرأيت سهولاً واسعة أمامي تعيش فيها الحيوانات

وقطعاناً من الحيوانات تجوب السهوب بسرعة ودونما هدف. كانت هذه القطعان، تتفاخر، وتندفع، وتلتهم، الطعام، وتركض عبر المدى، وتسلك مسارات محددة لكنها غير مرئية، وهي مسارات لا تتغيّر أبداً. تجيء هذه القطعان إلى عيون المياه وإلى المراعي وتتلاشى في البعيد وتغطي الرياح آثار خطواتها.

ذات يوم تخاصمنا مع أنتشه لسبب تافه، فقد سبق أن نسيت فنجانين من القهوة ،دون تنظيف، في المجلى فاشتكت بأننا نتعامل مع منزلها، وكأننا نسكن في أحد الفنادق، وأنها ليست خادمة مهمتها أن تنظف وترتب المكان كلّما اتسّخ.

شعرت سونيا بالحرج، مع أنّه ليس هناك داع للمشكلة أصلاً. تصالحنا مع أنتشه على الفور، لكنّ المزاج اختلف عما كان في السابق، فسافرنا بعد يومين.

استيقظت أنتشه بعد أن كنّا انتهينا من تناول الإفطار. صنعت قهوة لها، فأعلنت سونيا عن رغبتها في الذهاب إلى المدينة للتسّوق، فطلبت أنتشه من سونيا أن ترافقها؛ لأن عليها أن تذهب إلى الغاليري وأن تنجز بعض المهمّات الأخرى. سألتُها إنْ كانت متعبة، فأجابت وهي تحتسي قهوتها واقفًة، بأنها غير متعبة.

كانت صوفي تريد أن تشاهد أحد الأفلام. فوافقت سونيا على نحو استثنائي، مع أنّ كل الأشياء الأخرى كانت تحدث على نحو استثنائي، كانت سونيا تمتلك تصوّراً واضحاً عن تربية الأطفال، ومع أنّه كان عليها أن ترضى بالحلول الوسط، لكنّها ليست مستعدّة للتنازل عن مُثلها العليا؛ لذا ظلّت تربية صوفي سلسلة متصلة من الاستثناءات تعلّمت صوفي كيف تتعايش معها؛ فكل طلب من طلباتها كانت تختتمه بقولها: استثناءً هذه المرة. ونظراً لأنني أنا وسونيا كنا مثقلين بالعمل دائماً، وضميرنا يؤنبنا؛ لأننا لا نجد الوقت الكافي لرعاية صوفي، فندر أن كنا نرفض لها طلباً من طلباتها، لكنّ سونيا كانت تشترط أن تقوم صوفي أولاً بإطعام القطة ماتيلدا وأولادها الصغار. فكانت صوفي ترد بتأوه: لماذا ينبغي عليّ أن أطعمها أنا وحدي على الدوام؟ فترد سونيا: أنت، التي أردت القطة وعليك أن تعتني أنتِ بها.

سافرت المرأتان. فوضعت لصوفي القرص المدمج وذهبت إلى الحديقة. تلاشى الضباب وبانت الشمس، لكنّ الهواء ما يزال بارداً. كان لدينا في الحديقة بعض الأحواض الزراعية، التي اعتدنا أن نزرع فيها الخس والخضروات، لكن المطر كان غزيراً في هذا العام على نحو لم يبق لنا شيئاً من المحصول فأهملنا الحديقة جرّاء هذه الخسارة.

قضى مرض اللفحة المتأخرة[1] على أشتال البندورة قضاءً مبرماً، وصارت حبات البندورة سوداء، وأخذت تتساقط جراء أيّة لمسة خفيفة، وتتناثر كما تلاشت بعض نباتات الملفوف بين الأعشاب المتكاثرة، أما نباتات الخيار، التي سبق لي أنه رفعتها على العصيّ الخشبية فقد تعفنّت وسقطت وجفت. لذا قمت بخلع تلك النباتات، وألقيت بها في مكبّ النفايات العضوية.

كنت أريد أن أقوم بنكش الأحواض، لكن التربة كانت ما تزال جامدة. شرعت في عدّ الأوراق، التي سقطت من أشجار القيقب السكرّي الموجودة في أرض الجيران على أرض حديقتنا الصغيرة ومقدّمة البيت. خرجت صوفي على ما يبدو في تلك الأثناء، ونظرت إليّ قليلاً، ثم رجعت إلى المنزل عادت سونيا وأنتشه قبيل الساعة الثانية عشرة بأكياس مملوءة، وبعد نصف ساعة نادت سونيا عليّ؛ لأتناول طعام الغداء.

بعد الغداء لبسنا معاطفنا وجلسنا في الخارج؛ كي نحتسي القهوة. كانت سونيا تحكي لأنتشه عن الزمن، الذي كانت تتدرّب فيه، فقال أنتشه بأنّ مرسيليا تغيرت ولا سيما بعد المدة، التي أقامت فيها سونيا هناك؛ ازدادت العناية بالمدينة، أكثر من ذي قبل، لكنّها صارت مملّة بعض الشيء، كما أنني لم أعد صبيّة في العشرين. أوضحت سونيا أنّ الحياة كانت صعبة تماماً ولو لم تقم أنتشه بتعريفها ببعض الناس؛ لأمضت الحياة هناك، وحيدة تماماً. ردت أنتشه قائلة : لكنّ زوارك كانوا كثيرين.

---

(1) Krautfäule مرض يصيب البطاطا والبندورة عن طريق الفطريات ويتمثل في ظهور بقع منتفخة على الدرنات وتقرّحات وزغب على الأوراق..

غير صحيح، ردت سونيا، فأنا أمضيت المدة هناك وأنا أعمل لا غير.

ومع ذلك فإنّ هذه الحقبة تظّل من أسعد أيام حياتها، فقد ترك ألبرت لها الفرصة؛ كي تقوم بإنجاز كل شيء، لهذا تعلّمت الكثير. سألت أنتشه سونيا:

هل تتذكرّين ذلك الفتى السخيف، الذي زارك؟ فقلت: السيّئ الذكر يعقوب؟ قالت سونيا: إنه لم يزرها، لكنّه ظهر فجأة. فوضحت أنتشه بأنه أقام لدينا. فقلت: وهل وجدته شخصاً سيئاً؟ فقالت سونيا: بأنه قد كتب لها عدة مرات، وقد حصل على عنوانها من والديها، فقد اتصل بهما وقدّم نفسه على أنه صديق قديم، ولم يكن لديهما أدنى سبب للشكّ فيه.

لقد كتب يعقوب لسونيا رسائل طويلة مربكة، لكنّها لم تجب عليها وفي فصل الربيع، أي قبيل عودة سونيا إلى ميونيخ بقليل، سافر إلى مرسيليا، ودّق باب منزل أنتشه، التي لم تكن تدري أن سونيا لا تكاد تعرفه. وعندما رجعت سونيا إلى المنزل مساء، أصيبت بالدهشة. فسألتها: ولماذا لم تقوما على الفور بطرده خارج البيت؟ لم يكن ذلك أمراً حسناً، إضافة إلى أنه قد أعد لنا وجبة الطعام. أوضحت أنتشه.

أحضر يعقوب معه نقانق بيضاء من الجزّار في القرية، التي يسكن فيها، كما أحضر معجّنات، وبرميلاً من البيرة من المصنع القريب من مكان سكناه. ضحكت سونيا، وقالت: لقد قامت أنتشه بدعوة عدد من أصدقائها، وأقاموا احتفالاً بشرب البيرة في وسط مرسيليا. وقد علمّنا الفرنسيين أغنية ألمانيّة. إنّها «آنه الصغيرة ابنة ثاراو»[1] ثم بدأت

(1) Das Ännchen Von Tharau هي أغنية شعبية تعود إلى شرق بروسيا، في القرن السابع عشر، وتتكون من 17 مقطعاً تحكي عن القسيس المسيحي وابنته ثاروا.

أنتشه تستذكر الأغنية وسونيا تحكي معها نصّ تلك الأغنية:

إذا أردت الانفصال عنّي على الفور
فإنّ عليكَ أن تسكنني في مكان لا تصل إليه أشعة الشمس
وأنا سأتبعك من خلال الغابات وعبر البحار
ومن خلال الجليد والسجون والجيوش المعادية

قالت أنتشه وهي تضحك: إنّها الأغاني الألمانية، بعدها لم نستطع طرد يعقوب خارج المنزل.

أقام يعقوب أسبوعاً عند المرأتين. كان يطهو لهما الطعام في المساء، ويحكي لهما حكاياته العجيبة. وقد أضحكنا كثيراً. قالت أنتشه. أما سونيا فقالت : في قريته يعيش المجانين، لكنه كان يرى نفسه مختلفاً عنهم، فقد بذل كل ما في وسعه؛ كي أتحول إلى الكاثوليكية وأمضينا الليالي ونحن نتحاور حول هذا الأمر. قلت لسونيا: إنه لم يسبق لها أن حدثتني عن هذا الأمر على الإطلاق. فقالت سونيا: بأنني لا أروي لها كل شيء، فحدجتني أنتشه بنظرة غير ودودة، ثم ساد الصمت. بعد ذلك حكت سونيا كيف اعترف يعقوب بحبّه لها. وتقولين ذلك بجّد؟ قلت وأنا أكاد أضحك. فقالت سونيا: لم يكن ذلك هَزْلاً على الإطلاق، فقد بكى عندما أخبرته أنني أريد الزواج منك، بعدها تصرف كالجنتلمان، وهو ما يزال يبعث لي بطاقة في ذكرى ميلادي، كما أننا نتبادل الرسائل البريدية الإلكترونية بين الحين والآخر، فهو ما يزال يعيش وحيداً، وهو يعمل طبيباً بيطرياً في بافاريا، ويعيش في منزل والديه في الغابة. وعندما ساءت الأمور بيننا، كانت سونيا تتصل به هاتفياً وقد ساعدها كثيراً، وقد نصحني

بأن لا انفصل عنك؛ نظراً لوجود صوفي، فهو ينطوي على احترام عميق لمؤسسة الزواج وللأسرة. كنت أريد أن أعارض لكنني رأيت ملامح وجه سونيا، فآثرت الصمت وأعلنتُ عن رغبتي في الخروج؛ لأتمشّى.

هبطتُ القرية باتجاه البحر وجلست تحت إحدى الأشجار في حديقة الأكاديمية المطلّة على الشاطئ وأخذت أحدّق في مياه البحر. مرّت سفينة بخارية، فقلت: ينبغي أن تكون هذه في رحلة خاصة؛ لأنّ برنامج رحلات السفن موقوف منذ شهر. لم يكن هناك أحد فوق سطح السفينة، لكنّني شاهدت وراء الزجاج الملون أشخاصاً باهتي المعالم.

سبق لي ولسونيا أن قمنا برحلة بحرية عندما تزوجنا، وتكفل والدها يومها بدفع التكاليف. كان الضيوف قرابة الثمانين، وكانوا في معظمهم من العائلات المرتبطة بعائلة سونيا، إضافة إلى أصدقاء ومعارف لهم. كنت أريد حفلاً متواضعاً، لكنّ سونيا أخبرتني أنّ آمال عائلتها ستخيب إذا لم يتم إقامة حفل زفاف حقيقي، وصرنا على وشك الشجار تماماً عندما قلت:

إن الحفل في نهاية المطاف هو حفل زفافنا، عارضتني يومها سونيا وقالت بأنّ حفل الزفاف هو مناسبة اجتماعية، وهكذا كان. لو لم أكن العريس لبدا الاحتفال جميلاً، فقد تمّ تنظيم كلّ شيء، وكان الطعام لذيذاً والأحاديث مقتضبة، تتسّق وطبيعة المناسبة. لكن الأمر كان مؤلماً بعض الشيء لأبي، الذي لم يكن معتاداً على الحديث مع الناس على هذه الشاكلة؛ لهذا بدا مرتبكاً. كان مضطراً للمشاركة من الناحية الوجدانية كي يتجاذب مع الآخرين أطراف الأحاديث؛ لكنّه بدا غير مستعد لمثل

هذه الأجواء وكأنه انتقل من خانة المئات إلى خانة الآلاف فجأة. وعندما رأيت نظرة الإشفاق في عيون عائلة سونيا، كرهتهم للحظات.

استطاع والدي أخيراً أن يخرج من هذا الحال، عندما قام بالتصفيق بقوّة، عانقته سونيا، وتقدّمت أمها صوبه وضمتّه إليها. أسرفت ليلتها في تناول الشراب، وكنا أنا وسونيا في غاية الإرهاق عندما ودعنا الضيوف، لهذا سرعان ما أخلدنا إلى النوم في الجناح الفندقي، الذي أقمنا فيه. لكنني لم أستطع أن استمرّ في النوم، فقد كان يتناهى إلى مسامعي أصوات الضيوف وضحكاتهم، الذين كانوا ما يزالون يحتفلون، وصرت أميل إلى الحزن.

كنت أستلقي فوق هذا السرير الواسع البشع، ذي الملاءات الحريرية والمخّدات المصمّمة على شكل قلب وليست لدي سوى رغبة واحدة، هي أن أكون في الخارج مع أصدقائي.

علت فوق الشاطئ موجتان كبيرتان ثم عاد البحر بعد ذلك إلى هدوئه. لقد كان من الغريب أن أعرف أنّ يعقوب قد اعترف بحبه لسونيا قبيل أسابيع من زواجنا. وقد اعتدت أن أتحدث مع سونيا في ربيع ذلك العام هاتفياً حول الاحتفال، وشهر العسل، لكنها لم تتحدّث عن زيارة يعقوب لها، ولم تذكره بكلمة واحدة. تساءلت عن طبيعة المشاعر، التي تحسها نحوه، وأنا أتذكر بوضوح كيف شتمته بعد احتفال رأس السنة الجديدة، أي في تلك الليلة، التي اتفقنا فيها على الزواج. لقد كان حظ يعقوب سيئاً؛ لأنه وصل إلى سونيا متأخراً، فلعله كان سيحبها أكثر بكثير من حبي لها، ولعلها من أجل هذا حسمت أمرها واختارتني.

استغرقت رحلة العودة من مرسيليا يوماً واحداً كذلك. كان الطقس شمالي الألب متقلبّاً، وكانت السماء غائمة والمطر مستمراً في الهطول.

أنزلتني سونيا عند القرية الأولمبية. نزلت من السيارة لكنني عندما أردت تقبيلها، بدا الأمر مؤلما لها.سألتها إن كانت ترغب في تناول شيء، فردّت بأنها مرهقة، وبأنها ستذهب فوراً إلى المنزل. وعندما سألتها: متى نلتقي؟ أجابت بأنها لا تدري على وجه التحديد؛ لانّ لديها الكثير مما ينبغي إنجازه في الوقت القادم، لكننا اتفقنا أخيراً على أن يكون اللقاء يوم السبت.

أعادتني سونيا بالسيارة إلى محطة المترو، فطلبت فنجاناً من القهوة من أحد البوفيهات الصغيرة.بدأ المطر يتوقف عن الهطول، وكان صوت الضجيج القادم من حركة المواصلات نهاية اليوم يصّم الآذان، ويحيط بي كفضاء غير مرئي. تمشيّت نحو أماكن لعب التنس، حيث الهدوء أكثر. كنت أرغب بعد هذا السفر الطويل أن أبقى في الخارج، لكنّني كنت مرهقاً وكانت المقاعد مبلولة جرّاء نزول الأمطار. بردت القهوة فرميت الفنجان نصف المملوء في سلّة المهملات. كنت سعيداً؛ لأنني أصبحت وحيداً. وعندما أتذكر تبدو لي الأيام المنصرمة أكثر حقيقة اليوم، مقارنة.بما سبق لي أن عشتها آنذاك. وبدا الأمر وكأنني صرت أعي أننا صرنا أنا وسونيا صديقين. وكنت أتمنى لو تتاح لي فرصة الحديث مع أحد الناس؛ كي أتأكد من ذلك لكنني لم أدر مع من أتحدّث.

أخيراً عدت إلى القرية الأولمبية واتصلت بوالديّ بالهاتف، أخبرت والدتي عن الرحلة، لكنني لم أحدّثها عن سونيا، لكنّها بدت وكأنها تستمع لي بأذن واحدة. فقد كان صوت التلفزيون واضحاً

في الغرفة، التي تتكلّم منها.

اتصلّت بسونيا بعد يومين؛ كي نحدّد ساعة اللقاء، لكنّها أخبرتني أنّها تواعدت مع بيرغيت، زميلتها في السكن الجماعي؛ للذهاب إلى السينما، فهي تريد أن ترى فيلم «رجل المطر»[1] ذكّرتها بأننا تواعدنا على اللقاء فسألتني: هل يزعجك أن تكون بيرغيت معنا؟

بعد انتهاء الفيلم تناولنا قدحاً من الشراب في إحدى الحانات، واختلفنا حول الممثل دوستن هوفمان، الذي ما أحببته يوماً، في حين وجدته سونيا وصديقتها ممثلاً رائعاً، كما أنّ وجهات نظرنا بخصوص الفيلم لم تكن متفقّة. قلت: إنني أعجب كيف ترضى سونيا عن هذا الفن الهابط؟. شعرت سونيا بالإهانة. كانت سونيا تعاملني طيلة المدة وكأنني شخص غريب، فعندما كنت أريد تقبيلها كانت تشيح بوجهها عني، وعندما كنت أمد يدي؛ لأمسك يدها، كانت ترجعها إلى الوراء. ثم قالت بأنها متعبة وترغب في النوم مبكّراً. مشيت معها صوب المنزل، وكنت آمل أن أتمكن من المبيت لدى سونيا، لكنها ودعتني قبيل المنزل على نحو حاسم، حال بيني وبين أن أقول شيئاً، عندما قالت: سأتصل بك لاحقاً.

بعد عدة أيام زارتني سونيا في المنزل، كان الطقس قد تحسّن فتناولنا الطعام في مقهى الحديقة الخاص بقرية الألعاب الأولمبية، ثم أخذنا نتمشّى في الحديقة. بعدها جلسنا طويلاً على الشاطئ، وأخذنا نقرأ ما أعدته سونيا للمشاركة في إحدى المنافسات.

(1) هو فيلم Rain man وقد تم إخراجه عام 1988، ويحكي قصة شاب ذي قدرات استثنائية مصاب بمرض التوحّد له شقيق. يموت والدهما فيكتشف الشقيق أنّ له شريكاً بالميراث.

ولم تعد تسألني إن كنت أرغب في مشاركتها. وكان هذا يكفي بالنسبة لي، فلم يكن المشروع المقدّم يعنيني كثيراً، كما أن أفكار سونيا بدت لي مسرفة في براغماتيتها؛ لهذا توقفت عن الإصغاء لها وصرت أنظر صوب العدّائين، الذين كانوا يمرّون بنا فُرادى أو جماعات وأفكرّ بأمور أخرى.

سألت سونيا عندما توقفت لبرهة عن الحديث إن كنا ما نزال أصحاباً، أم أنّ الأمور قد تغيّرت فردّت بدهشة: طبعاً ما نزال أصدقاء. أخبرتها أنها عاملتني يوم السبت كأنني غريب عنها، فردّت بأنها كانت تشعر بالتعب يومها، كما أن زميلاتها في السكن لا يعرفن عن علاقتنا. سألتها إن كانت تشعر بالخجل مني فردت سونيا باستنكار وهي تهز رأسها حائرة: ماذا؟

حلّ المساء وهي بصحبتي في القرية الأولمبية. نمنا معاً لكنّني أحسست بأنها تؤدي خدمة لي. كان السرير الموجود فوق بيت الدرج غير ثابت بما يكفي ويصدر صريراً دون توقّف، حتى سألتني سونيا إن كان السرير من القوة بحيث يستطيع أن يحملنا، ثم أضافت: هل تعني أن جارك في شقته؟

فقلت: حتى لو كان هناك، فقد استمعت إليه بما يكفي. لكنّ فكرة وجود أحد يمكن أن يسمعنا، جعل سونيا تشعر بالارتباك والتصقت بي. وطلبت أن لا أتصرف على نحو حيواني، قبلتنّي بعدها دون اهتمام ثم استأذنت في الذهاب إلى شقتها؛ لأن لديها موعداً صباح الغد لا تستطيع أن تتخلّف عنه.

صرنا نتقابل بانتظام. دعتني سونيا إلى شقّتها وأخبرت بيرغيت

وتانيا عن صداقتنا. فعلت ذلك على نحو رسمي، بحيث كدت أظنّ أنها تقدمّني لوالديها. ومع ذلك فقد كان لدي الشعور بأنّ سونيا صديقتي. وإن كان قد صار أقلّ المستويات من الضجيج، التي تصدر عنا يصيبها بالذعر. أخبرتُها أنّ ما نقوم به ليس جريمة فكانت تردّ: أنت لن تستوعب الأمور.

بدأتْ مرحلة التدريب الخاصة بي في شهر أيلول، أما سونيا ففي تشرين الأول. وبعد أن قامت سونيا بتسليم الطلب للدخول في المنافسة، تبقى لدينا بضعة أيام إجازة فسافرنا إلى دسّاو؛ كي نشاهد المنازل الرئيسية هناك. كانت سونيا قد شاركت في الرحلة القصيرة داخل المدينة، لكنني لم أستطع الاشتراك، لأن الزحام عند الدفع كان قوياً، لهذا لم أتمكن من الاشتراك في الرحلة. لكن سونيا أرتني المكان وكأنها دليلة سياحية. تحدثت عن وظيفة السكن، وعن انسجام الغرف، وعن انتشار الضوء. بدت تلك البيوت الرئيسية من وجهة نظري سطحية ولا تبعث على الاهتمام، كما بدت نظراً لطبيعتها الوظيفية الساذجة وكأنها لا تنتمي إلى زمن محدد، فالسكن لا يقتصر على تناول الطعام، والنوم، وقراءة الصحف فهو في المقام الأول، مكان نأوي إليه، يحمينا من تقلبات الطقس، ومن الشمس، ومن الأعداء، والحيوانات المفترسة. ضحكت سونيا وقالت: إن من الأفضل أن أرحل، على الفور، إلى أحد الكهوف.

قضينا ليلتنا في فندق بسيط. كان على الدرج آلة لبيع المشروبات، فاشترينا زجاجتي بيرة وأخذناهما إلى غرفتنا. كانت أرضية الممر مكسّوة بمشّمع أرضي، أما الغرفة فكان فيها سجّادة، وكانت النوافذ

مغطاة بستائر ثقيلة تفوح منها رائحة السجائر.

جلسنا إلى جوار بعضنا فوق السرير وأخذنا نحتسي البيرة. فجأة بدأت سونيا تضحك، سألتها عن السبب فقالت إنّ هذا المكان تعيس تماماً لدرجة تبعث على البكاء والضحك في الوقت ذاته.شعرت في هذه الليلة أننا أحببنا بعضنا بعضاً. كانت سونيا أكثر شعوراً بالتحرر من ميونيخ، ولعل ذلك يعود إلى قبح ما كان يحيط بنا الذي ملأها بهذا التوتر. وعندما وقفت، فيما بعد، قرب النافذة؛ لأدخن جاءت إليّ وتناولت السيجارة من يدي ودخنّت قليلاً. قلت وأنا أضع يدي على خصرها: إنّ منظرك جميل وأنت تدخنين.

أصرت سونيا على أن تدفع تكاليف الفندق، فقد كان والدها قد أهداها بعض المال عند التخرّج. فقلت: لكنّه لم يدفع لك مالاً كي تنفقي على حبيبك، ترى هل يعرف عن علاقتنا؟ تردّدت سونيا في الإجابة، وبدا لي أن الموضوع لم يكن مريحاً. لقد أخبرتُ والديّ عن سونيا، وإن كان ذلك على نحو عابر، لكنهما لم يسألاني عنها بعد ذلك.

بدأت مرحلة تدريبي، ولم يعد لديّ وقت. كان المكتب الهندسي، الذي أتدرّب فيه يقع خارج المدينة، وكنت أعود من العمل بين التاسعة والعاشرة مساء، وأكون مرهقاً لدرجة لا أستطيع فيها الخروج من المنزل. كانت سونيا تتصل بي هاتفياً كل يوم، لكنّه لم يكن يزعجها أن لا نتمكن من اللقاء إلّا في نهاية الأسبوع.

صار عليّ أن أرحل في نهاية الشهر عن القرية الأولمبية، ولم يكن لدى بيرغيت وتانيا مانع من أن أقيم في غرفة سونيا إلى أجل غير مسمّى. وقبل أن أعرض على سونيا مساعدتي كانت قد نقلت الكثير

من أشيائها إلى منزل والديها، وقامت بتنظيف الغرفة. لم أحضر الكثير من الأشياء معي، واكتفيت بإحضار طاولة، وكرسي، وفرشة وبعض الكتب، والأسطوانات تركت ما تبقىّ للمستأجر من بعدي. وقد ساعدني روديغر وسونيا في الرحيل. ذهبنا بعد ذلك لتناول الطعام، وبعد ذلك؛ عادت سونيا بصحبة روديغر إلى ستارن بيرغر. لقد رجوتها أن تنام عندي. لكننّا التقينا قبل سفرها مرة أخرى. كانت سونيا متوترة وأرادت العودة إلى المنزل على الفور، فافترقنا دونما كلمة. لكنّها قالت عندما ركبنا السيارة: كن شجاعاً. وأنت أيضاً. قلت وأنا ألوّح لها بيدي حتى اختفت سيارتها.

كنا مناسبيْن لبعضنا البعض هذا ما كان الجميع يقولونه، لكننا كنا ندرك أنه قد تحدث أشياء كثيرة خلال ستة الأشهر تلك. قالت سونيا بأنها لا تستطيع أن تجزم، فهي ما تزال في البداية، فلعلها تبقى في مرسيليا، أو لعلها تقبل بعرض للعمل في مكان ما، فقد كانت لديها الرغبة للعمل في مكتب هندسي معماري كبير في لندن أو نيويورك. سنرى على أية حال. قلت لها. فأجابت بأنّ ابتعادنا عن بعضنا مدة من الزمن، قد يكون أمراً إيجابياً، فإذا ما التقينا ثانية في الربيع، فإنّ ذلك أفضل.

ظلتّ سونيا تكتب لي كل أسبوع بانتظام. وكانت تخبرني دائماً أنها بخير وتسألني متى سأجيء لزيارتها. كنت أردّ عليها بأن لدي الكثير من العمل ولا أستطيع أن أغادر ميونيخ. ولعلي أستطيع أن أزورها أيام العطل، فتردّ بأنها ستكون عند والديها في ستارن بيرغ في تلك الأيام! كان لديّ الانطباع بأنّه من غير العدل أن تقوم علاقة حب عن بعد،

لكنها استطاعت أن تبعد الرجال عنها وأن تكرس حياتها للعمل.

كتبت تخبرني بأنّ مديرها رجل عبقري، وكانت تستخدم اسمه الأول فحسب، وكأنهما أصدقاء قدامى. ثم صارت تتحدث بضمير الجماعة. سنقوم ببناء حضانة للأطفال، سنتقدم لمسابقة لبناء قصر للمؤتمرات، إنّ مخططاتنا المعمارية تتلاءم مع متطلبات الناس جميعاً، وأنّ هذه الإنجازات المعمارية ستُرى وتحسّ وتشم وتلمس. وكنت أقاوم رغبتي في أن أسألها ما معنى هذه الثرثرة؟ لعلي كنت يومها أحسدها على ما هي فيه، فقد كان المكتب، الذي أعمل فيها يومها مختصاً ببناء عمارات خاصة بالمكاتب تخلو من أيّ خيال معماري. وكانت فلسفة الشركة ترى أنّ الزبون ملك، وأنّ المال ليس له رائحة كريهة على الإطلاق.

في إحدى رسائلها اقتبست سونيا هيرمان هسّه لكلّ بداية هناك ساحر. راقني ذلك في شعوري بالغيرة مع أنني كنت واثقاً أن سونيا كانت مخلصة لي، وأنها جادة فيما يخص علاقتنا، ولعلها أكثر جدّية مني. وعندما كنا نتهاتف بين الحين والآخر، كنّا نركز الحديث على الخطط، فنحكي عن تأسيس مكتب خاص بنا، عندما تتكون لدينا الخبرة الكافية. لكنني لم أكتسب أية خبرة، فقد كان عملي يقتصر على بناء نماذج، ومخططات عمل. فقد جلست على امتداد شهور طويلة في مكتب لا نوافذ له وأنا أرسم بيوت درج متشابهة. ومع أنه كان لدي الكثير من العمل، فإنني شعرت بالملل. وللممل دور في بعث الغواية داخل النفس. فقد كنت أشعر بالمتعة سراً؛ لأنه ليس لدي مسؤوليات ولا هدف. ولم أكن أتطلّع إلى وظيفة أفضل، ولم أتقدم لأية مسابقة ولم

أقرأ المجلات المتخصّصة. وبدلاً من ذلك فقد كرّست ما لدي من فراغ لقراءة أعمال المؤلفين الأموات. فقد قرأتُ إدغار ألان بو[1]، وآيخن دورف[2]، وميرتشا إلياده[3]، وجيامبا تيستا فيكو[4]، في نصوص هؤلاء تجلت حقيقة لا تستطيع أن تبرهن على صحتها، ، لكنّ بوسعي أنّ أدركها عن طريق الحدس. بعدها عرفت لويس بولي[5] عن طريق ألدوروّسي. وبولّي هو أحد المعماريين الكلاسيكيين، الذي خطط قبيل الثورة الفرنسية لمبان تذكارية مرتبطة بمناسبات حزينة، لكنها لم تنّفذ. أدهشني تعامله مع الضوء، فهو لم يتعامل معه بوصفه أمراً بدهياً. بل لأن له قيمة جوهرية. كانت مبانيه تبدو وكأنها قد صمّمت لمجابهة تيار من الضوء وتيار من الزمن.

ملأت دفاتر الملاحظات بأفكار مضطربة، ورسومات لمنشآت كبرى من غير أن يكون لديّ هدف محدد، أو أرشيف، أو نصب تذكاري، أو قلاع. كل ما كان لدي مبنى نصفه تحت الأرض وبلا نوافذ. يدخل النور إليه على استحياء.

---

(1) Edgar Allan Poe (1809–1849). أحد رواد الرومانسية الأمريكية كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة ومارس النقد الأدبي.

(2) Joseph Freiherr Von Eichendorff (1788–1857). شاعر وروائي ينتمي إلى أواخر المدرسة الرومانسية الألمانية، ومع ذلك فهو يُعد من أهم أعلام الرومانسية الألمانية.

(3) Mircea Eliade (1907–1986). روماني الأصل. هو مؤرخ للأديان وروائي وعمل أستاذاً في جامعة شيكاغو، وقد اهتم بتحليل التجارب الدينية من خلال التركيز على المقدس والمدّنس..

(4) Giambattista Vico (1668–1744). فيلسوف وسياسي إيطالي، وخطيب، ومؤرخ، وناقد للعقلانية الحديثة، ومدافع عن الكلاسيكية.

(5) Louis Boulleè. (1728–1799) مهندس معماري فرنسي ينتمي إلى الكلاسيكيين الجدد في العمارة.

كتبت إلى سونيا مقتبساً ألدوروّسي، الذي قال بأن كل صيف يأتي يبدو له وكأنه الصيف الأخير، أجابت ساخرة بأن كل صيف يأتي يبدو لها وكأنه أوّل صيف. فهي لم تستطع أن تهضم سوداوية روّسي ورجعيته، كانت سونيا تؤمن بإمكانية تغيير العالم عن طريق العمارة وعندما كنت أرد عليها بأنّ كلّ الأعمال الكبرى قد أنجزت، كانت تسخر مني وتقول بأنّ هذا ليس إلا اعتذاراً لغياب الحماسة.

كانت الشقة، التي أقيم فيها واقعة في الطابق الثاني في شارع ضيق. وعندما كانت سونيا تقطن الشقة، كنت أحس فيها بالسعادة، لكنني صرت أشعر بعدم الراحة بين جنباتها عندما غادَرْتها. كانت الشقة من الناحية المعمارية بحاجة إلى التناسق ولا يكاد الضوء يدخلها، أما غرفتي فكانت ضيّقة وطويلة ومرتفعة السقف نسبياً. كنت قد وضعت الطاولة أمام النافذة، ومع ذلك فقد كنت أشعر عندما أبدأ العمل بأنني عاجز عن الإنجاز ومُقيّد. كان في الشقة مدفأة وحيدة تعمل بمشتقات البترول، وعندما كنت أغلق باب غرفتي طلباً للهدوء، سرعان ما تصبح الغرفة باردة. لذا كنت كثيراً ما استلقي فوق فرشتي الموجودة في إحدى زوايا الغرفة؛ لأقرأ، ولأغفو بعض الشيء.

كانت الحياة مع بيرغيت وتانيا صعبة. صحيح أنّ سونيا استطاعت إقناعهما بقبولي في الشقة، لكنهما كانتا لا تريدان رجلاً معهما. كنت أشعر منذ وقت مبكر أن بيرغيت، التي تستعد لتقديم امتحان الدولة الثاني، تغار مني، ولما قلت لسونيا ذلك هزّت رأسها وقالت بأنّ لدى بيرغيت شقيقتين لهذا فهي ليست معتادة على أن تجد رجلاً يقف أمام باب غرفة الحمام. أما تانيا، زميلتي الأخرى في السكن، فهي

تعمل مساعدة طبية في مستوصف صحي في بوغن هاوزن. كان التفاهم يسود بيننا في البداية، لكنها كانت تقوم بنقاشات ساخنة عن المخدرات، وتربية الأطفال وتقدم وجهات نظر محافظة جداً لا أستطيع أن أقبل بها. وقد اعتادت أن تشارك في المدة الأخيرة في مؤتمرات، أو في أيام مدرسية، وعندما تعود لا تتوقف عن الحديث عن موضوعها المفضل: النسوية والتربية غير السلطوية والمثلية الجنسية وتجعلها مسؤولة عن انحطاط العالم وتدهوره. وقد بدأت، بعد سفر سونيا مباشرة، بالحديث عن مرض الإيدز وحاولت عبثاً، تطوير نظرية عما سمته بدعة الأمان. ففي المطبخ والحمام وضعت بخّاخات، وأدوات تعقيم سبق لها أن جلبتها من المستوصف الطبيّ. أما في الثلاجة فكان لكل منا قسم خاص به، وأما المواد الغذائية فلا يصحّ التشارك فيها. ثم بدأت تانيا بإحضار أناس بدأوا ينامون في غرفة الضيوف، لإقناعي أنا وبيرغيت بوجهات نظرها. وقد تبيّن لي أن هؤلاء جميعاً أعضاء في جمعيته مُريبة تسعى للتامل في الطبيعة الإنسانية. دأبت بيرغيت على الخلاف معهم، أما أنا فقد انسحبت إلى غرفتي، وكنت أقوم بفتح جهاز التلفزيون ورفع الصوت إلى أقصى مدى بحيث يتعذر إجراء أي حوارٍ عقلاني.

صار المزاج العام في السكن الجماعي رديئاً، ومع ذلك فإنّ سعيي للحصول على سكن جديد كان يجري بفتور.

غالبية زملائي قد رحلوا بعيداً؛ فقد وجد فرِدْي وظيفة في برلين وذهبت أليس معه. أما روديغر فقد أمضى عدة أشهر في أمريكا اللاتينية، وأرسل لي بطاقات من بيونس آيرس وبرازيليا. ولم أحسده على الرحلة فحسب، بل على امتلاكه الطاقة؛ لتنفيذها. لهذا كنت أتصور أنني

وحيد في المدينة. ومن هنا يصبح في وسعي أن أوضح لماذا شرعت في نهاية تشرين الأول، باللقاء مع إيفونا.

كان الأمر بالنسبة لي في غاية البساطة. أعلنت في المكتب أنّ لدي موعداً مع طبيب الأسنان، ومضيت قبيل أنّ تغلق المحلات أبوابها إلى مخزن بيع الكتب. جاءت إيفونا من الغرفة الخلفية على النحو، الذي وقع في زيارتي الأولى، وقفت وراء الطاولة دونما كلمة، وبدأت بتنظيم صور القديّسين، والكتب الصغيرة، والمناظر الطبيعية، وأقوال الكتب المقدّسة. كانت ترتدي بنطالاً له طيّات وبلوزة فلكلورية الشكل.

كنت أشعر أنها تراقبني، لكنها كانت تشيح ببصرها عني عندما أنظر إليها. وكانت الرغبة في إعماقي تتنامى بضرورة أن أنالها بين كل هذه المظاهر الدينية، وهذه المعارف التنويرية والمفيدةّ سألتها: هل أنت وحيدة هنا؟ لكنها صمتت بعناد. أزحتُ الستارة، ونظرت إلى الغرفة الخلفية. وعلى الرغم من أنني أزحت الستارة بقيت الأضواء خافتة في الغرفة. كانت النافذة تفتح على فناء خلفي ضيّق، لا يسمح بدخول الضوء إلا في أوقات الظهيرة. في منتصف الغرفة كان هناك طاولتان مخصصتان للكتابة ومصنوعتان من البلّوط. وعلى الجدار رفوف مملوءة بالورق المقوّى، والكتب المتراصة. كان المكان يفوح برائحة الغبار والورق، مثلما يفوح، بعض الشيء، بالشمع ورائحة العرق. جلست فوق إحدى الطاولات، وتبعتني إيفونا، التي وقفت في الممرّ. طلبت منها أن تأتي، فأخبرتني أنها ستغلق المخزن بعد خمس دقائق. دق جرس الباب فاختفت إيفونا. بعد ذلك بدأت أستمع إلى حديثها. كانت تتحدث البولندية بالتأكيد. ولم أفهم كلمة واحدة مما قالت: استرقت النظر من

خلال فتحة في الستارة، فرأيت امرأة شقراء جميلة، تقارب إيفونا في العمر، تصافحتا، بعدها سمعت صوت المرأة الشقراء وهي تضحك من إيفونا، التي هزت رأسها وبدا أنها تريد إيضاح أمر ما. عدت؛ لأجلس فوق الطاولة وأنتظر. بعد قليل سمعت صوت جرس الباب، ثم صوت المفتاح في القفل.

كنت أتوقع أن توجه لي إيفونا اللوم، بعد أن وقع بيننا ما وقع في لقائنا الأخير، أو لأنني لم أرها منذ زمن طويل، لكنّ إيفونا بقيت تقف إلى جواري كالمسكينة وتحدّق في الفراغ.

نهضتُ وخطوتُ عدّة خطوات نحوها وعانقتها. لم تمانع، لكنها تملصت مني، وأطفأت الأضواء وأغلقت الستائر.

أخذت أقبلها وأنا أخلعُ ملابسها، أخذت تشكو وتشيح برأسها يمنة ويسرة. خلعت ملابسي واستلقينا فوق أرض يابسة. وأخذت إيفونا تقبلني. وعندما أردت أن أنالها قاومت ولم تسمح. وعندما ابتعدت عنها وتركتها، همست بالبولندية. لم أتساءل ماذا قالت، لكنني كنت أتصور ذلك ولا أريد أن أسمعه. قالت لي: لا تذهب. فأخبرتها أنّ لدي الكثير من الأعمال فسألتني إن كنت أرغب في تناول الطعام، فقلت: ليس لدي وقت، ثم سألتني أخيراً إن كنت سأعود فقلت: أجل وانصرفت.

عدت إلى المكتب الهندسي، كي أتمكّن من إنجاز بعض الأعمال، لم يكن رئيسي موجوداً آنذاك. اتصلت مع سونيا في الساعة الثامنة ولم تكن بعد قد وصلت إلى المنزل. وبعدما انتهيت من عملي في العاشرة مساء، حاولت الاتصال بسونيا فردّت عليّ، فسألتها إنْ كانت مشغولة إلى حد كبير. لم أكن غيوراً، فاستمعت بصبر إلى مشروعها الجديد، الذي

تعمل فيه. أخبرتني سونيا أنها منذ مدة لم تستمع إليّ إلّا ومزاجي متعكر. وقد بدوت في تلك اللحظات منطلقاً ومرحاً وأخبرتها أنني افتقدها. فقالت سونيا: وأنا أيضاً، وسنرى بعضنا في أعياد الميلاد. كنت مندهشاً. فلم أكن أعاني من تأنيب الضمير على الإطلاق، بل على العكس شعرت أن الروابط بيني وبين سونيا صارت أقوى من أي وقت مضى.

عندما ذهبت إلى مخزن الكتب بعد عدة أيام؛ لزيارة إيفونا، طلبت مني أن أزورها في منزلها، وكان ذلك من المرات القلائل، التي طلبت إيفونا فيها شيئاً منّي.

منذ ذلك الوقت صرت أذهب إليها في غرفتها حيث تسكن. كانت غرفتها تبدو وكأنها غرفة أحد الأطفال. أو إحدى النساء العجائز. كانت الغرفة مملوءة بَسَقط المتاع، وذكريات وهمية لحياة لم تبدأ بعد. فوق السرير كان هناك صليب صغير من البلاستيك، أما على الجدران المقابلة فيوجد بطاقات بريدية وأقوال من الإنجيل. أما على السرير فكانت تتكوم كميات من الدمى القماشية بألوان فاقعة، كتلك التي يمكن للمرء أن يشتريها من الدكاكين في محطات القطارات. أما على الأرض فكانت هناك روايات نسوية ومواعظ مسيحية، ومجلات سياسية وبين ذلك الركام كانت هناك ملابس ملقاة وجوارب ووصفات طعام مقتطعة وحُلّي رخيصة. ويبدو أن الفقر والفوضى وغياب كلّ نوع من أنواع الجمال قد أدى إلى تقوية رغباتي. فلم يكن هناك ما يستطيع أن يكبح جماحي، أو ما يمكن أن يذكّرني بحياتي وبعالمي، وبدا لي وكأنني ألقيت في هذا الوضع؛ لأكون بين هذا الركام الكثير الخالي من التخطيط والشديد الإهمال.

كنت آتي إلى إيفونا في الأوقات، التي تناسبني ووقت ما أستطيع. كانت إيفونا موجودة كل مساء في منزلها، وكان يبدو أنه لا عمل لديها إلا انتظاري.

كانت تترك التلفزيون مفتوحاً في أغلب الأوقات، وإذا أرادت إغلاقه، أقول لها: لا تفعلي. فنمضي الوقت معاً أقبلها ونحن نستمع إلى الموسيقى التصويرية لأحد الأفلام الهابطة، وكثيراً ما كنت أغادر غرفتها قبل أن ينتهي الفيلم. فلم يسبق لي أن أكملت ليلة بأكملها عندها؛ خوفاً من أن تقوم تانيا أو بيرغيت بإخبار سونيا. كما أنني لم أكن أستطيع أن أتخيّل أن أصحو من النوم، وأجد نفسي إلى جوار إيفونا، فأنا لم أكن أطيق صحبتها إلا عندما أشعر بالإثارة.

جاء لقائي الثالث أو الرابع بإيفونا بعد سقوط جدار برلين. كنت ليلتها قد أمضيت نصف الليلة المنصرمة أمام التلفزيون، فكنت مرهقاً عندما ذهبت إليها في المساء. سألتها عن رأيها في الأمر، فهزّت كتفيها. قلت لها: إنني غير واثق إنْ كان توحيد البلدين مجدداً يشكل أمراً معقولاً ثم بدأت أذكر لها منافع الوحدة ومضارها وكأنّني المختص بما يتعلّق بمستقبل ألمانيا. استمعت إيفونا لكلامي بوجه خال من الانفعال وكأنّ شيئاً لم يكن. وبدا لي أنها تعيش في عالم خاص بها، دون أن تأخذ بعين الاهتمام ما يدور حولها.

لاحظت أن إيفونا بدأت تتجمّل، فقد بدأت تتزيّن وتضع المساحيق على وجهها، كما أخذت تذهب إلى صالون قص الشعر، مثلما بدأت تهتم بخزانة ملابسها. وعندما أخبرتها بأنني لا أحب أن تضع مساحيق التجميل على وجهها توقفت عن ذلك. فقد كانت من النوع، الذي يبني

حياته من أجل أن أهتم بها، ومن أجل أن أهتم كذلك.بمظهرها الخارجي وأتحدث عنه. فكانت تريني أحياناً قطعتين من الملابس وتسألني: من هو الأجمل بينهما؟

فكنت أشير إلى قطعة منهما، مع أن القطعتين متشابهتان تماماً. بعدها تختفي إيفونا داخل الحمام؛ كي ترتدي الزّي الذي أشرت إليه ثم تعود؛ لتستلقي إلى جواري، حتى غَدَتْ تفعل كلّ ما أطلبه منها إلّا أمراً واحداً.

كانت إيفونا تبدأ بالحديث عندما أطيل المكوث لديها أكثر من المعتاد ،فقد كان لديها مخزون لا ينضب من حكايات غامضة يكون فيها لعذراء مدينة تشن تشخاو[1] أو لكائن مقدّس آخر معجزة ذات دور فاعل في حياة بسطاء الناس. وهذه الحكايات تبدأ برزمة المفاتيح الضائعة، وتنتهي بتحقيق رغبات طفل ما، أو الشفاء من أحد الأمراض المستعصية.

كانت إيفونا تتكلّم بسرعة، دون أن تنظر إليّ، وكأنها تتحدث مع نفسها في ابتهال لا نهاية له. كانت حقيقتها تبدو لي في تلك اللحظات وأرى أنها امرأة تشعر بالوحدة المرعبة. وتتحدّث عن البابا، الذي تبدي له الكثير من الاحترام، كأنه أحد القديسين. وعندما كنت أوجه النقد له كانت تصمت حتى أنهي كلامي، لتواصل هي حديثها مِنْ حيث كانت قد توقفت ولم تكن كلماتي؛ على ما يبدو، قد وَصَلتْ إلى مسامعها.

ظلت لقاءاتنا تتسم بهذه النمطيّة الثابتة، ولم تكن تزيد عن ساعة من الزمن إلّا في النادر، وكانت تستمر مدة نصف ساعةفي بعض الأحيان، فلم تكن إيفونا عشيقة من طراز راق، ولم يكن لديها خبرة ولا خيال.

---

(1) Tschenstochau. مدينة تقع في جنوبي بولندا على نهر وارتا.

فإذا لمستني، فإما أن تكون متردّدة تماماً، أو فظّة تماماً. وإذا ما لمستها فغالباً ما تكون لها ردّة فعل، وقد تنصرف للعب بشيء آخر أمامها. ولعل ما جعلني غير قادر على أن أتخلص منها هو استسلامها المطلق وحبها الخالي من الشروط.

على هذه الشاكلة بدت لي إيفونا أمراً عارضاً، لكن هذا الأمر استطاع أن يجتذبني على نحو لا يقاوم، فما أكاد أرضي رغباتي، حتى أجدني مضطراً للعودة إليها. بعد ذلك نمت لدي الحاجة لإيذائها، حتى أستطيع أن أتحرّر من قبضتها.

سألتها ذات مرة أتظنيّن أنّ الله راض عما تفعلينه؟ وهل تعتقدين أنّ ما نقوم به ليس خطيئة لأننا لا ننام مع بعضنا بعضاً؟ وقد اتهمتها بأنها تتظاهر بالورع لا أكثر. لم تفهم معنى الكلمة، التي استخدمتها وكان عليّ أن أشرحها لها.

إنني لا أدري كيف يكون بوسعي أن أعتذر عن سلوكي ولا أدري كيف يمكن لي أن أجد لهذا السلوك أيّ مسوّغ. لم أكن أدري إلّا أنني أصبحت أكثر ارتباطاً بإيفونا على نحو يصعب أن استقل عنها. وأنا مملوء بالوهم بأنني مسيطر عليها تماماً؛ مع أنّ سيطرتها عليّ صارت أكبر وأقوى. لم تكن إيفونا تطلب مني أيّ شيء في هذه الأثناء، ولم تكن تشعر بالإهانة، إذا ما غبت عنها أياماً؛ لأن لدي الكثير من العمل في المكتب، أو لأنني لم أكن أمتلك الرغبة لزيارتها. كنت أحياناً أحكي لإيفونا عن نساء أخريات. إمعاناً في إيلامها، لكنها كانت تتقبّل ذلك وتصغي إليّ بوجه خال من التعبير، وبخاصة عندما أطري جمال الأخريات وذكاءهن لعلها، لم تكن تعلم أيّ قوة تملكها وتسيطر عليّ بها، ولعلها

كانت تظن أنّ تعلّقي بالجنس المحض هو لون من المحب.

صار الجو في السكن الجماعي حيث أقيم، غير محتمل وصار التواصل بيننا يتم عن طريق قصاصات الورقة الصغيرة، التي كنا نعلّقها فوق الثلاجة.

وضعت تانيا خطة لتنظيف المنزل، تجاهلناها أنا وبيرغيت بقوة وتصميم. صارت رائحة المنزل عابقة بمواد التعقيم وصار بارداً في أغلب الأوقات، لأنّ تانيا كانت تطفئ المدفأة؛ كي لا تتكاثر الجراثيم بسرعة كما كانت تزعم. وكان ضيوفها يطيلون المكوث في المنزل وبدأوا يتدخلون في شؤوننا الخاصة.

وعندما عدت ذات مرة بعد نهاية الأسبوع، حيث قضيت العطلة عند والدتي، وجدت سريري وقد نزعت عنه الملاءة. تحدثت مع تانيا على انفراد. فأخبرتني بأن صديقاً لها نام في غرفتي، وأنا لن أعارض ذلك بالتأكيد؟ وقفت صامتاً إلى جوارها وهي تعقم سريري وتضع ملاءة جديدة فوقه. منذ ذلك اليوم صرت أغلق غرفتي عندما أغادر الشقة، وبدأت أسعى جاداً للانتقال إلى سكن جديد.

لم يكن من السهل العثور على سكن مناسب، فقد كان دخلي ثلاثة آلاف مارك وهو دخل غير قليل بالنسبة لمتدرّب مثلي، لكنني لا أستطيع أن أحقّق قفزات كبرى بهذا المبلغ. تأملت ما أمامي من عروض دون أن أستطيع اتخاذ قرار. ومع مرور الوقت صارت الفرجة على الشقق تدخل السرور إلى نفسي، وهي شقق لا أستطيع الاقتراب منها بطبيعة الحال. وعندما كنت أخبر أصحاب المنزل، بأنني مهندس معماري، كانوا يعاملونني باحترام ويمضون معي وقتاً طويلاً. كانت بعض الشقق

مأهولة بالسكان، وكان من الممتع تماماً أن ترى كيف يختلف الناس في تأثيث منازلهم، وكيف تبدو أمورهم متباينة تجاه الكثير من الموضوعات. وكان من المؤلم أن يقودك المؤجّر؛ ليريك الخزائن المبنية داخل الجدران المملوءة تماماً بالملابس البالية، والمطابخ المملوءة بأدوات المطبخ القذرة والمملوءة ببقايا الطعام، وأن ترى الأعشاب الجافة على حواف النوافذ. وقد تصادف أن كان أحد المستأجرين في غرفة الاستحمام، فقادني المؤجّر إلى المنزل وأراني أرجاءه ثم قرع باب الحمام، لكنّ الساكن لم يفعل شيئاً ولم تصدر عنه حركة. أخبرني المؤّجر أنه قد أخبر الساكن بموعد قدومنا، وقال بأنه يضمن أنه سيغادر المنزل في نهاية العام حتى لو اضطرا للاستعانة بالشرطة.

تمكنت أخيراً من العثور على شقة صغيرة مكونة من ثلاث غرف تقع في الطابق الأول في عمارة قديمة في منطقة الشفابنج في ميونيخ. أحببت السكن منذ اللحظة الأولى، لم تكن قد أجريت للشقة عمليات صيانة، ولم يكن فيها سوى مدفأة قديمة تعمل على مشتقات البترول. كان تنظيم الشقة مريحاً والإضاءة في الغرف ساطعة وتبعث على الراحة، وهي أمور غدت نادرة في الشقق الحديثة أخبرت بيرغيت بذلك في الليلة، التي عثرت فيها على الشقة وبدا لي أنها غير سعيدة بالبقاء مع تانيا وأصدقائها المجانين. أخبرتني أنها سترحل غداً إذا لم تستطع تحمّل الوضع.

حلّت أيام الإجازات بسرعة، وسافر العديد من أصدقائي للاحتفال بأعياد الميلاد مع عائلاتهم، وأعلموني بموعد زيارتهم لي. كان فرِدْي وأليس يرغبان في القدوم، وكتب لي روديغر من سانت بولو المحطة

الأخيرة، التي كان فيها، واتصل بي أيضاً الطبيب البيطري يعقوب، الذي أخبرني بأنه عثر على وظيفة في شتوتغارت وأنه سيكون في ميونيخ قبيل ذهابه إلى غابة بافاريا، وسألني إن كنت لا أمانع أن نشرب كأساً من البيرة معاً. أما سونيا فستجيء في الختام؛ لأنه ما يزال لديها الكثير من العمل، لهذا فقد قررت أن تأتي بالطائرة عشية عيد الميلاد.

تواعدنا أنا ويعقوب على اللقاء. وقبل أن أذهب إليه توجهّت إلى إيفونا. سألتها ونحن جالسان على حافة السرير إن كانت لديها الرغبة؛ كي تأتي معي لنحتسي كأساً من البيرة. لم أكن أفهم ما كان يدور في أعماقي. فقد كنت أُقدم على مغامرة، وعليّ أن أتوقعّ أن يلتقي يعقوب بسونيا بعد أيام الإجازة، ويمكن أن يخبرها بذلك. لكنّ ما فعلته حدث بدافع يشبه دوافع البشر عندما يكشفون عما أصابهم من ندوب؛ ليفخروا على نحو غير عقلاني بتلك العاهات.

لم أكن قد خرجت أنا وأيفونا منذ تلك الأمسية إلى العلن، فقد كانت رؤية أحد معارفي لي وأنا بصحبتها يثير الرعب في داخلي، مثلما يقود، في الوقت ذاته، إلى غواية ارتكاب هذا الفعل.

بقيتَ إيفونا تسير خلفي، بصرف النظر عن مدى سرعتي أو بطيء في المشي، ولم تجلس في حافلة الركاب إلى جواري، بل بقيت واقفة إلى جوار المقعد، الذي جلست عليه. وعندما وصلنا محطة النزول، نزلت من الحافلة دونما كلمة والتفّت خلفي سريعاً؛ لأرى إن كانت ستلحق بي.

اتفقت مع يعقوب أن نلتقي في مطعم لم نكن نجرؤ على دخوله أيام الدراسة. يقع المطعم في مبنى ضخم لصناعة البيرة، وهو مبنى خالٍ من الروح، لكن السواح يقصدونه في العادة.

جلستْ إيفونا على المقعد الملاصق للجدار، وبعد تردد لم يستمر إلّا مدة قصيرة جلست إلى جوارها. وصل يعقوب متأخراً ربع ساعة عن الموعد، صافحني فقمت بالتعريف بينه وبين إيفونا، وأخبرته أنها بولندية. نظرت بعد ذلك في عيني يعقوب، لكنني لم أعثر على أيّة ردة فعل.

ابتسم يعقوب وصافح إيفونا. ثم بدأ يحكي عن أطروحته، التي تدور حول التغيّرات المرضية في الضروع البقرية.

كان من المدهش أن تجد مثل هذا الريفي يحتسي البيرة، ويقوم بتحليل ظاهرة مَرضَية معقّدة لا أدري أنا عنها شيئاً. سألني يعقوب عن عملي فأجبته بكلام عام، بعدها سأل إيفونا عن عملها فأخبَرَتْه أنها تعمل في مخزن لبيع الكتب. ثم سألها عن المدين، التي تنتمي إليها في بولندا، وعن أسباب قدومها إلى هنا، وإمكانية رجوعها بعد أن بدأ الشرق بالانفتاح. قالت إيفونا بأنها لا تدري. كنت أرقب في تلك الأثناء أن تصدر عن يعقوب ملاحظة أو نظرة اتهام، لكنه بقي يتحدث مع إيفونا وكأنها ظاهرة بديهية، بل إنه بدأ يتلفظ ببعض الكلمات البولندية، التي التقطها من العمال البولنديين المهاجرين، الذين سبق لبعضهم أن عمل في مزرعتهم.

شعرت، وهو أمر نادر الحدوث، بشيء من الغيرة وأنا أرى الحديث ينساب بين يعقوب وإيفونا على تلك الشاكلة. لم أكن أخشى أن يقوم يعقوب برمي شباكه حول إيفونا، لكنني أحسست بوجود لون من الثقة المتبادلة بينهما، وهو لون من الانسجام لم أستطع تفسيره.

لم يعامل يعقوب إيڤونا على نحو لافت، بل تعامل معها على نحو

طبيعي تماماً. لكنَّ إيفونا بدت مرتاحة معه، في حين كانت تتعامل معي على نحو يخلو من اللطف ويتسم بالتوتر عندما نكون وحدنا. بدأت أمرّر كفي على الساق العليا لإيفونا من تحت الطاولة، فابتعدت عني، لكنني لم أتوقفّ ولم يكن هناك صعوبة في أن أقوم بإخفاء الأمر عن يعقوب، كان الأمر طفولياً لكنني لم أستطع التوقف إلا عندما نهض يعقوب، وابتسم واستأذن بالانصراف حتى لا يسبب لنا المزيد من الإزعاج.

سألني يعقوب في أثناء لحظات الوداع عن أخبار سونيا، تلك الفتاة الشقراء، التي كانت زميلتي في الدراسة. أدركت على الفور أن سؤاله هذا كان وراء حرصه على لقائي. إنها في مرسيليا. فسألني: أتتصل بها حتى اليوم؟ فقلت: طبعاً. استرقت النظر إلى إيفونا لكنّها أشاحت برأسها ونظرت في اتجاه آخر. فقال يعقوب: أرجو أن تأتي إلى هنا بعد عيد الميلاد، فأنا أشعر بأنني كالسجين عند أبي وأمي. ثم قال: هل من الممكن أن نلتقي نحن الأربعة؟ فقلت: إنّ رقم هاتفي معك، وعليك أن تعلِمني عندما تكون هنا.

التقيت فرِدْي وأليس ظهر اليوم التالي على الغداء. كانت أليس حاملاً وهما يريدان الزواج في الربيع. أخبرني فرِدْي أنه سيقوم بتأسيس مكتب هندسي خاص به، وأنه يريد أنه يُجرّب حظه في شرق أوروبا؛ لأنّ البلاد هناك مقبلة على حركة قوية، وسيكون اسم المكتب: مكتب الدورادو للهندسة المعمارية. ثم قال بأنه تعرّف على بعض الناس المّهمين.

اشتكت أليس عندما قام فرِدْي بإشعال سيجارته، فعبّر لها من خلال قسمات وجه مطيعة عن استجابته لطلبها. كان وزنه قد ازداد،

وعندما أراد أن يطلب قطعة من لحم الخنزير، قالت له أليس، إن عليه أن لا يسرف في تناول الدّسم ووضعت يدها على بطنه. كانت أليس لا تكف عن انتقاد فِرِدْي، لكنّ ذلك، على ما يبدو، لم يؤثر فيه، بل على العكس، كان يجعله سعيداً وكأنه هو المطلوب تماماً. سألتني أليس إن كنت أستطيع أن أشارك في حفلة روديغر، التي سيقيمها في رأس السنة الجديدة. قلت لها بان روديغر دعاني وسونيا للقدوم، لكنني أريد أن أتحدث مع سونيا ثم قلت: سنجيء في أغلب الظن.

استغل فِرِدْي ذهاب أليس إلى التواليت وسألني عن إيفونا. فقد اتصل بيعقوب هاتفياً، الذي أخبره أنه التقانا معاً ثم ابتسم ابتسامة مملوءة بالإيحاءات وقال بأنه لم يتوقع ذلك مني تحديداً، وسألني لماذا لا أحب امرأة جميلة على أقل تقدير؟ فقلت: ومَن قال إنها حبيبتي؟ فضحتك فِرِدْي وقال بأنه لا يعرف سبباً يمكنني أن أتصل بإيفونا غير ذلك، وهو لا يدري، حقيقة، إن كانت تصلح لذلك. ولكن من يدري فلعلها تمتلك موهبة دفينة! عادت أليس من التواليت وقالت بأن وضعها سيئ، فانصرفت مع روديغر.

ذهبت في هذا المساء إلى إيفونا، وطلبت أن أراها عارية. بعد ذلك استلقت على السرير كما يستلقي مريض أمام الطبيب للفحص السريري. وقفت أمام السرير وتأملتها وسألتها عن موعد عودتها إلى بولندا. كانت تريد أن تضع الغطاء فوقها لكنني منعتها. قالت بأنها لن تعود إلى بولندا، ونظرت إليّ، متوقعة أنه يجب عليّ أن أشعر بالفرح.

أخبرتها أنني لا أستطيع أن أجيء إليها فإن لدي صديقة. منذ متى؟ فقلت: إنني على علاقة بسونيا منذ الصيف. هل عرفتها قبلي؟ بعد أن

عرفتك بقليل. قلت.

شعرت إيفونا بالراحة، فللمرة الأولى أرى التمرّد في عينيها، وكأنها أرادت أن تقول إنني كنت الأولى، ولهذا فأنا أمتلك الحقوق المسبقة. لكنها لم تقل شيئاً. قلت لها إن التناسب بيننا غير موجود، ومن أجل أن أرضيها قلت إن عليها أن تدرك ذلك. فلابد أن لديك اهتمامات أخرى، فأنت قادمة من بلاد أخرى، ومن عالم مختلف صحيح أنّ هذه الأمور قد تبدو غير مهمّة لك، لكنّها تشكّل على المدى البعيد أموراً جوهرية للعلاقة، كما أنني واثق من أنك لن تشعري بالراحة مع أصدقائي. فعمّ ستتحدثين معهم؟ أتفهمين ما أعني؟ بقيت إيفونا صامتة طيلة الوقت، ولم تفه بكلمة واحدة. وعندما أنهيت كلامي قالت بصوت منخفض لكنّه قوي: أنا أحبك. لكنّني لا أحبك قلت لها.

وضعت إيفونا قبل أن أذهب مغلّفاً ملفوفاً بورق الهدايا بين يدي، فأخذته معي إلى المنزل. كانت الهدية كنزة صوفية مشغولة باليد ذات تصميم بشع.

اتصل بي صاحب الشقة بعد عدة أيام وأعلمني أنه قام بطلائها وأنّ بوسعي أن أنتقل في الحال إليها. ساعدني فرِدْي في الانتقال وأخذني إلى إحدى الشركات، التي تبيع الأثاث حيث قمت بشراء سرير ورف كتب، وسجادة، وأشياء أخرى للمطبخ، وأمضينا مساء اليوم ونحن نقوم بتركيب الأثاث وترتيبه.

حدثّني فرِدْي عن أليس وبدا متحمساً تماماً للعيش معها زوجةً، فقد انتهى زمن الصيد! فضحكتِ وقلت: أأنت من يقول ذلك؟ ردّ قائلاً بأن حياة الطلبة ليست شيئاً حتى لو أنه كان يستمتع بها. فقد كان يتطلع

لكسب المال وأشياء أخرى لكن ذلك لا يعني أنّ على المرء أن يمشي أعمى أثناء حياته.

ألا يبعث هذا الأمر على السعادة؟ قال روديغر وهو يضع قطعتي الخشب في الثقب الخاص بهما. فقلت ذلك مشروط بأن لا ينقص أي بُرغي، لكنّ البراغي دائماً تنقصنا. فرد فرِدْي بأن هذا يعتمد على موقف المرء. وواصل عمله. وعندما انتهى من نَصْب السرير قال: أرأيت؟ إنّ برغياً واحداً لم ينقصنا.

نقلني تأثيث الشقة وترتيبها من حالة الكآبة إلى حالة من المرح. وجدت عند تاجر يبيع الأثاث المستعمل طاولة قديمة مصنوعة من خشب الكرز وأربعة كراسي مناسبة لها، ومعها كنبة عريضة للاسترخاء. ثبّت المصابيح الكهربائية وبعض البوسترات على الجدران وقمت بتنظيم كتبي. كانت الشقة تبدو قبيل وصول سونيا لطيفة تماماً. كانت باقة من الورود موجودة على الطاولة والثلاجة مملوءة، وقمت بتثبيت اسمي على باب الشقة.

كنت حريصاً على أن أقتني القليل من الأشياء، لكنني لاحظت أنني كلما اشتريت قطعة جديدة من الأثاث، ازدادت سعادتي بهذه المِلكيّة الجديدة. أخذت أدور في الشقة، وأمسح بيدي فوق الأشياء الجديدة، وأمسكت بيدي كل الأشياء، التي لم استعملها من قبل، التي كانت تعد بحياة جديدة. أضأت المصابيح الكهربائية وأطفأتها، ووضعت أسطوانة جديدة. كانت البلوزة، التي أهدتها إيفونا لي موجودة في غرفة النوم، فارتديتها، فكانت مناسبة لي تماماً لكنْ تصميمها كان يبدو إهانة للناظر إليها. فكرّت في أن أرميها على الفور، لكنني لم أستطع تنفيذ ذلك،

فوضعتها في غرفة المعيشة فوق مسند أحد الكراسي.

في صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى المطار؛ لأحضر سونيا. كان قد مرّ على آخر لقاء لنا قرابة ثلاثة شهور. وصلت إلى المطار قبل أن تهبط طائرتها، وانتظرتها طويلاً حتى غادرت الجمارك. كنت قد وضعت لسونيا صورة فوق مكتبي، لكنني فوجئت، مثل كلّ مرّة. بمنظرها الخارجي عندما شاهدتها؛ كانت قد بالغت في تقصيرها لشعرها، وترتدي سترة بحرية بيضاء موشحة باللون الأزرق، وكانت الشمس قد لوّحت بشرتها عندما أطلت بقامتها المنتصبة ومشيتها الهادئة من الممرّ الآخر. أشرق وجهها عندما رأتني، فوضعت حقائبها جانباً وأسرعت نحوي؛ لتقف أمامي حائرة، حتى بادرتُ إلى عناقها وتقبيلها.

ظلتّ سونيا تحكي طيلة الطريق عن عملها، وأخبرتني أنها أمضت الوقت في الطائرة وهي ترسم وأرتني المخططات، التي قامت بتصميمها. وكان من الواضح أنها تعلمت الكثير في أثناء هذه الأشهر الثلاثة، وهو أمر لا تخطئه العين الخبيرة، فقد غدت رسوماتها أكثر ثقة وخطوطها أكثر قوة وتحديداً، وبدت لي سونيا كذلك أكثر نضوجاً؛ فقد صارت تتحدّث بسرعة أكثر من المعتاد، وتضحك كثيراً. وعندما توقف التاكسي بنا، دفعت سونيا الأجرة قبل أن أتمكن من إخراج محفظتي من جيبي.

أعجبت سونيا بالسّكن، فكانت تدّق على الجدران وتفتح النوافذ وتتفقد الحمامات. سألتها بعد بذلك كله: ما هو رأيك؟ فردت شقّة جميلة. كنا لحظتها نقف في الحمام ونرى أنفسنا في المرآة.قالت سونيا وهي تضحك: زوجان رائعان في منزل جميل. استدرت نحوها وقبّلتها وأخذت أفكر بمنظرنا في المرآة، فبدت لي الفكرة أكثر جمالاً

من الواقع. أمسكت بشعر سونيا القصير وداعبته قليلاً ثم قلت: أنت تبدين أقرب إلى الشاب. فضحكت وسألتني إن لم أعد أحبّها فقلت: إنّ قليلاً من التغييرات تبعث على الفرح. وعندما اقتربت منها وحاولت أن أجعلها تخلع بلوزتها قالت: ليس الآن. وقد تولّد لدي الانطباع بأنها قد احمرت خجلاً. لهذا قالت: هيا، دعنا نذهب، فإنّ أبي وأمي ينتظرانني.

سبق لي أثناء مرحلة الدراسة أن دعيت إلى منزل سونيا، لكنّ كان ذلك يحدث، على الأغلب، في غياب والديها، أو من خلال لقاء عابر بهما يقتصر على السلام. لذا فإنهما لا يذكراني على الأرجح، ولأنني منذ أن ارتبطت بسونيا لم يجر بيننا أي لقاء، كنت أشعر بالحرج.

استقبلتنا والدة سونيا على باب المنزل، فقبلت سونيا، وصافحتني ونادتني باسمي العائلي. قالت سونيا لها: اسمه الأكسندر ويمكنك أن تدعيه أليكس. ثم اختفت والدتها، وذهبت إلى المطبخ ونحن نخلع معاطفنا.

في غرفة الجلوس كان والدها يقوم بتزيين شجرة عيد ميلاد ضخمة. التفت الرجل إلينا وقال: هل وصلتما؟ ثم صافحني وسألنا أَبعدنا نرغب في شرب شيء ما؟ كان الرجل يتصرّف ببساطة ودون رسميات، لكنني شعرت، مع ذلك، بعدم الارتياح. بعدها أخذتني سونيا لتعرفنّي على أرجاء المنزل.

كان المنزل قد بني في السبعينات. كانت الجدران نظيفة والسقوف عالية. أما الطابق العلوي من المنزل فهو مائل، ومكسّو بالخشب. أما بيت الدّرج المفتوح، فيفضي إلى غرفة معيشة واسعة ذات أرضية

مبلطة بالسيراميك وفيها موقد خشبي. أرتني سونيا غرفتها السابقة وغرفة شقيقتها كارلا، التي تدرس في أمريكا، ولم تأت للمرة الأولى؛ لتشارك الأسرة احتفالات عيد الميلاد. أشارت سونيا بيدها إلى سرير ضيّق وقالت: ستنام هنا، فنظرت إليه مستغرباً، دون أن أتفّوه بكلمة، فأغلقت عينيها، وقادتني إلى الطابق السفلي من جديد.

كان أبوها وأمها يقفان على الدرج وينظران إلينا بقدر كبير من الأمل. كانت هناك بعض الهدايا أسفل شجرة عيد الميلاد. قدم لنا والد سونيا كأسين من الشراب وبدأ الحديث ينساب ببطء بيننا، تحدثنا في البداية عن أنتشه، وكنت أتساءل في تلك الأثناء، ما الذي يمكن لهؤلاء أن يربطهم بلوحاتها؟ لكنّ المزاج العام لم يتحسن إلا بعد أن اتصلت كارلا من الولايات المتحدة الأمريكية فقد تجمع ثلاثتهم حول الهاتف وتحدثوا قليلاً مع تلك الابنة الغائبة، أخبرتهم أن الطقس جميل في كاليفورنيا، وأنّ من الرائع الاحتفال بعيد الميلاد تحت أشجار النخيل، فالأمريكان أناس صادقون في عواطفهم.

بعد انتهاء المكالمة وتبادل التهنئة بالعيد، بدأ الحديث بعدها عن أمريكا والأمريكيين، كنت الوحيد بينهم، الذي لم تتح له فرصة زيارة أمريكا، لكنّني شاركت في الحديث، ما أقوله منهم على ما يبدو، فقد قال لي والد سونيا إنّ لديّ صورة خطأ عن أمريكا، فعارضته فيما قال، فكان يمكن للشجار بيننا أن يقع، لولا أن تدخّلت والدة سونيا وانحرفت بالحديث إلى موضوع آخر.

كان المساء مليئاً بطقوس لم أستوعبها. ومع أنّ والدي سونيا كانا غير متدينيْن، إلّا أنّ الاحتفال جرى في ضوء خطة دقيقة تماماً. جرى

إشعال الشموع في شجرة عيد الميلاد، وقامت والدة سونيا بتشغيل أسطوانة تتضمن أغان أمريكية مبتذلة عن عيد الميلاد، وأطفأت النور في الغرفة. بقينا مدة طويلة جالسين على الأريكة نحدّق في الشجرة. بعدها تم إشعال المصباح الكهربائي وفتح الهدايا. كانت سونيا تتصرف كالأطفال وهو ما حزّ في صدري وآلمني. قالت والدة سونيا هذه الهدية لمنزلك الجديد. بعدها ناولتني سونيا صندوقاً كرتونياً خفيفاً، وهي تتأمل كيف سأقوم بفتحه: هذه الهدية منّي! كانت الهدية مجسماً معمارياً مصنوعاً بعناية لمنزل عائلي، ويقف أمام المنزل شخصان: رجل وامرأة. قالت سونيا: هذا سيتحقق ذات يوم. كنت أريد أن أقبلها على فمها في تلك اللحظة، لكنها أشاحت بوجهها فقبلتها على خدّها. هذه هي مخططات المنزل. قالت سونيا وهي تناولني دفتراً أسود مجلّداً مملوءاً بالرسومات، والمخططّات الكبرى. فعقب والدها بأن علينا أن نعمل ونكدّ؛ كي نتمكن من إنجازه.

بعد أن تناولنا العشاء، أعلنت سونيا بأنها مرهقة وتريد أن تنام. وعندما نهضت قالت: بأن في وسعي أن أبقى. استمرت سهرتي مع والدها مدة ساعتين حتى استطعت أن أتملّص منه، فقد كان له طابع تعليمي غير مريح.وهو يظنّ أن آراءه، التي تخلو من القيمة تماماً، هي الحكم الأكثر أهميّة في الحياة. فعندما كنت أتحدث عن الهندسة المعمارية، كان يبدو أكثر علماً بها منّي. لذا نهضتُ في منتصف واحدة من محاضراته وقلت: ينبغي أن أذهب إلى السرير. صعدت الدرج، وتلكأت أمام الغرفة المخصّصة لسونيا، لكنني لاحظت أن والد سونيا كان يتبعني وأشار إلى غرفة كارلا وهو يبتسم ببرود.

سافرنا صباح اليوم التالي إلى منزل والديّ في غار شنج. وهناك كان هناك احتفال آخر ومائدة طعام. لم أر والديّ منذ مدة طويلة، وكنت أتوقع أن يقوما بالاستفسار عن مسائل كثيرة، لكنهما لم يحدثاني إلا عن الجيران واحتفالات الخريف، مثلما تحدثا عن حديقة المنزل. كانت تلك هي الموضوعات نفسها منذ عشرين عاماً لم تتغيّر ولم تتبّدل.

رجعنا إلى شقّتنا عند المساء وذهبنا إلى السرير في الحال. عندما قبّلت سونيا، قالت بأنّ عليها أن تعتاد عليّ. فقلت: لا داعي للعجلة، ثم استدرت إلى الجهة الأخرى.

كان الطقس بارداً جداً في الأيام التي تلت، لكنّ الشمس أشرقت بعد ذلك. كنّا نتمشى في المدينة ونحن نرتدي الكثير من الملابس، ونلتقي بالناس، ونرتاد المقاهي. كانت سونيا قد أخبرت أصدقاءها وصديقاتها بأنها ستأتي في أثناء العطلة، فكان علي أن أستمع إلى الحكايات ذاتها عشرات المرات، وأن أحتسي كميات ضخمة من القهوة بالحليب.

التقينا ببيرغيت، التي أخبرتنا بأنّ تانيا قد أصيبت بالاضطراب، وأنّ ملامح مرضية قد أخذت تتبّدى في وسوسة النظافة لديها، فقد صارت ترتدي قفازات من السيليكون في المطبخ، ولا تقوم بلمس أية حافة من حواف الأبواب إلا بعد أن تقوم بتنظيفها، وهي لا تتحدث إلا عن القيم الإنسانية المسيحية، وتمطر الجرائد بوسائل مملوءة بالخطط، التي تتضمن سياسة صارمة في مكافحة المخدرات والإيدز. سألتني بيرغيت إنْ كان لدينا غرفة في شقتنا، فنظرت إليّ سونيا مستفسرة ، لكنني بادرت إلى الاعتذار، بأنه لا توجد غرفة فارغة يمكن تأجيرها.

سألتني سونيا عن أسباب رفضي ونحن ذاهبون إلى المنزل. فقلت

بأن بيرغيت لا ترتاح لي. فقالت سونيا بأن هذا مجرّد وهم. فقلت: الحق أنه لا توجد لديّ أدنى رغبة للعيش في سكن مشترك. أليس هناك استثناءات؟ سألتني سونيا. لعلها كانت تنتظر أن أقول لها إننا سنعيش معاً بعد رجوعها من مرسيليا، لكنني تجاهلت هذه الفرصة.

كانت سونيا لا تتوقف عن العمل ونحن في المنزل، وكنت أكتفي بمتعة أن نكون معاً. كنت أذهب إلى غرفة المكتب، أحياناً، وأبقى واقفاً على باب المكتب وعندما تسألني ما الأمر؟ أقول لها: لا شيء. لم أكن أرغب سوى في الاطمئنان على وجودها في المنزل، فتبتسم وتقول: أنا هنا طبعاً. هذا جميل أقول، وأعود إلى غرفة المعيشة، وأواصل القراءة.

في أثناء تناولنا لطعام العشاء، كنت لا أكّف عن الشكوى من وظيفتي. كانت سونيا تسألني: لماذا لا أبحث عن وظيفة أخرى؟ إنّ من الأفضل أن أسافر إلى الخارج. كانت تقول: ليست لدي الرغبة للسفر إلى الخارج، فأنا لا أتوقع شيئاً من هذا السفر. كانت سونيا تحكّ جبينها وتقول بأنها لا تدري إن كانت ستعود إلى ميونيخ، فكل شيء هنا مستهلك، أما المباني القديمة فإنها تصيبها بالكآبة. لماذا لا نذهب إلى بلاد مليئة بالعمران؟ يمكننا أن نذهب إلى الشرق أو إلى أمريكا. قلت: إنّ لغتي الإنجليزية رديئة تماماً. فقالت: بوسعك أن تتعلّمها، ولو أنك تقوم بتعلم الفرنسية، لكنا ذهبنا معاً إلى مرسيليا، فهناك حركة عمرانية مزدهرة فيها، والمدينة مليئة بالحركة والحيوية. قلت وأنا أهزّ كتفّي: لا أدري. لم تقل سونيا شيئاً بعد هذا الحوار، لكنني أحسست للمرة الأولى منذ أن ألتقينابأنني يمكن أن أفقدها، وقد شعرت بالراحة والخوف في اللحظة نفسها.

كانت سونيا تتحرك في أرجاء المنزل ببساطة وتلقائية، لكنّها كانت تبدو خجولة تماماً عندما نذهب إلى السرير كانت تحرص على أن تغيّر ملابسها دون أن أراها، وعندما أبدأ بتغيير ملابسي كانت تشيح بوجهها صوب الجدار، حتى لم تعد لديّ أدنى رغبة للاقتراب منها. وعندما كنت أسألها عن أسباب هذا، تردّ بأنها تحتاج إلى مدة حتى تعتاد عليّ. هذا كلام فارغ. قلت لها، فقالت يبدو أنك قد ابتعدت عني كثيراً. فسألتها ماذا تقصدين؟ فلم تزد على أن قالت: ضمني إليك بقوة.

ذهبنا عشية رأس السنة إلى الحفل، الذي سيقيمه روديغر في بوسن هوفن. وعندما غادرنا محطة القطار باتجاه منزل والدي روديغر قالت سونيا بأنها ترغب في أن يكون لها بيت هنا، ليس الآن بطبيعة الحال، ولكن عندما يكون عندها أطفال ومكتب هندسي. قلت: لم يبق لدينا إلا العثور على قطعة أرض مناسبة بالقرب من الشاطئ؛ لأنك قمت بتصميم مخطط المنزل. لم تتجاوب سونيا مع ملاحظتي بل قالت: بأنها تتمنى أيضاً أن تكون لديها شقة في مرسيليا. عندها ستمضي نصف العام هنا، والنصف الآخر هناك. هذا تخطيط حسن. قلت فقالت سونيا:

«حتى يتحقق الممكن لا بد أن نحاول المستحيل»[1] سريعاً أدركت مصدر هذه الجملة ذات الحكمة البلهاء. لكنّ الفكرة أعجبتني، فمن الجميل أن يكون لي أنا وسونيا منزل هنا. تخيّلت نفسي اقف خلف نافذة واسعة وأتأمل البحر وكأس النبيذ في يدي، وسونيا تقف إلى جواري بحريّة وانطلاق: نتحدث عن المشروع، الذي نعمل على

(1) ينسب هذا القول إلى الأديب السويسري الناطق بالألمانية هيرمان هسّه Hermann Hesse (1877–1962)، وهي حكمة ذائعة الصيت في الآداب الناطقة بالألمانية وذات سيرورة واسعة .

إنجازه. قلت: إنّ بوسعنا أن نشتري قارباً له موتور بل سنشتري يختاً في البحر الأبيض المتوسط. أجابت.

فتحت والدة روديغر الباب وحيّتنا بمودة وصدق. وقادتنا إلى غرفة المعيشة وسرعان ما ذهبت. كان روديغر ويعقوب واقفين على النافذة، يتحدثان بصوت منخفض، وبدا منظرهما مطابقاً للصورة، التي تخيّلتها قبل قليل، حيث كانت سونيا تقف إلى جواري. استدار روديغر ومشى صوبنا؛ ليرحب بنا.

في منتصف الغرفة نُصبت مائدة كبيرة مغطّاة بصفوف من الورق. قرأت البطاقات، فتبْدى أنني أعرف معظم أصحابها. قال لي روديغر: لقد باعدت بينكما في المقاعد. أيزعجكما هذا الأمر؟ كانت سونيا تقف إلى جوار يعقوب وراء النافذة. اقتربت منها ووضعت ذراعي على كتفها فلم تظهر على وجه يعقوب أية انفعالات. كان يعقوب يحكي لسونيا عن أطروحته ويكرّر المفردات ذاتها، التي قالها قبل أسبوعين لي. بعدها سأل يعقوب سونيا إن كانت قد زارت الغابة البافارية، وعندما نفت سونيا، ذلك قال بأنه سيسافر معها إلى هناك ذات مرة؛ ليريها المكان.

قرع جرس المنزل وظهر فرِدْي وسونيا. كما نزلت من الطابق العلوي فتاة شابة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل.

كان المدعوون في الحفل هم مدعوو الصيف المنصرم، لكنّ أجواء الاحتفال هذا بدت أكثر رسمية. فقد حرص الجميع على أن يتّجملوا ويحضروا الهدايا معهم.

انقسم الجميع إلى حلقات صغيرة، وبدأت الأحاديث جدية تدور

حول العمل ومخططاتنا في المستقبل؛ لذا تولد لدي الإحساس بأننا نمثل دور الناضجين.

تحدثت مع المرأة التي نزلت من الطابق العلوي، والتي كانت وحيدة بين هذا الجمع، فأخبرتني أنها من سويسرا. قلت: هذا لم يخطر ببالي على الإطلاق. فقالت وهي تضحك: إنها من الراين تال، إن كانت تعرف المكان. ثم أخبرتني أنّها تقيم على نحو مؤقت عند فرِدْي وتريد أن تتقدم بطلب لأكاديمية الفنون. كان منظرها يدل على أنها فتاة ريفية ساذجة، فقد كانت ترتدي سترة صوفية يدوية الصنع، وبنطالاً واسعاً على النمط الأفريقي. سألتها عن نوعية الفنون، التي تتقنها فهزت كتفيها وقالت: الممكن منها. لكنها الآن تعمل في مجال الخبز. سألتها ما معنى أنها تعمل في مجال الخبز؟ فقالت: الخُبز يعني الخبز. فقد كان والدها خبازاً محترفاً. واسمها إليزابيث.

قالت لي سونيا ونحن عائدون في التاكسي: إن قدرة يعقوب على الكلام الفارغ مذهلة تماماً. سألتها عن الموضوعات، التي خاض فيها يعقوب، فقالت إنه تحدث عن جلود البقر وقال بكل جدّية بأن هذه الجلود هي الزي المثالي للجسد الأنثوي. كان يعقوب ينظر إلى سونيا في تلك الأثناء وكأنه يريد أن ينزع عنها ملابسها حيث كانت تقف. فقلت:

ليس سيئاً أن تكوني زوجة لطبيب بيطري في الغابة البافارية. انقبض وجه سونيا فأردفتُ قائلاً:

ستنجبين له ثمانية أطفال، وتمسكين البقرة عندما يريد أن يحلبها، كما ستقومين برعاية والديه المتقَدمينْ في السن. فردّت بغضب: ما هذا

الخيال، الذي تقوم بنسجه؟ فقلت: من الواضح أنّ يعقوب متعلق بك وهذا ليس ذنبه طبعاً. وهو ليس ذنبي أنا، قالت سونيا، هناك الكثير من هذا النمط المجنون. وأنا أتمنى لو أنّ رجلاً غنياً يعشقني أو تبدو عليه مظاهر الغنى. فقلت لها: لكنّني أحبّك. سادت لحظات من الصمت بيننا، فنظرت إليها فبدت وكانّها تُعّد سؤالاً. تنفست الصعداء بعد ذلك وبدت على قسمات وجهها ملامح الارتياب وقالت: قل لي أتلتقي بالفتاة البولندية باستمرار؟ قلت: أراها بين الفينة والأخرى. وهل هي التي نسجت لك الكثرة الصوفية البشعة الملقاة في منزلك؟ فأطرقت برأسي. فقالت: لو أن أمراً حدث بينكما، لكنت أخبرتني: صمت قليلاً وقلت: وقع أمر ما بيننا. ماذا تعني؟ قالت. لقد بدأ الأمر بيننا قبل أن نرتبط معا . قلت. فقالت سونيا: ما هو هذا الأمر الذي بدأ؟ وعمّ تتكلم؟

بدا سائق التكسي غير مكترث بما يدور بيننا من حوار فقد فتح مذياع السيارة وشرع يصغي إلى موسيقى إلكترونية بليدة. بقينا نتحدث، مع ذلك، بصوت منخفض. قلت: لم يسبق لي أن نمت مع إيفونا على الإطلاق. لكنّ الأمر كان يمكن أن يتحول إلى فضيحة. وهو أمر لا أستطيع توضيحه. ثم قلت: لقد وضعت حداً للأمر وانتهت المسألة. لعلي صدّقت في تلك اللحظة ما أردت فعلاً أن أصدّقه. فقد كانت حكاية إيفونا لوناً من الغباء الكبير، ومن أجلها وضعت علاقتي بسونيا على المحك. بدت سونيا وكأنها لم تفهم ما قلت، وكانت تتأملني وكأنني إنسان غريب.

لم يسبق لي من قبل أن رأيت سونيا وهي تبكي ولم تكن تلك لحظة

جميلة ،كان وجهها يبدو وكأنه سيتحلّل، أما فمها فقد انقبض، وقد تلاشى حضورها تماماً، حاولت أن أضمها بين ذراعي، لكنّها زحفت نحو نافذة السيارة، وأشاحت بوجهها نحو الشارع. تمتمت سونيا بكلام غير مفهوم سألتها: ماذا تقولين؟ فقالت: لماذا؟ قلت: لا أدري مع أنها غير جميلة، ومملّة وغير متعلمة. لا أدري ببساطة.

في هذه الليلة تم التواصل الجسدي بيننا للمرة الأولى منذ قدوم سونيا إلى المدينة. ذهبت سونيا إلى غرفة النوم على الفور، دون أن تذهب إلى الحمام. تبعتها وشاهدت كيف كانت تخلع ملابسها على نحو يخلو من اللباقة. تبيّن لي أن سونيا قد تجاوزت بعض الحدود، فأسرفت في الشراب.

كانت تجلس على السرير وكتفاها معلقتان وشعرها منفوش، وعندما التفتت صوبي كانت عيناها تلمعان. بعد ذلك أدارت لي سونيا ظهرها. فشعرت بأنّ لها رائحة مختلفة عن رائحتها المعهودة. كان جسدها طرياً ومسترخياً، ودافئاً حتى الحُمّى.

بعد مدة استدارت نحوي وعانقتني وكانت تقبلني قبلاً محمومة وسريعة فوق معالم وجهي. وفي أثناء الليل ونحن مستلقيان معاً دون أن يمس أحدنا الآخر، سألت سونيا أن كانت تريد أن تتزوج: فقالت بنعومة من غير أن تشعر بالمفاجأة والإثارة:

دعنا نتحدث عن ذلك غداً.

لو لم يتم التواصل الجسدي بيننا في تلك الليلة، لما كنت قد أقدمت على طلب يد سونيا، ولكانت قد سافرت إلى مرسيليا، كما قدمت من هناك متأرجحة ومترددة. ولعلها كانت ستستقر في مرسيليا أو تذهب إلى بريطانيا أو أمريكا. وكنت أتساءل بعد ذلك، ترى ما الذي كان سيحدث لنا لو لم نتزوج؟ لكنّ سونيا لم تتهرب لحظة من قدرها، حتى في الأوقات الصعبة، التي تتكسر فيها الأشياء كلّها. كانت سونيا قد قررت الموافقة على الزواج في تلك الليلة أو قبلها بقليل وتمسكت بهذه الموافقة وتحملت تبعاتها.

نهضت وأخذت أتمشى بجانب البحر، وسألت نفسي في تلك الأثناء إن كانت انتشه على حق عندما قالت بأنّ العذاب هو الشكل الأقل قيمة للحب، لهذا فإنّها لم تواصل ذلك الحب! لكنّ ما جذبني إلى سونيا لم يكن حماساً عابراً ونشوة سريعة، فقد أمضينا معاً قرابة ثماني عشرة سنة، ولعل علاقتنا في تلك السنوات قد استمرت؛ لأننا لم نقترب من بعضنا البعض حقيقة. لكنني لم أكن متأكداً من قدرتي على أن أعيش وضعاً أغامر فيه بكل شيء من أجل لا شيء.

عدت إلى المنزل. كانت سونيا وانتشه ما تزالان جالستين على الشرفة وتتحدثان. قالت سونيا إنها تريد الذهاب إلى السينما هذه الليلة؛ كي ترى «حياة الآخرين»[1] وهو فيلم سبق لنا أن شاهدناه. لكنّ انتشه

(1) فيلم ألماني انتج عام 2006 وحصل على جائزة الأوسكار 2007، يتحدث الفيلم عن فترة ما قبل سقوط جدار برلين في ألمانيا الشرقية. ويقوم على تتبّع أحد كبار المسؤولين هناك لمفكّر ألماني شرقي متهم بالتحريض، وتوزيع المنشورات. يلاحقه المسؤول، لكنه سرعان ما يقتنع بأفكاره، فيبدأ بتضليل الأجهزة الأمنية حتى يكتشف، ويفصل، ويعمل ساعي بريد. بعد سقوط الجدار يكتشف المفكر هذه الحقيقة، ويحار كيف يشكر المسؤول السابق فلا يجد إلا تأليف كتاب يهديه له؛ ويحكي فيه عن بطولته.

قالت: اسمعي يا سونيا، إنّ عليك أن تبقى هنا وأن ترعي صوفي.

لم أعرف ما الذي يعجب سونيا بالفيلم، فقد بكت عندما شاهدناه للمرة الأولى وهو ما فعلته في فيلم «قائمة شندلر»[1] وهو أمر لم استطع كذلك أن أستوعبه.

جلست على الطاولة بالقرب من السيدتين، مع أنني كنت ألاحظ أنني أزعجهما. قالت سونيا: إنّ مادة الفيلم هي معين لا ينضب، وقد سبق لسونيا أن حدثتني للتو عن ردة فعل عائلتها عندما أحضرتْكَ معها إلى منزلهم. قلت: كان ذلك عشية الميلاد سنة تسع وثمانين، وأنا أتذكر ذلك بدقة؛ لأننا تجادلنا يومها طويلاً حول انهيار سور برلين. فقالت انتشه: لا بُدّ أنك كنت ضد انهيار السور، فقلت: لم أكن ضد انهيار السور تحديداً، لكنني ضد إعادة التوحيد بسرعة. فأنا اعتقد، أن الكثيرين منا كانوا يأملون في إنقاذ شيء من جمهورية ألمانيا الديمقراطية، كما أن شيئاً ما أيضاً كان عليه أن يتغير في الغرب، لكن والد سونيا واجهني بتجاربه في سنوات الحرب. لم يكن الأمر على هذه الشاكلة إطلاقاً، قالت سونيا. فقد كان والدي طفلاً أثناء الحرب. ثم قلت: وفوق هذا فقد سألني والداها الكثير من الأسئلة عن عائلتي، وقد كان من قبيل المعجزات أنهما لم يسألاني عن دخل والدي. ضحكت انتشه وقالت: لقد كان روديغر بالنسبة لهما أكثر ملاءمة، فوافقتها سونيا قائلة لقد رأى والداي أنك فظّ، وكان أبي يعتقد أنك اشتراكي. فقلت: وهو ما يزال يظن ذلك إلى اليوم، فليس من الصعب أن يتم النظر إليك في بافاريا على

(1) فيلم أمريكي أنتج عام 1933 يحكي قصة شندلر، الصناعي الألماني المسيحي، الذي أنقذ 1100 يهودي بولندي من القتل في المحرقة النازية .

أنك اشتراكي. وأنا كنت أظن أنني لم أكن مناسباً لابنتهم في رأيهم فقد كانوا يتمنون لابنتهم أن تتزوج شخصاً من محيطهم.

قالت سونيا: كان على الكسندر أن ينام ليلتها في غرفة شقيقتي فضحكت سونيا وسألت: وهل قمت بالتسلّل إلى غرفته؟ فنظرت سونيا نحوي وسألتني: هل قمت بذلك؟ لا، قلت، فأنت تتصرفين إلى اليوم وأنت بين والديك وكأنك فتاة صغيرة، احتجت سونيا وقالت لعلّها كانت تشعر بالتعب الشديد لحظتها. وهنا قالت أنتشه: إنها ما تزال تتذكر تماماً كيف جاءت سونيا إلى مرسيليا بعد أعياد الميلاد، وأنك قد قلت لها بأنك ستتزوجها. نظرت إلى سونيا، التي كانت تفرك جبينها وهي مستغرقة في التفكير، بعد ذلك وقفت وتنفست الصعداء وقالت: لقد أخذت أبرد بالتدريج فوق هذه الشرفة.

ذهبت سونيا وانتشه في حوالي السادسة إلى المدينة، فقد كانتا ترغبان في تناول بعض الطعام قبل الذهاب إلى العرض السينمائي. وضعت قطعة بيتزا، تحبها صوفي، في الفرن، وعندما بدأنا نأكل، جلست القطة إلى جواري، وأخذت تموء على نحو محزن. قفزت القطة إلى حجري، فأمسكت بها ووضعتها فوق أرض المطبخ وسألت صوفي: ألم تقومي بإطعامها؟ لم تجب صوفي فسألتها: ألا تسمعينني؟ نظرتْ صوفي إليّ بوجه غاضب وقالت: إنها لن تضع للقطة طعام العشاء هذه الليلة؛ لأنها تبرّزت فوق السرير، ولا بد من معاقبتها. حاولت أن أوضح لصوفي أنه لا يجوز أن يتعامل الإنسان مع القطة كما يتعامل مع الإنسان، لكنّها لم تصغ إلى ما أقول. فقلت بغضب: إذا لم تقومي بإطعام القطة، فلن تنالي طعاماً أنت الأخرى، ثم أخذت صحن الطعام من أمامها.

وقفتْ وصاحت واختفت في الطابق العلوي، أنهيت الطعام وأنا أشعر بالغضب جراء سلوكها معي. وضعت الطعام للقطة ثم ذهبت إلى صوفي، وقرعت باب غرفتها لكنّها لم تعر هذه الدقات أي اهتمام، فتركتها؛ لأنه لم تكن لديّ الرغبة للحديث معها. لكنّني عندما رجعت بعد ساعة وجدتها نائمة وهي ترتدي ملابسها.

ذهبت إلى السطح وبدأت أبحث عن الموديل، الذي كانت سونيا قد صممّته لمنزلنا، والذي سبق لها أن أهدته لي. كنت واثقاً إلى حد بعيد أنني سأعثر عليه في صندوق من الصناديق الخاصة بأيام الدراسة، لكنّ البحث عنه استمر مدة طويلة حتى تمكنت من العثور عليه. كان الموديل موجوداً إلى جانب الرسومات والمخططات الخاصة به في صندوق من الكرتون المقوّى. كان المنزل أصغر بكثير ممّا أعتقد ، وكان الورق قد أصفّر، أما المادة اللاصقة فقد بدأت بالتحلل؛ لذا سقطت الشخصيتان اللتان كانت سونيا قد وضعتهما عند مدخل المنزل، ووجدتهما في قاع الصندوق. كانت الشخصيتان من البلاستيك وهو ما كان يستخدم في كل النماذج المعمارية المصغّرة.

تأمّلت النماذج والرسومات والمخطّطات، كانت تأثيرات لوكوربوزييه تبدو ظاهرة للعيان. كانت قاعدة المنزل صغيرة، لكنه يتكون من ثلاثة طوابق، وشرفة عند السقف. تساءلت كيف ستكون الحياة في منزل هكذا، وهل ستتغيّر حياتنا لو عشنا فيه؟ فالمنزل، الذي نسكن فيه اليوم أكثر دفئاً وراحة، وإن بدا بيت الدرج ضيّقاً وسقفه مائلا. كان المنزل تقليدياً كيفما نظرت إليه، وتبدو عليه سمات التواضع والمناعة، وهي سمات تناسبني لكنها لا تناسب سونيا بالتأكيد، التي

قالت ذات مرة، إنّ عملنا هو لون من العبث، فنحن نشغل أنفسنا طيلة اليوم بتصميم عمارات رائعة الجمال، لكننا نعجز عن توفيرها لأنفسنا كما أن الناس الذين يمتلكونها لا يُقدرّون نوعيّة تلك المباني. أخذت الموديل ووضعته في غرفة المعيشة.

رجعت سونيا وانتشه قبيل منتصف الليل بقليل. لم تكن انتشه معجبة بالفيلم، أما سونيا فقد بكت ثانية. صنعت شاياً لنفسي واحتست المرأتان النبيذ. كان اللافت أنهما كانتا تتحدثان بسرعة على نحو يصعب أن أفهم كلمة مما يقال. كانتا تتحدثان عن الفيلم، لكن الانطباع نما لدي بأنهما تتحدثان عن أمر آخر. كانت انتشه عدوانية، وكانت سونيا تدافع عن ذاتها قدر استطاعتها. لم تكن على ما يرام وكان يبدو أن هناك شيئاً يشغلها. بعد مدة وقفتْ وأعلنت أنها ذاهبة لتنام.

رأت الموديل وهي في الطريق إلى باب غرفتها، فتناولته والتفتت نحونا وكأنها تريد أن تقول شيئاً. وقفتْ بفم نصف مفتوح للحظات، ووضعت الموديل بحركة فظّة وغادرت الغرفة.

استلقت انتشه على الأريكة، وأسندت ظهرها، وأخذت تتأملني بنظرة فاترة، وقالت: ماذا يعنيني من هذا كله؟ سألتها عن قصدها، لكنّها أشاحت بيدها وأردفت: لو أنني لم أقم بالوصل بينكما، لكان من المنطقي أن تصلا إلى بعضكما بعضاً، ثم إنّ ما قمتما به يخصكما وحدكما، فأنتما أحرار في نهاية المطاف.

تساءلت عن طبيعة ما حكته لها سونيا، وعن طبيعة الكلام، الذي دار بينهما. قلت: يبدو الأمر غريباً، وحدها إيفونا في هذه اللعبة، التي لم تقبل الحول الوسط، كانت تعرف منذ البداية ما تريد، وسارت في

الطريق الخاص بها، لكنّها لم تسعد كثيراً قالت أنتشه. فتساءلت من يدري؟ فقالت أنتشه: لكنّك لم ترو لي الحكاية إلى نهايتها. فقلت: لا أدري إن كان بوسعي أن أروي الحكاية إلى نهايتها، ما أستطيعه هو أن أواصل الحكاية. سكبت أنتشه لنفسها كأساً آخر وتطلّعت إليّ بفضول وترقّب.

حدثتها كيف بدأت ألتقي بإيفونا أثناء فترة التدريب الخاصة بسونيا. أعرف ذلك، قالت أنتشه، فقد حكت لي سونيا عنه.

كنت وحيداً، وكان غالبية أصدقائي قد غادروا المدينة، ولم يكن يعمل معي في المكتب سوى الأغبياء، وقد عشت متمزقاً بين هاتين المرأتين المجنونتين. فقالت أنتشه: إن أسوأ الأمور بالنسبة لسونيا، أنّ وجود البولندية صار أمراً حتمياً وهي لم تستطع أن تستوعب ذلك ولا تستطيع أن تستوعبه إلى اليوم. قلت: لقد أحبّتني. هذا صحيح، وهي ما تزال تحبّني إلى اليوم. وبدا هذا الحب وكأنه يحرّرني من الأسئلة كلّها. وقد سبق لك أن قلت لي في مرسيليا بأن عليّ أن لا أتوقع الكثير من سونيا، أما بالنسبة لإيفونا فأنا انتظر منها كلّ شيء، وكلما زادت نسبة توقعاتي منها، ازداد حبها لي ولكن لماذا سألت سونيا إن كانت ترغب في الزواج منك؟ سألتني أنتشه. لا أدري، أجبت، لعلي أردت أن لا أتحمل المسؤولية وحدي. تأوهتْ أنتشه بصوت عال. أضفتُ بأنني بعد أن انفصلت عن إيفونا، لم أعرف عنها شيئاً لعدة سنوات، ولا أستطيع أن أقول بأنني لم أفتقدها.

كانت تلك سنوات عجافاً. كنّا قد افتتحنا مكتبنا الهندسي، وصرنا نقبل كلّ العروض، التي تقدّم لها، سواء أكانت إعادة صيانة أم

أعمالا صغيرة تسهم في جلب المال أو الشهرة لنا، كما شاركنا في كل المسابقات، وحاولنا أن نقف في وجه أكثر من مائتي مكتب. كنا نعمل ما يقرب من ثمانين ساعة في الأسبوع، ولم نكن نعمل شيئاً سوى أن نعمل. لكنّ السنوات مع ذلك لم تكن رديئة، فقد كنا نعرف ما نريد. كنا ما نزال نسكن في شقة من ثلاث غرف في منطقة الشفابينج، وكان المكتب يحتل غرفة من بين تلك الغرف. كنّا لا نغادر المنزل لعدة أيام في بعض الأحيان، كان نومي رديئاً، وكنت أشعر بالإرهاق حتى الموت. عرض علينا والدا سونيا المساعدة، لكننا رفضنا. بعد ذلك استطعنا أن نظفر بمسابقة لبناء مدرسة في شمنيتس. لفت المخطط، الذي قدمناه الأنظار، بعدها حصلنا على مجموعة من العُروض. استطعنا أن نضع حداً للكبار، وأن نظفر بالبنايات الكبرى.

كانت سونيا هي الرأس المفكّر في المكتب، فكانت تضع معظم الرسومات، بينما كان عملي ينحصر في التنفيذ والإدارة. لم أفكرّ بسونيا إلا نادراً. فقد توقعت أنها عادت إلى بولندا من زمن طويل، عندما تلقيت منها رسالة.

جاءتني رسالة إيفونا في وقت غير مناسب على الإطلاق. كانت المشاغل تحيط بي من كل جانب، فهناك مبنى على وشك أن ينتهي، ولأن كل شيء كان يتعثّر، فقد كان معلم البناء لا يكف عن الاتصال بي جرّاء مسألة الضمان، وكانت هناك ندوة عن التنافسيّة ينبغي أن أستعد لها. أما سونيا فقد أصيبت يومها بصداع نصفي ألزمها السرير مدة أسبوع، ولم تكن تغادر سريرها إلا عندما آتي في المساء؛ كي تتناول بعض الطعام معي، وتعود إلى السرير من جديد.

كان البريد على مكتبي منذ الظهر، ولم أتمكن من رؤيته إلا عند المساء. لم تحمل الرسالة اسم مرسلها، وكان العنوان المكتوب عليها بخط لا مهارة فيه ولا أعرف صاحبه.

سحبت الورقتين من داخل المغلّف، وقرأت التوقيع. كانت إيفونا، فانتابني، على الفور شعور غير مريح. كانت السكرتيرة، غير موجودة، فذهبت إلى المطبخ، لأصنع قهوة لي. ثم رجعت إلى الطاولة وشرعت أقرأ الرسالة:

عزيزي الاكسندر، لعلّكم لا تستطيعون أن تتذكروني. بدا لي أنّ من العبث أن تخاطبني إيفونا على هذا النحو الرسمي، بعد كل ما جرى بيننا. طبعاً أنا أتذكرها وأتساءل أحياناً، عما جرى لها، لكنني لم أحاول البحث عنها. ثم كتبتْ: إنها تفكرّ بي كلّ يوم، وفي الوقت الجميل الذي أمضيناه معاً، وأنها كانت تريد الكتابة لي كثيراً كي ترجوني أن نلتقي، لكنّها علمت أنني تزوجت وهي لا تريد إزعاجي. ويبدو أنّ لديّ الكثير من الأعمال فهي تقرأ عن ذلك في الصحف؛ ولذا فإنها تفخر بأنها عرفتني.

بقيت طيلة شهر وأفكار عبثية تلاحقني، تتمثّل في وجود رغبة لدى إيفونا في ابتزازي، لكنها لا تمتلك ما يمكن لها أن تبتزني عبره، فسونيا تعرف عن علاقتي بها. وأنا لم أرها منذ الليلة، التي حدثت سونيا بحكايتها، ولم أذهب إليها وهي بدورها لم تسع للاتصال بي. صحيح أنني تصرفت معها على نحو رديء لكن ما فعلته لا يرقى إلى مستوى الجريمة.

ثم أضافت إيفونا إنها إنما تكتب اليوم؛ لأنّها تمرّ بصعوبات فما تزال تقيم في ألمانيا على نحو غير شرعي، وتكافح بهذا الأجر القليل الذي تكسبه، فهي تنظّف، وترعى الأطفال، وتترجم أشياء بسيطة لإحدى دور النشر المسيحية في بولندا. ومن الغريب، كما كتبتْ، أن هذا المبلغ القليل، الذي تجمعه كان يكفي، بل إنها تساعد والديها ببعض المال، الذين ساءت أوضاعهم بعد انهيار الكتلة الشرقية. غير أنها وقعتْ منذ عدة شهور فريسة للمرض، الذي أصاب بطنها. وليس لديها تأمين صحي. صحيح أنها تعافت، لكن التكاليف الباهظة قد تجاوزت إمكانياتها. وقد لجأت إلى الله وسألته النصيحة، فظهرتُ لها في المنام بوصفي واحداً من فاعلي الخير. ومع ذلك فإنها ترددت طويلاً قبل أن تطلب مساعدتي، وهي لن تزعجني بعد اليوم إن لم أكن قادراً على مساعدتها، فأنا لست ملزماً نحوها بشيء وهي من جهتها ستعد كل مساعدة أقدّمها لها لوناً من الإيثار، وستعيد المبلغ لي بأسرع ما تستطيع.

كانت صياغة الرسالة غير مريحة. كنت على ثقة أنّ أحداً صاغها لها، وقد تبدّى في الصياغة خليط من الخضوع والوقاحة، وهو ما كنت

ألحظه فيها من قبل. تخيلّت وجهها أمامي، وعليه ملامح التفاني، التي جعلتني اعيش مزيجاً من الشهوة والغضب.

وقعّتْ إيفونا باسمها الأوّل والأخير ودونّت عنوانها ورقم هاتفها، أخيراً أخفيت الرسالة وأطفأت جهاز الحاسوب وتوجهت نحو منزلي.

لم نكن قد تمكنّا من بناء المنزل الواقع على شاطئ البحر، الذي حلمت سونيا به، لكننا أقمنا، بدلاً من ذلك، في بيت عائلي في الجزء العلوي من منطقة توستنج. بعد ذلك صار بوسعنا أن نشتري المنزل، بعد وفاة إحدى عمات سونيا تاركة وراءها بعض المال. وفي أثناء مشاهدتنا المنزل للمرة الأولى، رأينا غرفة صغيرة ذات سقف مائل فقالت سونيا: بأن هذه الغرفة ستكون غرفة الأطفال. لم أعلّق بشيء لحظتها، بل تحدثنا معاً عن التعديلات المعمارية الضرورية، التي لا بد من القيام بها. لكنّ سونيا عاودت الحديث في الموضوع مساء، فقد صار الوقت المتبقي للإنجاب أمامها ضيّقاً؛ لأن الإنجاب محفوف بالمخاطر بعد الخامسة والثلاثين، وقررنا أن تتوقف سونيا عن تناول حبوب منع الحمل.

بعد مرور عدة سنوات على التخطيط بدأت حركة البناء في منطقة كيمنتس[1]، فاستأجرت غرفة في المدينة، وأقمت هناك طيلة أيام الأسبوع ولم أكن أعود إلى المنزل إلا في أيام الخصوبة عند سونيا، وهي أيام كنت أحرص على أن أعود إلى ميونخ فيها، مهما كان الثمن.

كانت سونيا على الرغم من جمالها، أو ربما بسبب هذا الجمال تشعر بالانقباض. فلم تكن مؤهلة؛ كي تترك نفسها على سجيتّها، وكان يبدو

(1) مدينة تقع في شرقي ألمانيا بولاية ساكسونيا Chemnitz وكانت تسمى أثناء الحكم الشيوعي في ألمانيا الشرقية مدينة كارل ماركس.

لي، أحياناً، وكأنّها ترقب ذاتها في أثناء التواصل الجنسي بيننا، وكأنه ليس لها من همّ سوى الحفاظ على وضعها، ويبدو أنه كان للقاءاتنا في أثناء فترة الإخصاب هذه أثر إيجابي على التواصل الجنسي بيننا، فقد كانت سونيا في تلك الليالي قلقة، سريعة الإثارة، تسرف في الشرب ولا تضع أيّ تعقيدات، بعد ذلك تطيل المكوث في غرفة الاستحمام، وعندما تجيء إليّ وهي ترتدي روبها الحريري، وتجلس على الكنبة إلى جواري، كانت تبدو وكأنّها تقدّم لي فكّرة تثيرني.

كنا في بعض الأحيان نتلاقى فوق الأريكة، فكان يبدو لي، أن سونيا تشعر بالإثارة وتنسى نفسها بالتالي للحظات. لكنني بدأت أتخلّى عن مثل هذه الأحاسيس عندما لم تحمْل سونيا، وفقدت الرغبة في مواصلة هذه اللعبة.

كانت برغيت، زميلة سونيا أثناء الدراسة وفي السكن الجماعي، قد فتحت عيادتها في تلك الأثناء، وغدت طبيبة سونيا النسائية، وأعدت لها قائمة بكلّ الفحوصات الضرورية، وأرسلتنا إلى أطباء من ذوي الاختصاص. بدا، من الناحية الطبيّة، أنّ كل شيء على ما يرام، لهذا نصحْت بيرغيت زميلتها سونيا أن تزاول عملها دون إسراف، لكننا لم نستطع أن نتقبل ذلك. لكنّ بيرغيت رأت أنّ الأمور ستتحسن وأن علينا ألا نسرف في التفكير في الأمر؛ لأنّ النتائج ستكون إيجابية في نهاية المطاف.

ذهبنا ثلاثتنا بعد انتهاء الموعد مع الطبيبة إلى إحدى الحانات، وبدأنا نتحدث عن تانيا.تقاسمت بيرغيت وتانيا، بعد رحيلي، المنزل لمدة سنتين. كان وسواس النظافة، الذي بدأته تانيا قد توقف في لحظة ما؛

لأنها صارت على وشك أن تصاب بالجنون. ثمّ اشتركتْ في الصحف القومية الألمانية، وصارت ترسل إليها كتابات تتضمن وجهات نظر في غاية التطرّف، لهذا لم يعد بوسعي أن أدعو أحداً إلى المنزل؛ لأنني صرت أخجل أن يرى الناس المرأة التي تقاسمني سكني. بدأت تانيا بعد ذلك تجنح نحو الشك المرضي، وانتهت إلى الشعور بجنون الاضطهاد، ثم رحلت إلى سويسرا بعد أن تزوجت من رجل يعمل معها في الهيئة ذاتها.

تحدثت سونيا عن البدايات اللطيفة في السكن الجماعي، ألا تتذكرين كيف كنا نطبخ معاً؟ لكن بيرغيت ألمحت أنّ تانيا كانت منقبضة منذ البداية، فقد كانت تتعامل مع المسائل بنظرة جنونية في جدّيتها، وكان لها نظرية ورأي في كل مسألة. كانت تانيا وثوقية إلى حد كبير. شأنها شأن كل المؤمنين. قلت: فقالت سونيا إنْ من العيب أن تقول ذلك، أما بيرغيت فقالت بأن الذين ينتهي بهم الأمر إلى الفرق والطوائف الفكرية ليسوا أشرّ الخلق، بل أنهم الباحثون عن أشياء تنقصهم، ولا يستطيعون أن يتعايشوا مع هذا الإحساس بالنقص، بعدها تتعلق قلوبهم بواحد من قادة تلك الجماعات، أو بأمر من الأمور غير المؤكدة، التي تمنحهم الأمان. فقالت سونيا: إن وجود علاقة ما قد يمنحك الإحساس بالأمان. فردّت بيرغيت، بأنّ المال يمنح صاحبه الشعور بالأمان فقلت بأن هدفي هو أن أظل اشعر بالخطر. فضحكت بيرغيت وقالت: إنّ الذي لا يستطيع التنازل عن حياة الرفاه، لا يتمكن من اختيار الحرية إلا على نحو ظاهري. فسألتها من قال ذلك. فهزت بيرغيت كتفيها وقالت: أنا لا أدري ، إن على الإنسان أن يكون قديساً.

سارت الأمور في المكتب الهندسي على نحو يفوق كثيراً ما بوسعنا أن نحلم به، وقد قمنا بتوظيف مزيد من الأشخاص، لكنّ الأعباء الملقاة على عاتقنا لم تتراجع. قالت بيرغيت: ليس بوسع المرء أن يتوقّف عن التخطيط لكلّ شيء. فردّت سونيا بأننا ما زلنا نمتلك الوقت، وإذا لم نتمكن من تحقيق ما نريد. فليس في مقدورنا أن نفعل شيئاً.

كنت، ألاحظ في تلك الأثناء، مقدار رغبة سونيا في الحصول على طفل، وصار ضميري يؤنبّني؛ لأنني لم أستطع أن أحقق لها ما تصبو إليه. لم نعد نتحدَّث حول الأمر، لكنّ سونيا صارت تذكرني، بين الفينة والأخرى، بأيام الخصوبة. وكان يؤلمني أنّ رغبتي نحوها ظلت خامدة لا تتنامى. وعندما انتقلنا إلى المنزل الجديد، استخدمنا الغرفة الواقعة تحت السقف مخزناً وإن لم تتوقف سونيا عن تسميتها غرفة الأطفال.

لم أكن قد ذهبت إلى المدينة بسيارتي في اليوم، الذي وصلتني فيه الرسالة من إيفونا، فقد كنت ذهبت في الصباح الباكر إلى ورشة التصليح؛ ليتم تركيب الإطارات الصيفية للسيارة. كان الطقس جميلاً في ذلك النهار؛ لذا سرت مشياً على قدمي بعد انتهاء العمل إلى محطة القطار وأنا أفكّر بإيفونا. كان تصوّري لبقائها في ميونيخ مدة سبع سنوات يزعجني. فقد مرّت تلك السنوات دون أن أراها مرة واحدة، وكان من المدهش أننا لم نتقابل طيلة هذه المدة الطويلة مصادفة في شارع، أو في حافلة ركاب، أو في محل تجاري. وكنت واثقاً أنني سأعرفها على الفور لو رأيتها. ومن يدري فلعل إيفونا تراقبني كما كانت تفعل في مقهى الحديقة! توقفت عند هذا الخاطر فجأة واستدرت إلى الوراء، فصاح الرجل، الذي كان يمشي خلفي واضطر للاحتكاك بي: غبي. لكنّني لم أجد لأيفونا أثراً.

كنت أنوي أن أحدّث سونيا عن الرسالة، وأن أسألها النصيحة لكنني لاحظت عند وصولي إلى المنزل أنّها ما تزال تشكو من الصداع، فقررّت ألاّ أفعل، حتّى تشعر بالقلق على نحو مبالغ فيه أو تجنح إلى الشك.

سأقوم بالاتصال بإيفونا واللقاء بها، إن كان ذلك ضرورياً، وإقراضها المال، شريطة أن لا يكون المبلغ المطلوب كبيراً، وبذلك تكون الأمور قد انتهت تماماً.

أخبرتني سونيا أنّ صحتها قد تحسّنت، وأن بوسعها أن تعود إلى العمل ابتداءً من صباح الغد، لدرجة أنها قامت بالطبخ. أخبرتها أنني سأجرى بعض الاتصالات الهاتفية، وذهبت إلى القبو حيث يوجد مكتب صغير يمكننا أن نعمل فيه.

أغلقت باب المكتب واتصلّت ببيرلاخ، فردّ علي صوت ذكوري، سألته عن إيفونا فقال: لحظة من فضلك. استمعت في تلك الأثناء إلى بعض الضجيج، وإلى بعض الأبواب، التي تتحرك وشيء من المهمات غير الواضحة. بعد ذلك حلّ الصمت، فأدركت أنّ إيفونا على الهاتف. أخبرتها أنني تسلمت رسالتها، فقالت إيفونا: إنني لم أرد. ماذا؟ قلت. فأكملتُ: لم أرد أن أطلب المساعدة منك. ثم حلّ الصمت ثانية. فقلت: سأنظر ماذا أستطيع أن أفعل، فأنا لا أسبح فوق بحر من المال. صمتت إيفونا. فسألتها إن كان بوسعنا أن نلتقي، عندها تناول الرجل سماعة الهاتف وقال بأنّ إيفونا كانت مريضة، وأنّ عليّ إذا رغبت في رؤيتها أن أمّر بها حيث تقيم. كان صوته يتسم بالبرودة والرفض، لكنني كنت سعيداً أنّ لدى إيفونا شخصاً يهتم بها.سألته: مع من أتكلّم يا ترى؟

فقال: هارتماير، أحد أصدقاء إيفونا.

ذهبت إلى إيفونا بعد ظهر اليوم التالي، أخبرت سونيا أنّ لديّ موعداً، فأطرقتْ وقالت بأنها ستعمل اليوم لوقت أطول؛ لأنّ العمل قد تراكم أثناء مدة مرضها.

كانت إيفونا تسكن في منزل مستأجر، شكّل جزءاً من مجموعة مساكن بلا معالم تعود إلى الستينات. كانت العمارات تقع على الشارع مباشرة، وفي وسطها مساحة خضراء مشجّرة وملعب مهجور. كانت واجهة المبنى قذرة، وإلى جوار المدخل هناك إشارات مبهمة، وباستثناء ذلك كان المبنى في وضع معماري جيّد يبعث على الدهشة. قرعتُ الجرس، فهبط الدرجات، بعد مدة من الزمن، رجل قويّ البنية، ذو شعر رمادي وفتح لي الباب. مدّ الرجل يده لمصافحتي وقال: أنا هارتماير، نحن بانتظارك. نظرت إلى الساعة فوجدت أنني قد تأخرت بضع دقائق. قادني الرجل إلى الطابق الثالث، فدخلنا شقة صغيرة مزدحمة. دقّ الرجل الباب ودخل، بقيت واقفاً في الممّر وكنت أصغي إليه وهو يقول بودّ كاذب يتجلّى في صوته: عليّ أن أذهب الآن ولكنّ هل أنت على ثقة أنك تسيرين في الطريق السليم؟ ثمّ خرج الرجل إلى الممر وفتح لي الباب وقال: عندما تذهب، أرجو أن تنتبه أن تغلقه خلفك.

دخلت إلى غرفة النوم. كانت الستائر مسدلة، لذا فقد استغرق الأمر ما يقرب من الدقيقة حتى تمكنت من رؤية إيفونا في ظلام الغرفة. كانت تجلس فوق أريكة قرب النافذة، في غرفة مملوءة هي الأخرى بالأشياء. كان الهواء في الغرفة ساكناً وساخناً جداً. اقتربت من إيفونا ومددت يدي مصافحاً. تبيّنت مقدار التغيّر، الذي طرأ عليها خلال تلك السنوات،

التي لم أرها فيها. صار وجهها منتفخاً وشعرها خفيفاً. كانت ترتدي روباً صباحياً قبيحاً مبطنّاً بلا لون محدّد، وجوارب بيضاء، وحذاء منزلي بلاستيكي، و بدت امرأة عجوز مع أنها لا تكبرني إلا بسنتين

لقد سبق لي أن عرفت جسدها بكل تفصيلاته، عرفت نهديها الثقيلين شبه النائمين، بطء حركتها وهي تتعرّى، سرّتها، الشعيرات القليلة الموجودة على ظهرها وما على جسدها من شامات ،عرفت رائحتها، وطعمها، وعرفت كيف يستجيب جسدها عندما ألمسه، كما عرفت أي الحركات، كانت مناسبة لها وأيها كانت ثقيلة عليها.لكنني عندما رأيتها جالسة، أدركت أنني لا أعرف عنها شيئاً، وأنها غريبة عنّي تماماً.

حدثتني بصراحة تامة، وعلى نحو يكاد يكون ممتعاً، عن العملية، التي أجريت لها. كانت الدورة الشهرية مصحوبة بنزيف قوي وطويل ومصحوبة بمغْص معوي. اكتشف الطبيب وجود أورام عضلية، لكنها كانت أوراماً حميدة، وبدلاً من أن تمضي سنوات طويلة تتناول الحبوب. أوصى الطبيب باستئصال الرحم والمبيض. إنها عملية روتينية، على حدّ قولها، حيث تتم عملية الاستئصال عن طريق المهبل، دون عملية جراحية.

كان أمراً مستغرباً أن استمع إليها وهي تحكي تلك المصطلحات الطبيّة. كانت تحكي عن جسدها وكأن الأمر يتعلق بآلة معطوبة. أخبرتني أنها لا تخاف من العملية الجراحية، لكنها لا تستطيع أن تنجب أطفالاً بعدها، وهذا ما يحزنها. قلت لها إنّ التفكير بإنجاب طفلٍ في سن الثامنة والثلاثين أمر متأخر بالتأكيد، لكنها لم تقل شيئاً.

هل تعيشين مع أحدهم؟ سألتها. فقالت بأنّ السيد هارتماير ليس

أكثر من صديق. وهي الآن في المنزل؛ لأنها تعاني من الأنفلونزا وهو يتفقدها جراء ذلك، سألتني إن كنت أرغب في شرب الشاي فلحقتها إلى المطبخ وتأملت كيف تغلي الماء وتخرج أكياس الشاي من الخزانة. كانت الطريقة، التي تتحرك بها، تبدو لعوبة بعض الشيء، ولم أجد كلمة أخرى يمكنني أن أصف بها ذلك. ومن يدري فلعلي الشخص الوحيد، باستثناء والديها وطبيبها، الذي رأى إيفونا عارية. لذلك نمت عندي الرغبة التي لا تقاوم، بأن أقوم بتعريتها. سرت وراءها وفتحت روبها وجعلته يسقط أرضاً. كانت ترتدي قميصا شفافاً وقصيراً، لعله القميص، الذي كان عندها من قبل. قمت برفع قميص النوم إلى الأعلى ونحيته عن جسدها، فاستدارت نحوي، كان وجهها خالياً من كل نوع من أنواع التعبير.

كدت أكون على ثقة أنّ إيفونا لم تُقم علاقة جنسيّة مع أيّ رجل، وأنّ هذا النفس المتصاعد واللاهث الصادر عنها يَدّل على الخوف أكثر مما يدل على الإثارة.

أدركت أنني أقدم على خطأ غير قابل للإصلاح، لكنّني كنتُ مخدّراً من قوة الرغبة. قدتها إلى غرفة النوم فاستلقت على السرير واستلقيت إلى جوارها.

مرة أخرى خطر ببالي أنّه صار لجسد إيفونا حياة خاصة به، وأنّ عريه يعني الانفصال عن شخصيته، وينطوي على ردود فعل غير متوقعة من خلال لغته الخرساء. فعندما كانت إيفونا تغلق عينيها ويبدو وجهها كوجه النائم كان جسدها صاحياً. يستجيب لكلّ لمسة، ولكل نظرة من خلال اهتزازات وارتعاشات، ومن خلال التوتر والاسترخاء، وهو ما

أثارني وصدّني في الوقت نفسه.

اتصلت بسونيا في الخامسة أثناء وجودها في المكتب وأعلمتها أنني سأتأخر وأنّ الاجتماع سيطول أكثر مما كنت أتوقع، وعدت بعد ذلك إلى غرفة النوم. كانت إيفونا ما تزال مستلقية، في وضع بدا لي خليعاً. فاستلقيت إلى جوارها فأغمضتْ عينيها من جديد.

كانت الساعة في حوالي السابعة عندما استطعت أن أخلّص نفسي منها. كانت هي في الحمّام في حين كنت أجلس فوق أحد الكراسي في المطبخ الصغير، وأنا أشعر كأنني قد تحرّرت. استمعت إلى الضجيج القادم من الشقة الموجودة في الطابق العلوي، وكان عليّ أن أفكر بهؤلاء الناس القاطنين هنا، بهذه الحشود من البشر، التي تملأ القطارات صباحاً، وتجلس مساء أمام التلفزيون؛ كي تزجي أوقات الفراغ، وتصاب بالمرض على حين غرة من جرّاء العمل الشاق ومن اليأس؛ نظراً لما تبذله من جهود. وقد سبق لألدوروسّي، ذات مرة أن وصف المدينة بأنها مستودع الموتى والأحياء، التي لم يتبّق فيها سوى بعض الرموز، وهي إشارة مبهمة إلى الناس، الذين سبق لهم أن عاشوا هنا ذات يوم. كنت أخاف بعض الشيء من هذه الجموع، التي لها ملامح، التي نقوم نحن ببناء المنازل لها، وكان عليّ أن أفكّر بالاحتفالات، التي نقيمها مع العمال عندما ننتهي من بناء أحد التجمعات السكانية، وكيف يتجمع هؤلاء العمال ويتعاملون معنا نحن أصحاب رأس المال، ومعلّمي البناء والمهندسين المعماريين باستخفاف. أما عندما كان يتسنّى لي أن أزور واحدة من هذه التجمعات السكنية، بعد مرور سنة، وأرى كيف تم الاستيلاء على المباني؛ ليتم نشر الغسيل على شرفاتها، ولتوضع

الدراجات الهوائية دون اكتراث أمام مداخلها، ولتتم زراعة بعض الزهور على نحو يخالف تماماً المفاهيم الطبيعية، فإنني كنت أشعر بشيء من الخوف، والإعجاب بالحياة النامية، التي تولّدت عن مشاريعنا ومن ذكرياتنا، التي ترعرعت هنا وتماهت مع المباني حتى صارت لا تنفصل عنها. في تلك اللحظة كنت أستوعب الجملة، التي تقول بأنّ المبنى لا ينتهي إلّا عندما يتهدم أو يتحول إلى أطلال.

لقد كنت أستمع يوماً إلى سونيا وهي تشرح للمشرف على المدرسة أسباب عدم استطاعتها القيام بتوسيع المواقف الخاصة بالدراجات الهوائية. وقد تحدثت يومها عن التناسب بين الشكل والجمال. تطلع الرجل إليها وهو غير قادر على أن يستوعب ما قالت ثم قال:

لكنّ الأطفال مضطرون لإيقاف دراجاتهم الهوائية هنا، أو في أي مكان آخر. عندها نظرت إليّ سونيا وهي تطلب النجدة، هززت كتفي وقلت: المشرف على حق. غضبت سونيا وهزّت رأسها، وغادرت المكان دون أن تتفوه بكلمة.

خرجت إيفونا من الحمام. كانت تبدو مرهقة فأخبرتها أنّ عليّ أنْ أذهب. سألتها وأنا واقف عند الباب عن تكلفة العملية فردّت بأنّها حوالي أربعة آلاف مارك. فوجئت؛ لأنني كنت أظنّ أن المبلغ أكبر من ذلك. أخبرتها أنني سأقرضها المبلغ وأنّ بوسعها أن تعيده لي عندما تتمكن من ذلك. قلت لها بأنني سأمّر بها؛ لأحضر المبلغ المطلوب، فردّت بأنها لا تغادر المنزل نهاراً وأنها تذهب للعمل في التنظيف مساء.

منذ ذلك اليوم صرت أرى أيفونا بانتظام، وصارت مشاعري نحوها تختلف عنها قبل سبع سنوات. لا أريد أن أزعم أنّ أيفونا صارت تهمّني

كإنسانة، لكنني تعوّدت عليها ولم أعد أجد العدوانية كما كان يحدث سابقاً. صرت أشرب شاي الأعشاب، الذي تشربه على الرغم من أنني لا أفضّله، وأتظاهر بأنّ قصصها المملّة تعجبني، وأروي، في بعض الأحيان، بعض الحكايات، التي تقع في المكتب الهندسي الخاص بنا، التي كانت إيفونا تستمع إليها دون أدنى إشارة من الاهتمام أو المشاركة.

كان الرابط الوحيد، الذي يشدني إليها هو الرابط الجسدي، وتلك الساعات البطيئة في غرفتها شديدة الحرّ، التي كنا نقضيها معاً ونحن ملتصقان، نتحرك ببطء، منفردَيْن ومجتمعَيْن. ذات مرة ذهبت إلى المرحاض فنامت إيفونا. فأخذت أتأمل جسدها ووجهها الذابلين، اللذين لم يعودا جميلين جراء هذا الاسترخاء، الذي يجلبه النوم في العادة. تساءلت لحظتها عن مسوغات وجودي هنا. ولماذا لا أستطيع الانفكاك عنها. عندها صَحَتْ إيفونا ونظرت في عينيّ، عُدت إليها وكأنني صرت مدمناً لا أستطيع الانفكاك.

سألتها عن ما فعلته طيلة السنوات، التي لم نلتق فيها، فبدا لي وكأنها لم تفهم المقصود بالسؤال. قالت بأنها كانت تعمل. وماذا غير العمل؟ ألم تكوني تلتقين بصديقاتك؟ هل سافرت؟ هل كان لك هواية في تلك الأثناء؟ كنت أزور، أحياناً، احتفالات البعثة التبشيرية البولندية. ردّت، كما أن لها ابنة عمّ تسكن هي الأخرى في ميونيخ، لكنها لا تكاد تلتقي بها. وهي تسافر مرة واحدة أثناء السنة إلى بوزن؛ لتزور عائلتها هناك.

بدا لي أنّ الدّين ما زال يلعب دوراً مهمّاً في حياة إيفونا، كما كان الحال قبل سبع سنوات، فهي تذهب إلى معرض الكتب بانتظام، كما أنها عضو في إحدى الدوائر الإنجيلية. وفي تلك الدائرة التقت

بهارتماير، الذي تسرف في الحديث عنه. كان هارتماير يعمل سبّاكاً، أما الآن، وبعد وفاة زوجته منذ بضع سنوات، فإنّ أحد أبنائه يتولى إدارة الشركة نيابة عنه. وقد سألتها ذات مرة ونحن نستلقي فوق السرير إن كانت قد أقامت معه علاقة، فأمسكت بيدي مثلما يمسك طفل يد أمه. فانحنيت صوبها وسألتها إن كان هارتماير عشيقها؟ فنظرت إليّ نظرة مليئة بالدهشة، وبخيبة الأمل في الوقت ذاته، لأنني شككت في مقدار إخلاصها.

إن السيد هارتماير ليس من هذا النوع. قالت. مثلي أنا؟ تساءلت . فقالت بأنّ برونو (اسمه الأول) يزورها في كثير من الأحيان، وهو يُحسّ بأنني قريبة منه إلى حد بعيد، لكنني أخبرته أن آمالي متعلقة بشخص آخر. تطلب مني الأمر بضع لحظات، حتى أفهم ما تريد، وكان يتوجّب علي أن أخبرها، أنني لا أريد منها شيئاً، وأنني لن أترك سونيا على الإطلاق من أجل خاطرها. لكنّ الفكرة بدت لي عبثية، فما معنى أن تتخلى عن كل ارتباطاتك من أجل امرأة لا تربطك بها سوى لحظات من الاستحواذ الجنسيّ! لكنني كنت أؤمن بأنني غير قادر على تغيير آراء إيفونا وإبعادها عن مواقفها الحاسمة، لهذا فضلت اللجوء إلى الصمت. كانت إيفونا، في غالب الظن، شديدة الإيمان بما قالت، فالقدر، هو الذي ربط بين خطواتنا، وجعل مشاريعنا تتلاقى وإذا كانت تظن ذلك عندما ساعدتها، فإنّ النتيجة لا تكاد تختلف. وقفت وراء النافذة وأخذت أتأمل الملعب المهجور. كان المطر قد نزل منذ أيام، وتشكلت مجموعة البرك الصغيرة. على الشرفة المقابلة كان هناك قفص ضخم للعصافير، مغطّى بقطعة قماش منقوشة، لعلها ستارة

قديمة. فتحت النافذة، فنما إلى سمعي صوت قطرات المطر، وضجة الماء المنهمر وصوت طائرة صغيرة. كان الوقت ما يزال في أواخر الربيع، لكنّ الناظر يرى وكأنه في فصل الخريف. استدرت نحو إيفونا وسألتها إن كانت حقاً لم تقم أية علاقة في أثناء هذه السنوات السبع. وما الذي سيحدث لو أنني لم أستجب لرسالتها؟ لكن إيفونا لاذت بالصمت.

بقيت أزور إيفونا أثناء النهار. كنت أتظاهر في البداية بوجود اجتماعات، لكنّ سونيا كانت تعرف مشاريعي، وكان علي بالتالي أن أفكّر بأشياء أخرى. كنت أعاني من أوجاع في الظهر تصيبني من حين لآخر، فزعمت بأنّ عليّ أن اتخذ إجراءات لعدم تكرار هذا الألم، انتسبت إلى أحد النوادي الرياضية الخاصة بالرشاقة. فصار بوسعي أن أمضي ساعتين عند إيفونا مرتين في الأسبوع دون أن أثير شكوك سونيا.

أحضرت المبلغ المطلوب الخاص بالعملية الجراحية لكنني لم أسال إيفونا أبداً إن كانت ستقوم بإجرائها، فقد عادت إلى العمل مجدداً، حيث بدأت تعمل طيلة النهار في تنظيف منازل خاصة. كانت أوقات عملها غير منتظمة، لذا كانت تعتذر لي عن عدم اللقاء في اللحظات الأخيرة أحياناً؛ لأنّ رب العمل يريديها على نحو مُلّح.

أخبرتْني ذات مرة أنها لا تجد وقتاً؛ لتلتقي بي في هذا الأسبوع، فقلت لها إنني على استعداد لأن أدفع لها أجرتها. لاذت إيفونا بالصمت. قلت لها: سأقوم بدفع المبلغ المطلوب. كم تريدين؟ كنت أعتقد أنها ستستاء مني، لكنها ردّت بأنها تتقاضى عشرة ماركات في الساعة. قلت: سأعطيك عشرين ماركاً في الساعة. كان ذلك لوناً من الدعابة

الخبيثة، لكنني صرت أعطيها المبلغ المطلوب عندما نفترق. ولأنني لم أعرف البغايا على الإطلاق، فإنّ دفع المال مقابل الجنس كان يمكن أن يصيبني بالألم. لكنّ دفع المال لإيفونا بدا لي أمراً مختلفاً. فلم يكن هذا المال مقابل تقديم خدمات. فإيفونا تخصّني، وامتلاكي لها، كما كنت أسوّغ لنفسي، يعود لأنني أرعاها واهتم بشؤونها. لا ادري بعدها ما الذي جرى لي، فقد بدأت أصدر لها تعليمات وأعطيها المال مقابل تنفيذها. كنت أخبرها أنني سأعطيها خمسين ماركاً إن فعلت كذا. ولعّل هذا كان لوناً من الرغبة في تحقير ذاتي وإهانتها.

لم تكن إيفونا تبدي اعتراضها حتى لو كان العمل، الذي أطلبه منها يؤلمها، فقد كانت تفعل كل شيء، بصرف النظر عن المبلغ، الذي أعرضه عليها، ثم تتناول المبلغ بملامح لا مبالية ومن غير أن تقوم بعدّه.

صرنا نلتقي قبل الظهر مرتيّن في الأسبوع في مواعيد محددّة بدقّة. كانت إيفونا تنتظرني في المنزل، ولأنها لم تكن قد ذهبت للعمل بعد، فقد اعتادت أن ترتدي روبها الصباحي، وأنّ تقدّم لي شاي الأعشاب حتى اضطررت لإهدائها آلة لصنع القهوة. كنت أتناول فنجان الأسبرسو واقفاً، بينما كانت إيفونا تجلس إلى طاولة المطبخ وهي تتأملني بتساؤل، فأعبّر عما يجول في خاطري؛ لنذهب بعدها إلى غرفة النوم أو إلى غرفة المعيشة أو إلى الحمام.

كان الصيف في ذلك العام ماطراً على نحو غير طبيعي، وكانت المدينة تعيش حالات من الضباب الرطب الدافئ وكأنها بيت زجاجي. وعندما كنت أستلقي إلى جوار إيفونا على السرير، كانت تصيبني حالة حادة من الخمول، فأجسامنا، التي تتصبّب عرقاً كانت تبدو وكأنها

تتحول إلى كائنات منفصلة تتحرك ببطء كالنبتة المائية، التي تنمو في تيار غير مرئي. وكنت في بعض الأحيان أمر في حالة من الوَسَن، فتضطر إيفونا لإيقاظي لأن الوقت شارف على الانتهاء، عليك أن تذهب، كانت تهمس في أذني، عندها أنهض وأذهب لأمشي تحت المطر، لأبدأ لحظتها باستعادة ذاتي.

كنت أنتظر أن أسأم من إيفونا ذات يوم وأن أستطيع التحرر من علاقتي بها. لكنني لم أستطع ذلك على الرغم من أن العلاقة الجنسية معها لم تعد تهمني كثيراً، فكنا نقتصر في اللقاءات على تبادل الأحاديث. لم تعد الشهوة هي ما يربطني بها. بل صار الرابط لوناً من المشاعر، التي لم أعد أحس بها منذ طفولتي. وهي مشاعر تمزج بين الشعور بالأمان والحرية في الوقت ذاته.

كان الوقت، الذي أمضيه مع إيفونا يبدو بطيئاً لا يكاد يتحرك، لكنّ هذا هو ما كان يكسب تلك اللحظات وزنها.

كنت أريد أن احقّق أنا وسونيا أشياء، لكننا لم نتمكن من ذلك، كنّا نريد أن نبني منزلا، وأن ننجب طفلاً، وأن ننحيّ الآخرين جانباً، وأن نشتري سيارة ثانية. لكننّا ماكنّا نكاد نحقّق هدفاً ما، حتى يبرز هدف آخر، لذا لم ننعم بالهدوء في حياتنا.

أما إيفونا فكانت تبدو إنسانة بلا طموحات. فلم تكن لديها مواعيد، وكانت حياتها تسير ببساطة وانتظام؛ فهي تستيقظ صباحاً وتتناول إفطارها، وتمضي إلى عملها. كان يومها يتحدّد من حيث الجمال والرداءة بناء على أشياء صغيرة؛ كالطقس والكلمات الودودة في المخبز، أو في المنزل، الذي تقوم بتنظيفه، أو بناء على اتصال هاتفي

من إحدى صديقاتها؛ لتذهبا معاً إلى مقهى لشرب القهوة أو إلى دار من دور السينما.

كنت أشترك معها في هذا النمط من الحياة عندما أذهب إليها، لأمضي ساعة في منزلها وأحرص على أن أنسى ضغط المواعيد والطموح ومشكلات البناء. ثم صار للجنس سمات أخرى مختلفة، فلم تكن إيفونا ترغب في إنجاب طفل، ولم يكن يتوجب عليّ أن أقوم بإسعادها. فقد كانت تتقبلني دون توقعات أو متطلبّات.

ظلت إيفونا تُعبّر عن توقها للحياة الأكثر جمالاً من خلال قراءتها للروايات الركيكة، ومشاهدتها للأفلام التلفزيونية، التي تنتهي نهاية سعيدة. وكنت أتساءل ما الذي ستشعر به إيفونا لو أنها توقفت عن القراءة وعن متابعة هذه الأفلام. فمنذ سنوات لم أقرأ أية رواية، لكنني ما أزال أتذكر، عندما كنت طفلاً، القصة التي أكملت قراءتها في وقت متأخر ذات ليلة شتائية ماطرة.

كنت أستشعر اليقظة، وأحسّ أنّ الأشياء كلّها تبدو أكثر وضوحاً. أما الوقت فكان يمر ببطء قياساً إلى زمن السرد. كنت أحبس أنفاسي وأصغي وأنا أعرف، أنه لم يكن هناك ما أصغي إليه، وأنه لم يقع شيء ولن يقع شيء. كنت أحس بالأمن وأنا أستلقي آنذاك فوق السرير، وأتأمل الأفكار مجدّداً وأعود إلى القصة، التي صارت ملكي، التي لا نهاية لها، التي نمت وكبرت وتحولت إلى عالم مستقل.كان ذلك العالم واحداً من عوالم كثيرة اعتدت أن أعيش فيها، قبل أن أتمكن من بناء عالمي الخاص والتخلّي عن تلك العوالم.

لم تكن علاقتي بإيفونا منذ بدايتها أكثر من حكاية، تبني لي عالماً

موازياً يخضع لإرادتي، وأستطيع أن أذهب إليه متى أشاء وأغادره عندما آخذ منه ما يكفيني.

ولعل علاقتنا شكّلت لإيفونا كذلك نوعاً من أنواع الحكايات. فقد كنت كثيراً ما ألحظ أنها لا تكاد تحكي عن ذاتها، كما كان يتبّدى لي أنها لا تقدّر كثيراً مجتمعي، الذي أتحرك فيه، قياساً إلى محيطها، الذي يستحق الاحتقار. وكان يبدو وكأنه لا يهمها شيء سوى لقاءاتنا السرّية.

كنت أستطيع أن أتفهم مشاعر إيفونا، فأنا أيضاً أتحرك في وسط لا أنتمي إليه، لكنني، على خلافها استطعت أن أنظم أموري إما بسبب الجُبْن، أو بسبب الانتهازية.

فالاحتفالات العائلية المقرفة في منزل والديْ سونيا، وحفلات المسرح والكونسرت والسهرات الرجالية، التي لا تتحدث إلا عن السيارات، تنتمي كلها إلى عالم مختلف. لهذا فقد كنت أرنو إلى البيئة البرجوازية الصغيرة الخاصة بطفولتي، بما كانت تنطوي عليه من قواعد ومشاعر بسيطة. فما كان يبدو لي آنذاك قيوداً، صرت أراه اليوم سليماً وواقعياً. لذا كنت أبدو على حقيقتي عندما أذهب إلى بيت أبي وأمي ولا أسعى لأكون أحسن مما أنا عليه. فوالداي يميلان إليّ بوصفي إنساناً لا مهندساً معمارياً صارت له إنجازات مهمة. لهذا كانت مشاعرهما أكثر حساسيّة من والديْ سونيا، فهما يعرفان على الفور عندما لا تكون أموري على ما لا يرام. صحيح أنّ المنظومة الأخلاقية لديهما ضيقّة ،لكنهما يتفهمان طبيعة الضعف الإنساني، وعلى استعداد للصفح عن هذا الضعف. وقد كنت على ثقة أنّهما سيحبّان إيفونا، وسيعاملانها وكأنها واحدة من الأسرة. وهو ما لم يحدث في علاقتهما بسونيا، فلم

يحدث أن تعاملا معها بدفء، حتى لو لم يعترفا لي بذلك. وقد كنت على وشك أن أتحدث مع أمي حول إيفونا، وكنت على قدر من الثقة أنها ستتفهمّني، حتى لو أنها احتقرت تصرفاتي. لم أخبرها بالأمر، ليس لأنني أخشى نصيحتها. بل لأنني أعرف تماماً ماستقول .

أقمت في أثناء السنوات السبع، التي قضيتها مع سونيا، علاقتين سريعتين، كانت الأولى مع إحدى المساعدات في مكتبنا، أما الثانية فمع إحدى الجارات، التي كنا نرعى طفلها في بعض الأحيان. كما أنّ سونيا هي الأخرى أقامت علاقات خاصة بها. وقد اعترف كلّ واحد منا للآخر بعلاقاته، صحيح أنّ ذلك قد ترك جراحاً في نفس كل واحد منا، لكنّ علاقتنا غدت أفضل، أو لعلها صارت أكثر استقراراً. غير أنني لم أستطع أن أعترف لسونيا عن علاقتي مع إيفونا. فقد بدت لي أنها علاقة توجد في عالم له قوانينه المختلفة، التي تختلف عن القوانين السائدة في عالمنا. فلم يكن بوسعي أن أشرح لسونيا طبيعة تصرفاتي، لأنني عاجز أن أقنع بها نفسي.

سألت ذات يوم إيفونا إن كانت ستعود إلى وطنها، فردت بالنفي وقالت بأنّ عليها أن تبقى هنا. لم أسألها عن السبب، لكنّني أعترف أنني شعرت بالراحة.

كان قد مضى على اللقاءات بيني وبين إيفونا قرابة ستة أشهر عندما اتصل بي هارتماير في المكتب. لم أعرفه إلّا عندما أخبرني بأننا قد تعارفنا عند إيفونا. سألني إن كان من الممكن أن نلتقي وجهاً لوجه. تواعدت معه، على غير رغبة، واتفقنا أن نلتقي في مقهى قريب من مكان سكن إيفونا. فوافق الرجل وقال بأن المقهى يكاد

يكون فارغاً وكأنه ينوي التخطيط لمؤامرة.

كنا يومها في تشرين الثاني والمطر لم يتوقف عن الهطول منذ أيام. لكنّه توقف عند الظهر. بعدها صار الجو بارداً وبدأت تنتشر رائحة الثلج في الأجواء.

كان الظلام قد أوشك أن يهبط على المدينة عندما صرت خارج المقهى. وقد استطعت أن أتبين من خلال زجاج المقهى الخارجي هارتماير وأمامه قدح شبه فارغ من البيرة. كان الرجل هو الزبون الوحيد في المقهى، ويتبادل الكلام مع النادل.

سرت إلى حيث يجلس، فوقف وصافحني على نحو رسمي. طلبت من النادل أن يحضر لي شيئاً؛ لأشربه، ثم جلسنا متقابلين كلاعبْي شطرنج. رشف هاتماير رشفة من قدحه، وتأملني صامتاً حتى سألته عن أسباب طلبه للقاء بي؟ فردّ: لقائي بك بسبب إيفونا. كانت تقاسيم وجهه مملوءة بالخيلاء، وهو ما أدخل الريبة إلى قلبّي. قلت لنفسي: هذا ما فكرّت فيه من قبل. صمت الرجل من جديد ثم قال:

إنّ الشأن الذي سيتحدث فيه حسّاس، وهو لا يرغب أن يتدخل فيه لكنّه يجد أنّ معاملتي لإيفونا ليست سليمة. سألت نفسي عن مقدار ما يعرفه، ولم يكن لدي الرغبة؛ لأثق فيه فسألته من أجل كسب الوقت: ماذا تعني؟ فقال وهو يتنهّد: إنها تحبّك. فهززت كتفي. فأضاف بصوت قادم من الأعماق: لقد انتظرتْك سبع سنوات كما انتظر يعقوب راحيل.

تذكرت الحكاية على نحو مُشوّش، لكنّ ما كنت أعرفه أن يعقوب قد عرف بعد سنوات أنه تزوج المرأة الخطأ. قال هارتماير: إنّها ليا،

وكان عليه أن ينتظر سبع سنوات أخرى. لم أتمكن من فهم مُراد هارتماير. فأوضح بعد ذلك: سواء انتظرتك إيفونا سنة أو سبع سنوات أو أربع عشرة سنة فلا فرق. إن الأمر يشبه الحبّ للمُخلّص فهو لا يتناقص، بل على العكس، يتنامى. قلت: إنّ مشاعر إيفونا مسألة تخصّها وحدها. وماذا عنك؟ سألني. قلت: لا اعتقد أن هذا أمر يخصك. فقال: لعلك لا تدري أنّ إيفونا قدّمت الكثير من التضحيات من أجلك. فقد خالفت معتقدها، الذي يحرّم إقامة علاقة جنسية خارج الزواج، وأقامت علاقة معك وأنت رجل متزوج.قد يبدو ذلك لك أمراً صعب الفهم، لكنّ إيفونا ضحّت بسلامها الروحي من أجلك. قلت: إنها حرّة في أن تفعل ما تشاء. ورأى الرب أنّ ليا مكروهة ففتح رحمها[1]. قال هارتماير: فأدركت على الفور السبب، الذي دعاني الرجل من أجله. بعدها صمت هارتماير، وبدت على وجهه سيماء انتصار غير معلن. انتظر الرجل بعدها حتى أقول شيئاً، لكنّ ما كنتُ أستشعره كان يستعصي على الوصف. أصبت بالصدمة، وارتفعت نبضي وشعرت بالغثيان، لكنني شعرت في الوقت ذاته بالطمأنينة وبنوع من انشراح الخاطر. رأيت من الضروري أن أتحدّث مع سونيا، صحيح أنها لن تتقبل المسألة بسهولة، وقد يؤدي ذلك إلى انفصالها عنّي، لكنّ كل ذلك بدا غير مهمّ في هذه اللحظة.

إيفونا حامل. قال هارتماير. قلت: أعرف. دون أن أبخل عليه بالنصر الذي أحرزه. تأملني وملامح الدهشة تعلو وجهه. وقال: أنت لا تستطيع أن تطلب منها المزيد. قلت بأنني لا أطلب منها أي شيء

(1) اقتباس حرفي من سفر التكوين، الإصحاح، 31/29.

على الإطلاق، فقال: سيكون ذلك خطيئة. فقلت: سواء أكانت المسألة خطيئة أم لا، فهذا أمر لا يعنيني؛ فأنا لا أريد لها أن تقوم بالإجهاض.

رافقني هارتماير في الذهاب إلى إيفونا. كان الرجل يغذّ الخطى، وكنت عاجزاً عن اللحاق به على الرغم من أنه ضئيل الحجم قياساً بي. شعرت في تلك اللحظات بالبرد أكثر من ذي قبل. ولعل هذا الإحساس يعود إلى ما كنت أشعر به من إثارة، وانعدام الإحساس بالأمان. قمت برفع الجاكيت إلى الأعلى وأخذت أعدو خلف هارتماير، الذي توقف عند باب المنزل، الذي تقيم فيه إيفونا وأعلن أنه لن يصاحبني في الصعود إلى شقتها. دقّ الرجل الجرس، فاستمعنا إلى ضجيج قادم من الإنتركوم. انحنى هارتماير على فتحة الإنتركوم وقال بنبرة تآمرية إنه هنا، ففتح قفل الباب في الحال بقوة أجبرتني على الارتعاش. دفع هارتماير الباب، وصافحني وانحنى وكأنه يريد تشجيعي.

كانت إيفونا تنتظرني بابتسامة متكلّفة. فخطر على بالي بأنها تبدو كالعروس. جلسنا في الغرفة الصغيرة، فقامت إيفونا بصنع الشاي وأحضرت كأسين لي ولها. ارتشفت رشفة سريعة من الكأس، فشعرت بأنّ فمي قد أصيب بلدغة قوية. قلت لها بأن هارتماير أخبرني أنّك حامل. فأطرقت، وهو ما لم أضعه بالحسبان. تأملتني لحظتها بقدر كبير من الأمل، وبقليل من الخوف. قلت عندها: إنني أعي، أنّ الإجهاض بالنسبة لها مسألة غير واردة على الإطلاق، وسأقوم، طبعاً، بالاعتراف بالطفل وبرعايته قدر استطاعتي. لكنّ عليك أن تعلمي أنّ من الصعب أن تقومي وحدك بتربية الطفل ورعايته. بدا على وجهها تعبير مملوء بالرعب؛ لأنها اعتقدت بجدية مطلقة أنني سأترك سونيا من أجلها.

قلت: إن هناك عدة خيارات، فلعل من الأفضل بالنسبة للطفل أن ينمو في محيط سليم وليس عندها؛ لأنها في نهاية المطاف تقيم في البلاد على نحو غير قانوني. وسأقوم بالحديث مع زوجتي حول هذا الأمر، فالطفل هو طفلي في نهاية المطاف. ظلت إيفونا صامتة ولم تقترب من الشاي ثم أردفت بأنّ عليها أن تفكرّ في الأمر، فما يزال لدينا الكثير من الوقت.

كانت الفكرة قد خطرت على بالي في أثناء الحوار مع هارتماير، مع أنّ هناك لوناً من الإساءة البالغة لسونيا أن تتولى هي تربية الطفل، الذي أنجبته عشيقتي. لكنّ سونيا امرأة عاقلة وهذا الحل هو الأفضل للجميع، وبخاصة أننا قد سبق لنا أن تحدثنا عن إمكانية تبني أحد الأطفال.

لم أستعجل فهناك وقت أمامي، فقد كانت إيفونا في شهرها الرابع، وكان من الممكن أن تفقد جنينها، فتغدو المسألة بكل ما تنطوي عليه من إثارة بلا معنى. بقيت أزورها وأتواصل معها على المستوى الجسدي، وبدأت ألاحظ كيف بدأ بطنها ينتفخ. صارت إيفونا أكثر صمتاً من السابق، فلم تتحدث أبداً عن حملها ولا عن مخططاتها عندما تلد طفلها. كانت تتوجّع في بعض الأحيان، فتلمس الصليب. وعندما ذهبت ذات مرة إلى المطبخ؛ لإحضار كأس ماء، رأيت صورة أشعة، يبدو فيها كائن منحنٍ على خلفية سوداء، لكنني لم أكن أتخيل أن تكون هذه الصورة لطفلي.

كنت أحرص على تأجيل الحوار مع سونيا، ثم قرّرت أخيراً أن يجري الحوار بيننا بعد نهاية أيام العطل. أمضينا عطلة عيد الميلاد عند والديها، ثم سافرنا بعدها بضعة أيام إلى الجبال؛ كي نستريح. كان كلٌّ من فرِدْي وأليس قد نصحانا أن نسكن في الفندق الذي نزلا فيه، الذي

يقع في مكان شبيه بالقلعة، في واد منعزل بالقرب من غارميش. كان فرِدْي وأليس سيجيئان أيضاً؛ ليقيما بضعة أيام، فقد كنا لم نلتق معاً منذ وقت طويل. تولد لديَّ الانطباع بأن سونيا فرحت باللقاء أكثر بكثير مني. كنا قد ذهبنا إلى المكتب صباحاً؛ لإنجاز بعض الأعمال بسرعة على أن نسافر إلى ميونيخ بعد ذلك كما كنا قد خططنا. اتصل بي فرِدْي على الهاتف النّقال أثناء الطريق، فأعطيت الهاتف لسونيا، التي تحدثت معه.

ضحكت سونيا عدّة مرّات أثناء الحديث معه، وقالت: إلى اللقاء. أخبرتْني بعد انتهاء المكالمة بأنّ فرِدْي وأليس سيجيئان متأخرَيْن يوماً واحداً عن موعدهما، إذ يبدو أن لدى فرِدْي الكثير مما ينبغي إنجازه. فقلت: هذا مناسب تماماً لي.

وصلنا إلى الفندق قبل مدة قصيرة من تناول طعام العشاء، وقد تبقّى لنا بعض الوقت؛ كي نتمكّن من حجز الغرفة الخاصة بنا، قبل أن نستمع إلى الجرس يدّق؛ ليعلن عن بدء تناول الطعام.

في صالة الطعام رأينا الكثير من العائلات تصطحب أطفالها، الذين يرتدون ملابس جميلة ويجلسون بقامات منتصبة على كراسيهم ويتحدثون مع أهاليهم بصوت منخفض.

ارتسمت على وجه سونيا، حالاً، الملامح التي اعتدت أن أشاهدها عندما ترى الأطفال، وهي ملامح تجمع بين البهجة والحزن الهادئ.

كان موعد نزول البويضة عند سونيا قد مرّ قبل أسبوعين، وقد وضعت دائرة حول التاريخ في التقويم الموجود في المطبخ، لكنني وصلت إلى المنزل متأخراً عن الموعد، الذي كنت قد نويت الرجوع

فيه، فوجدت سونيا نائمة. فكرّت إن كان من الأفضل أن تصحو أو تبقى نائمة ثم قررت تركها نائمة.

منذ اللحظة الأولى شعرتُ بعدم الراحة في الفندق، أما سونيا فقد أعجبها. فالفندق هو ملتقى الطبقة الاجتماعية، التي تنتمي إليها، وهم أناس يتفاخرون بغناهم، ويتعاملون مع طاقم العمل بقدر من المرح على نحو يؤدّي إلى استخفافهم بهم.

كانوا يتظاهرون بأنهم يلعبون لعبة بعينها، لكنهم يراقبون أنفسهم والآخرين معاً. بعد ذلك هرج أبناء الطبقة الراقية المثقّفة إلى الصالة الكبرى الخاصة؛ للاستماع إلى موسيقى الحجرة[1]، كانت سونيا حريصة على أن لا يفوتها الحفل الموسيقي، كما أخبرتني. فقلت: أرجوك أريد أن أخرج وأتنفس هواءً نقياً وإلّا فإنني سأختنق. تطلعت إليّ بنظرات خائفة وكأنني قد وقعت للحظات في الهاوية، لكنها سرعان ما استعادت طبيعتها وقالت بأنها تعاني من الصداع، وربما يعود ذلك إلى ارتفاع المكان، ومن المؤكد أنّ المشي سيساعد في جعلها في حالة أحسن.

كان الجو بارداً في الخارج، وكان من المتوقع هطول الثلج ليلاً، لكنّ السماء كانت ما تزال صافية والنجوم واضحة للعيان، والقمر بدأ بالتراجع.

بدأت سونيا تتحدث عن مشروع معين، كنا قد قدّمناه. فقلت: إننا في إجازة، دعينا ننسى العمل! فكرّت كثيراً في الطريقة، التي يمكنني أن أخبرها عن الموضوع، لكنني قلت ببساطة: أنا انتظر مولوداً. كانت ردة

---

(1) Kammermusik نوع من الموسيقى الكلاسيكية يؤديها عدد من العازفين، وكانت تؤدي في حجرات داخل القصور سابقاً.

فعل سونيا هادئة على نحو يبعث على الدهشة. وقد كان عليها أن تعيش مجموعة من المشاعر المتناقصة، بحيث يصعب أن تستقّر على شيء. لقد استطاعت أن تحدس بأنّ لديّ عشيقة، وهو أمر لم يكن ليحرجها كثيراً، لكن الأمر سيكون مختلفاً عندما تعرف أنّ تلك العشيقة ليست سوى إيفونا، التي كانت تدعوها البولندية. لكنني أصبت بالدهشة، أنّ سونيا فكرّت على النحو، الذي سبق لي أن فكرّت فيه واستخدمت الكلمات نفسها، التي قلتها لإيفونا:

إنّه طفلك في نهاية المطاف.

سألتها إن كان الأمر لا يشكّل مشكلة لها، فقالت بأنّ شرطها الوحيد أن لا يتوجب عليها أن تتّعرف إلى المرأة البولندية. وماذا نفعل إذا رغبت في رؤية الطفل؟ هذا أمر يخّصك. قالت إيفونا ثم أضافت بأنها تريد العودة إلى البيت. أخبرتها بأنني لا أستطيع أن أقود السيارة، لأنني أسرفت في شرب الكحول. لكنني لم أشرب قالت سونيا، التي بدا لي أنها لا تريد أن أسافر معها، فهي تحتاج إلى الوقت لمزيد من التفكير، وبوسعي أن أدعو البولندية لتجيء إلى هنا. كان صوتها وهي تتحدث يميل إلى البرودة أكثر منه إلى المرارة.

لم تتراجع سونيا عن نواياها، فناولتها مفاتيح السيارة، وساعدتها في حمل أغراضها، ورجوتها أن تتصل بي عند وصولها إلى المنزل.

بعد ساعتين اتصلت سونيا بي، كنت مستلقياً على السرير أشاهد التلفزيون. أخفيت صوت التلفزيون عندما سمعت رنين الهاتف. سمعت صوت سونيا يخبرني بأنها وصلت إلى المنزل بسلام. ثم حلّ الصمت. لكنني لاحظت أنها تريد الحديث. إذ يبدو أنّ من السهل

عليها أن تتحدث عبر الهاتف، وبخاصة أنها فكرّت في الموضوع طويلاً أثناء السفر.

تحدثنا قرابة ساعتين عن زواجنا وعن علاقاتنا خارج الزواج، كما تحدثنا عن توقعاتنا ورغباتنا وأمنياتنا. بكت سونيا وبكيتُ في لحظة من اللحظات، ولم أشعر بأنها قريبة مني قربها في هذه الليلة. قالت: لن ندع الطفل يشعر بهذا. أليس كذلك؟ وسنقوم بتربيته كأنه طفلنا أيسعدك هذا؟ثم صمتت وقالت: إنني لا أدري حقيقة الأمر. أخبرها بأنها تعي ما تقول: فوعدتني أن تعاود الاتصال بي في اليوم التالي؛ لأن لدينا الكثير مما ينبغي أن نتحدث فيه. قلت لها: تصبحين على خير، فأنا أحبّك.

عادت سونيا في اليوم التالي إلى الفندق. كان الثلج قد هطل في الليل، ولم يكن قد تم تنظيف الجزء الأخير من الشارع. لذا كان عليها أن تنتظر في الوادي ثم تمشي بسيارتها خلف الجرّافة، التي تنظف الشارع. وعندما وصلت تبادلنا التحية وكأننا لم نر بعضنا منذ مدة طويلة. ذهبنا بعدها؛ لنمشي في الثلج وبدأنا الحديث عن كل شيء. استمتعنا بما حدث ليلة أمس من تسامح بيننا، وصرنا نكرّر ما ارتكبناه من أخطاء، وما سنفعل من أشياء إيجابية، وكيف ستكون حياتنا، وما الذي نحبّه. كانت كلماتنا تشبه التعاويذ وكأنّ أحداً سيتتبع أمانينا إذا قمنا بالإعلان عنها على نحو مؤكد. سألت سونيا: ألسنا بخير؟ بلى قلت وسيكون كلّ شيء على ما يرام، وهو ما كنت أومن به في تلك اللحظات. كان ذلك يبدو ممكناً في هذا المكان، الذي تبدّلت طبيعته في ليلة واحدة؛لتغدو أرضاً بيضاء لامعة.

وصل فرِدْي وأليس عصراً. كنّا وأنا وسونيا مستلقييْن بعد أن تناولنا الغذاء؛ لأننا لم نتمكن ليلة أمس من النوم على نحو مريح. دق جرس الهاتف في حوالي الرابعة. كان فرِدْي. اتفقنا على اللقاء في المطعم بعد نصف ساعة.

أدركت على الفور لحظة أن رأيتهما مقدار الخطأ في أن نلتقي في هذا المكان. فقد تفاخر فرِدْي حتى قبل أن نمدّ أيدينا ونتصافح، بأنه تمكن من قطع المسافة في خمس ساعات ونصف. كان وزنه قد أزداد، وفقد الكثير من شعر رأسه، ومع أنه ظل طيلة الوقت يتحدث ويضحك ولم يفارقني الإحساس بأن وضعه ليس على ما يُرام. أما زوجته أليس فكانت أكثر نحافة من ذي قبل، عندما رأيتها وكانت هي الأخرى تتحدث كثيراً، فهي لا تلتقي إلّا بالعباقرة، ولا تذهب إلا إلى الحفلات الموسيقية والمعارض الفنيّة الرائعة. وهي ترى أنّ الحياة في برلين أكثر متعة من ميونيخ، وأنها تصاب بالذعر عندما تعود إلى بافاريا. سألتها إن كانت ما تزال تعزف على الكمان، فردّت بأنها ستعاود العزف من جديد عندما يكبر أطفالها. كان لديهما طفلتان. تركاهما عند والديْ فرِدْي وهما قادمان إلى هنا. والطفلتان، كما تقول أليس، في غاية الذكاء، وموهوبتان على الصعيد الموسيقي. وقد تبادل فرِدْي و أليس الأدوار في سرد حكايات عن الصغيرتين، فتحدثا عن نكاتهما وأسئلتهما الذكية، والعبارات التي تصدر عنهما.

بعد عدة ساعات سألتنا أليس إنْ كان لدينا أطفال، ولم أدر بماذا أجيب، لكنّ سونيا سرعان ما أجابت بأنّ أمور الحمل حتى الآن لم تنجح، كم عمرك؟ سألتها أليس. ثلاثة وثلاثون عاماً. ردّت سونيا.

ما يزال أمامكما بعض الوقت إذاً. قالت أليس. كانت أليس سعيدة؛ لأنها أنجبت طفلتيها في وقت مبكّر. وضع فرِدْي ذراعه على كتفها، وانحنى على الطاولة وكأنه يريد أن يبوح لنا بسر: إن الطفلتين هما أجمل ما حدث لنا في حياتنا. أما أليس فأضافت بأنها لا تستطيع أن تتصور كيف يمكن للمرء أن يعيش بلا أطفال؛ لأنّ الأطفال هم إثراء للحياة غير قابل للتصور. إنّ الأولويات تتغير، قال فرِدْي، وتفقد بعض الأشياء قيمتها. لكنني لا أرغب في أن أقوم بتربية الأطفال في برلين. قالت سونيا.

أخبرنا فرِدْي أن لدى أليس موعداً للتدليك، وسألنا إن كنا نرغب في الذهاب معاً إلى الساونا قبل تناول طعام العشاء. نظرت إلى سونيا، التي أبدت عدم رغبتها في الذهاب. لكنني وافقت على الذهاب معهم، فلدى سونيا بعض الأعمال، التي عليها أن تنجزها.

ما تزال في هيئة حسنة. قال لي فرِدْي في المكان المخصص لخلع الملابس، وكان يضع يده في تلك الأثناء على بطنه. لقد ازداد وزني قليلاً، فأليس طباخة ماهرة.

كنا وحدنا في الساونا. سألني فرِدْي عن العمل، فأخبرته بأن أمورنا تسير سيراً معقولاً. إنّ برلين منجم من ذهب، قال فرِدْي، فإذا عملت بذكاء فإنك قادر على أن تجني ثروة. لقد اختص مكتبه الهندسي ببناء مكاتب للعمل، وقد لا يكون مشروعنا من بين المشروعات الكبيرة، لكنّه يُدرّ دخلاً جيداً فزبائنه يفكرون على المدى القصير، فالمبنى يجب أن يُستهلك في ثلاث سنوات، وليس هناك أحد يخطط لمدة أطول في هذه الأيام. للأسف لم يعد أحد يهتم بالشكل المعماري، فالأهم هو دقة

الجدول الزمني، والالتزام بالكلفة المقدّرة.

تحدث فرِدْي كذلك عن أشكال جديدة من العقود، يتم فيها تحديد السعر قبل أن يبدأ التخطيط. ويمكن للمرء أن يجني أرباحاً جيدة، إذا قام بضغط النفقات. أما الكلمة السحرية، فهي ضمان الحد الأقصى للتكلفة ثم نهض؛ ليصبّ الماء على الصخور الساخنة.

وعندما خرجنا؛ كي نرتاح بعد الجولة الأولى، قال فرِدْي، بأنّ سونيا استطاعت هي الأخرى المحافظة على قوامها. لكنّها تبدو له جافة وشديدة الانضباط. سألني بعد ذلك عن رأيي في زوجته، لكنّني لم أجب، فقال بأنها امرأة رائعة في السرير، ثم حدثني عن مغامرة له مع صحفيّة شابة، كانت قد أجرت لقاء معه، فدعاها إلى الطعام، لكنها قالت: إننا نضيّع وقتنا هنا، هيا نذهب إلى الفندق! ثم ضحك بصوت عال وقال: هكذا هو حال الشباب اليوم. بعد ذلك وقف فرِدْي، وحرك جذعه جيئة وذهاباً وكأنّه أحد المصابين بالمرض العقلي. بدا لي أنّ كل ما في شخصيته، أسلوبه في الكلام، وحركاته المضطربة والخالية من الروّية، يبعث على عدم الراحة. اعتذرت له عن عدم قدرتي بعد استراحة الجولة الثانية على الاستمرار، وأخبرته أننا سنلتقي؛ لتناول طعام العشاء.

لم أذهب إلى الغرفة بل أخذت أمشي في الهواء الطلق. فوقفت في الظلام أمام الفندق وأخذت أدّخن السيجار وأتساءل: ما الذي يجعلني مختلفاً عن فرِدْي؟ لقد ضللتُ الطريق أكثر منه بكثير، فإذا كان هو قد أقام علاقة مع صحفيّة، فهذا ليس شيئاً، فقد أمضيا معاً وقتاً جميلاً ثم ذهب كل منهما بحال سبيله، ولم يترك ذلك، كما قال فرِدْي بالإنجليزية، مشاعر سلبية لديه فإذا كان هناك من تصرف كالخنزير فهو أنا. ومع

ذلك فقد بدت لي علاقتي بإيفونا أقلّ دناءة من خيانة فرِدْي لزوجته؛ لأنّ حب إيفونا ومعاناتها استطاعا أن يسموا بي ويمنحا العلاقة قدراً من الرزانة، بقيت غائبة عن خيانة فرِدْي.

سألني فِردْي ونحن نتناول طعام العشاء إن كان لنا علم بأخبار روديغر، فنفيت ذلك بهزّة من رأسي، لكنني سمعت لدهشتي سونيا تقول بأنها تتصل به من حين لآخر. ماذا يعمل يا ترى؟ أجابت سونيا بأنه يعمل في سويسرا في إحدى شركات التخطيط،أما ماذا يعمل تحديداً فهو ما لم أتمكّن من فهمه، لكنه أمر يتعلّق بدراسات مستقبلية عن خصوصية أشكال البناء في الغد. هذا أمر يناسبه تماماً. قال فرِدْي، المهم أن لا يعمل.

سألت سونيا ونحن مستلقيان فوق السرير عن الأسباب، التي جعلتها لا تحدثني أبداً عن اتصالاتها بروديغر. فردّت بأنني آخر من يحق له أن يشعر بالغيرة. قلت بأنني لا أشعر بالغيرة، لكنني أجد الأمر غريباً. فروديغر في النهاية هو صديقي. لكنّ لديّ انطباعاً بأنّك لا تحبّه. قالت سونيا. كلا. أنا أحبه طبعاً. قلت، فقالت سونيا لقد عانى روديغر كثيراً؛ أحب روديغر طالبة سويسرية تدرس الفنّ، لعلك تتذكرها، فهي، التي كانت موجودة في احتفال رأس السنة. أليست هي الطالبة المجنونة، التي كانت منشغلة بالخبر؟ لا أدري، قالت سونيا. فأنا لم أتبادل الحديث معها. إنها إليزابيث هكذا تُدعى.

عرف روديغر إليزابيث في أثناء رحلته إلى أمريكا اللاتينية، وسافر معها لمدة طويلة، ثّم اصطحبها إلى ميونيخ. كانت قد تقدّمت بطلب للالتحاق بأكاديمية الفنون ولم تقُبل ،لهذا عادت إلى سويسرا. لحق

روديغر بها، وأقاما معاً في سكن جماعي للفنانين في بيت ريفي في أحد الأقاليم. فهؤلاء الناس، أضافت سونيا، لا يعرفون على وجه التحديد ما يريدون، ويتسكعون طيلة اليوم ويسمون أنفسهم فنانيّن دون أن يقدموا شيئاً محدداً وظاهراً للعيان ولست أدري ما الذي يُغري روديغر بحياة هكذه، فهو لم يحصل على الماجستير، وبدلاً من ذلك بدأ يحاول في عالم الفن، بدأ ذلك مع إليزابيث، ثم قام بتأسيس هيئة للنقد الاجتماعي في صالة مفتوحة، وهو يعيش طيلة المدة على أموال أبيه.

روت سونيا أنها تلّقت منه بضع رسائل آنذاك، وهي رسائل مجنونة كان يبدو روديغر فيها في غاية السعادة. أجبتُ على رسائله وحذرّته، لكنه لم يلتفت لتحذيراتي، ولم يعرها بالاً، بل واصل الكتابة واصفاً لي روعة الحياة، التي يعيشها ومقدار ما فيها من تحرّر وخلّو من أي أنواع القيود.

بدأت إليزابيث بتعاطي أنواع قويّة من المخدّرات، وقد أعطاها روديغر مالاً؛ كي يمنعها من مواصلة تعاطي المخدرات. وعدته بالتوقف عن تعاطيها. واختفت بضعة أيام، وعندما عادت ثانية، كانت مملوءة بالهيروين، ففي زيورخ ساحة يعيش فيها بضعة آلاف من مدمني المخدرات. قالت سونيا. أطرقت برأسي وقلت إنني أتذكر الصور، التي رأيتها في الجريدة. استسلم روديغر في لحظة من اللحظات. قالت سونيا. وأدرك أنه عاجز عن مساعدتها، فبحث لنفسه عن مسكن جديد ووجد عملاً له في بيت من بيوت الخبرة[1]. لكنه عاجز حتى اليوم عن الانفكاك منها، فهي تأتي دائماً وتطلب المال. واعتقد، أو آمل، بأنه لن

(1) Think-tank هي مؤسسات قومية غير ربحيّة تقدم المشورة لطالبيها.

يمنحها شيئاً. فأنا لا أعرف ما الذي يجذبه فيهاوما الذي يربطه بحياة لا مسؤولية فيها ولا أهداف. إنني أستطيع أن أتخيّل ذلك، لكنني لن أقول ذلك.

بقينا يومين آخرين في الجبال. تمشيّنا كثيراً وذهبنا إلى الساونا وإلى المسبح. اعتدت بالتدريج على المكان ولم اعد أشعر بالارتباك، كما كان الحال في بداية الأمر. وقد بدأ فرِدْي هو الآخر يهدأ تدريجياً، ويتحدّث عن أشياء أخرى، أكثر من حديثه عمّا لديه من أموال وما حققّه من نجاح. كما بدأت علاقات الانسجام تتنامى مع مرور الوقت بين سونيا وأليس، لهذا أخذت سونيا تتحدث، ونحن نتمشّى ذات مرة عن التبنّي، دون أن تخوض في التفصيلات بطبيعة الحال. ألا تستطيعون الإنجاب؟ سألت أليس. لا ندري. أجابت سونيا، لكنّ الأمور من الناحية الطبيّة على ما يرام. قال فرِدْي، إنني لا أكاد أقوم بلمس أليس حتى تحمل! لكننّي تساءلت إن كان فرِدْي يرغب حقاً في الأطفال. كانت أليس، قال فرِدْي، تريد أن تنجب أطفالاً، حتى قبل أن نتزوج، وكانت لا تكف عن الحديث في هذا الأمر.

كنت قد نويت أن أسأله عن ذلك، لكنني لم أفعل، فما الذي يمكن له أن يقوله في هذا الأمر؟ سبق لفرِدْي أن قال في سياق آخر ذات يوم، إنّ المرء يستطيع أن يخطّط لبناء منزل، لكنّه قد يعجز عن التخطيط لحياته. عارضته سونيا يومها، لكنّه كان، في غالب الظن، على صواب، ولم يخطئ في فلسفته تلك.

ذهبت إلى إيفونا في بداية العام الجديد، كي نتحدث عن الطفل. كان عليّ أن أعد سونيا أن أضع حدّاً لعلاقتي بإيفونا، وكنت قرّرت

أن أفي بوعدي. قلت لإيفونا إن عليك أن تتفهّمي الأمر، فأنا وسونيا متزوجان منذ سبع سنوات وأنا أحبها. لم تتفوه إيفونا بكلمة وكان علي أن أفكّر كيف أنّ إيفونا قالت لي منذ بداية علاقتنا بأنها تحبّني. كان حضورها غير مريح، لكنني أجبرت ذاتي على أن أكون ودوداً معها. سألتها: هل فكرّت بالأمر؟ قالت بأنّ برونو وعدها بأن يقدّم لها يد العون. فقلت بأنني أنا الآخر سأساعدها سواء احتفظت بالجنين أم لا، لكنّ الأمر يتعلّق إن كنت ترضين بأن يتربى طفلنا بلا عناية ففي ضوء طبيعة عملك، لست قادرة على أن تمنحيه الوقت الكافي لرعايته.

ذهبت في هذه الأثناء إلى رعاية الشباب وقيل لي هناك بأنّ حق الرعاية يعود للأم آليا، لكنّنا إذا قمنا معاً بتوقيع ميثاق حق الرعاية وأبدت الأم موافقتها، فيمكن للطفل أن ينشأ في رعايتي ويبقى للأم في كل الأحوال الحق في طفلها أما الحل الأكثر أماناً فهو التبنّي، عندها تتنحّى الأم، هكذا قالت الخبيرة.

كان ضميري يؤنبّني؛ لأنني سأقوم بأخذ الطفل من إيفونا، لكنّني كنت على يقين أن هذا هو الحلّ الأمثل لنا جميعاً. شرحت الإجراءات لإيفونا، ولم تتحدث إيفونا كذلك. كانت تجلس بعناد وتصوّب نظراتها إلى قدميها. قلت: إنّ عليها أن تقرّر، وكلّما كان قرارها سريعاً، كان ذلك أفضل. لم أعد أزورها، كما كنت أفعل، من حين لآخر، وأخبرتها أنّ عليها الاتصال بي هاتفياً عندما تعرف ما تريد.

لم أحدّث سونيا عن تردّد إيفونا على الإطلاق. فلم أرد أن أسبب لها القلق؛ لأنني لم أكن متأكداً إن كانت إيفونا ستوافق وأنّ كل شيء سينتهي على نحو حسن. بدأت سونيا، بنشاطها المعهود، تُعدّ العدة لاستقبال

الطفل، بدأت تبحث عن الحضانات، وأخذت تقرأ الإرشادات التربوية ،وتستفسر لدى مؤسسات الشباب عن الإجراءات الخاصة بالتبنّي.

قمنا بإعداد الغرفة الصغيرة الموجودة تحت السقف، التي قرّرت سونيا منذ البداية أن تكون غرفة خاصة بالأطفال. اشترينا مَهْداً وعربة أطفال وملابس ذات ألوان محايدة، فقد نسيت أن أسأل سونيا إن كان المولود ذكراً أم أنثى، ولم أرغب في الاتصال بها. ابتعنا كذلك معجماً خاصاً بالأسماء، وبدأنا بالبحث عن الأسماء المناسبة، وقررنا أن يكون اسم المولود إريك إن كان ذكراً، وصوفيا إن كانت أنثى.

عندما حلّت نهاية شهر شباط ولم تتصل إيفونا بي هاتفياً، اتصلت بهارتماير وأخبرته أنني أريد أن ألتقي به ودعوته؛ كي يجيء إلى بيتنا، آملاً أن يترك المستوى المعيشي، الذي نحياه، تأثيراً طيّباً فيه، ولم أقل لسونيا سوى أنّ القادم يدعى هارتماير وهو صديق لإيفونا ويريد أن يطمئن على المكان، الذي سيتربى فيه الطفل.

وصل الرجل إلينا بعد أن تناولنا طعام العشاء، فتحت الباب وكانت سونيا تقف ورائي. كانت سونيا ترتدي البناطيل في الغالب، لكنها ارتدت في تلك الليلة فستاناً أزرق بسيطاً، بدت فيه في غاية الجمال، كما بدت أقل شعوراً بالجرح. بدأ الإعجاب واضحاً في عيني هارتماير. كان الرجل يبدو مرتبكاً، وغير واثق، ومتلعثم عندما يتحدث. جلس الرجل وساد الصمت بيننا وكأننا جميعاً بانتظار شئ ما. سألت هارتماير إنْ كان يرغب في أن يشرب شيئاً، فطلب كأساً من الماء. ذهبت سونيا إلى المطبخ، فأحس الرجل بالراحة وبدأ يتكلّم بسرعة، قال بأن إيفونا تتألم في هذه الأيام، وأن عليها أن تظل مستلقية فوق السرير حتى الولادة، لكن

هناك من يزورها من الجماعة الكنسيّة بانتظام ويعتني بأمورها المنزلية. أخبرته أنني لم أعد أزور ايفونا كالسابق حتى لا أوثّر في قرارها. في تلك الأثناء عادت سونيا وهي تحمل صينية عليها ثلاث كأسات من الماء. تابعت القول بأنّ من الأفضل لكلينا أن لا نلتقي بعد الآن، فاللقاء يمسّ بكرامة زوجتي. ملأت سونيا الكأسات بالماء ووقفت خلفي، فالتفتّ إليها وأمسكت بيدها، فارتسمت على محيّاها بسمة عذاب، فأطرق هارتماير بوجه مملوء بالجدّ.

بقي هارتماير ساعتين. كان في بادئ الأمر منقبضاً، لكنه أخذ ينفتح تدريجياً، لقد أخبرت سونيا بأن علينا أن ننظم بعض المسائل، وعندما لاحظت أن الأمور لم تحسم بعد، نظرت إليّ نظرة مرعبة ،لكنها لم تدع هارتماير يلحظ ذلك.

أغلقت الباب وراء هارتماير واستدرت نحو سونيا، التي تراجعت إلى الوراء عندما هممت بضمّها إلى صدري، ونظرت إليّ نظرة ملؤها الغضب.

ما الذي كنت ستفعله لو أنه قال لا؟ قلت لها بأنني كنت على ثقة بأننا سنحصل على الطفل. لكنّها لم تقرّر بعد، قالت سونيا. إنّها تسمع كلامه. قلت، وأنا لا أريد أن أثير أعصابك. هنا صرخت سونيا، للمرة الأولى، التي عرفتها فيها، قائلة: إنّ عليّ أن أتوقفّ عن معاملتها كإنسانة غبية. ثم سرعان ما هدأت، وقالت بصوت هادئ: إذا كنت ما أزال أؤمن بعلاقتنا، فإن عليّ أن أكون أميناً معها، حتى لو كان الأمر صعباً، فهي تتحمل الحقيقة بكل مرارتها لكنّها لا تتقبّل أن أكون غير مخلص لها، فوعدتها بذلك. بعدها شربنا احتفالاً بنجاح الحوار مع هارتماير،

الذي وعد بأن يدافع عن وجهة نظرنا عند إيفونا. تحدثنا مع هارتماير عن العائلات المستقرّة، كما تحدثنا عن المال، ووضعت أمامه مجموع الدخل، الذي استطاع مكتبنا أن يحرزه في العام الماضي، كما أريته صور المباني، التي قمنا بتصميمها وتنفيذها، وتحدثنا عن شركات البناء ووعدته بتوفير فرصة، للشركة التي يمتلكها ولده؛ كي تتقدم للمشاركة في العروض.

ولكن ماذا سيحدث للطفل إذا انفصلتما؟ سأل هارتماير. لقد سامحت الكسندر، قالت سونيا، وأنا واثقة بأن مثل هذا الأمر لن يتكرّر. أطرقتُ وأنا شديد الاقتناع بما قالت زوجتي، لكنّ شعوراً ما كان يخامرني بأنني وسونيا، في تصورّ هارتماير، نقوم بالتمثيل. نحن لسنا بلا خطايا. قال هارتماير. فتساءلت عن الخطايا، التي اقترفها الرجل.

أمضينا نهاية الأسبوع ومشاعرنا موزعة بين النشوة والخوف، لكنّ هارتماير اتصل بي يوم الاثنين وأنا في المكتب؛ ليعلمني أنّ إيفونا قد وافقت على إجراءات تبني الطفل. سألته أنْ كانت تطالب بحق الزيارة فقال بأنه استطاع أن يقنعها بالتنازل عن هذا الحق، صحيح أن الأمر سيكون صعباً عليها في البداية، لكنّ هذا سيكون لصالح الجميع،ولصالح الطفل في المقام الأول.

كان صوت هارتماير يُبيّن بوضوح أنّه يقف إلى جانبي، لكنّه استطاع مع ذلك أن يثير الغضب في داخلي، فقد تعامى عن وضعنا البرجوازي الميسور، وباعنا لصالح امرأة تنظف البيوت، وهي مهاجرة غير شرعية!

احتفلنا في المساء فذهبنا إلى أحد المطاعم الراقية، التي لا نذهب في العادة إليها إلّا مع زبائننا. قلت لسونيا: إنني أعني تماماً ما سبق أن قلته

لك. تطلّعت سونيا إليّ مستفسرة فأوضحتُ أنني أعني بقائي على وفائي الدائم. فأطرقت سونيا بقلق، وكأنها لا تريد أن تُصغي إلى ما أقوله.

منذ صار لنا طفل، صرت أستطيع أن أرى الأطفال في كلّ مكان. قالت سونيا، حتى كأن المدينة كلّها مملوءة بالأمهات وعربات الأطفال. هذا طبيعي، قلت، وبالمناسبة، فالجنين أنثى.

منذ تلك اللحظة استطعنا أن نفاتح أمهاتنا وآباءنا وأن نخبرهم بأننا سنقوم بتبنّي أحد الأطفال. لم نقل لهم بأن الطفل ابني وإلّا تعذر إخبارهم بمسألة التبنّي من أساسها. احتاجت إيفونا. بعد الولادة، إلى ثمانية أسابيع «لتعيد التأمل في الأمر، لهذا لم نقم بإخبار أحد، قبل أن نتأكد من قدرتنا على الاحتفاظ بالطفل.

ولدت صوفي في السابع عشر من نيسان. قبل ذلك كان هارتماير قد اتصل بي؛ ليخبرني عن وجهة نظر إيفونا لعملية تسليم الطفلة. طلبت إيفونا أن أحضر ولادتها وأن أقوم بتغسيل الطفلة وإعادتها إليها؛ لتحتفظ بها، لتقوم هي بعد ذلك بتسليم الطفلة لي أنا وحدي، شريطة أن لا تراها بعد ذلك.

اشترت إيفونا للطفلة ثوباً فضفاضاً؛ لترتديه الطفلة في بادئ الأمر إضافة إلى سلسال صغير وصليب ذهبي. وجدت الاقتراح كلّه مسرحياً ومَرضيّاً، لكنني لم أعرف كيف يمكن أن نجد بديلاً أفضل، لذلك أعلنت موافقتي. سألت هارتماير عن الجهة، التي ستتولى دفع تكاليف الولادة، وإذا ما كانت إيفونا ستواجه بعض المشكلات مع السلطات المسؤولة عن الأجانب. قال لي هارتماير بأن السلطات توافق على بقائها لمدة ثلاثة شهور، وبعد ذلك لكل حادث حديث. أما من سيتحمل نفقات الولادة

فغير معروف إلى الآن وربما تتحملها الشؤون الاجتماعية. فقلت إنني على استعداد لتحمل النفقات.

تلقيّت يوم الولادة اتصالاً هاتفياً من المستشفى، لكنّ الأمور جرت بسرعة، فُولدت صوفي في اللحظة، التي وُصلت فيها، تم تغسيل صوفي ووضعت في سريرها، في حين رقدت إيفونا في غرفتها. وكانت تشعر بالهمّ الكبير. لأن طقوس التسليم اضطربت وجرت على النحو الذي لا تريده.رفضتْ الممرضة، التي قادتني إلى الغرفة أن تقوم بإحضار الطفل لنا؛ لأنّ الطفل ينبغي أن يرتاح من إرهاق الولادة، قالت. وهي تنظر إليّ نظرة عدائية، فقلت لها، سأعود فيما بعد.

عدت إلى المستشفى عصراً. كان المولود في عربة صغيرة زجاجية إلى جوار سرير إيفونا. نظرتْ إيفونا إليّ نظرة لم أستطع تفسير مراميها. كنت أريد أنْ آخذ الطفلة من العربة. لكنّها صاحت: لا. سأَضعها أولاً في حضني، وستتناولها أنت من بين ذراعي. قامت إيفونا برفع سريرها إلى الأعلى ودقت الجرس. جاءت هذه المرة ممرضة أخرى، تتميّز بالوّدّ ووضعت الطفلة بين يدي إيفونا، التي انتظرت حتى اختفت الممرضة وسلّمتني صوفي دون أن تتفّوه بكلمة.

كان شعوراً غريباً أن أحمل طفلتي بين ذراعي للمرة الأولى. كانت صوفي خفيفة الوزن إلى درجة لا تصدّق، و كان وجهها محمّراً، وفيها شيء من الطيور. فكرّت للحظات بمنظر إيفونا الخارجي، وأن من الجائز أن تحمل صوفي جينات أمها، لكنني سرعان ما شعرت بالخجل. ثم توصلت إلى رأي مفاده أنّ الأطفال حديثي الولادة، يكونون في الغالب قبيحي المنظر.

لكنّ صوفي بدت لي منذ النظرة الأولى مستقلّة تماماً. إنها كائن تنتمي إلينا أنا وإيفونا من الناحية البيولوجية، لكنّ صلتنا بها واهية. كان عليّ أن أقول شيئاً في هذا المقام. فقلت: أعدك بأنني سأرعاها رعاية حسنة.

بدأت صوفي بالبكاء، فسألت: ماذا جرى لها؟ لم تجب إيفونا ربما، لتريني أنني غدوت مسؤولاً عن الطفلة منذ هذه اللحظة. ذهبت إلى الممر وأخذت أبحث عن الممرضة التي رفعت صوفي إلى الأعلى ونفخت خلف ظهرها. سألتني الممرضة، إن كانت صوفي هي مولودنا الأول، فأطرقت. فردّت بأنها ستساعدني في لفّها وبعد أن قامت بتغيير حفاظّاتها وضعت الممرضة صوفي في سريرها الصغير.

عدت إلى غرفة إيفونا، فلم أجدها هناك، أخبروني في القسم المختّص بأنّ إيفونا ذهبت لإجراء بعض الفحوصات وأنها أخبرتهم، كما قالت كبيرة الممرضات بوجه مليء بالغضب، أنّ بوسعي أخذ الطفلة.

جاءت القابلة وشرحت لي آلاف الأشياء، التي نسيت معظمها، ثم سلمتّني حقيبة أطفال مليئة بعينات من المنتوجات الخاصة برعاية الأطفال والحليب المخصص لهم.

كان عليّ أن أفكّر بإيفونا في أثناء قيادتي للسيارة. أخذت أتساءل عن مشاعرها نحو صوفي، لكنني كنت على يقين تام بأن ما فعلناه هو الحلّ الأمثل، مع أنني كنت أخشى أن تظن إيفونا أنني كنت أخطط؛ لأسلبها طفلتها.

كنت أتمنّى لو أتيحت لي الفرصة للحديث معها، وكنت أريد أن تغفر لي، لكنني كنت أطلب الكثير.

لم يصدر عن صوفي في أثناء السفر أيّ صوت وعندما أوقفت السيار

تبيّن لي أنها نائمة، أخرجتها من السيارة وحملتها وهي نائمة في المقعد الخاص بها، واتجهت بها إلى المنزل.

بدا أن سونيا سمعت صوت السيارة، ففتحت الباب، وبعد أن ألقت نظرة سريعة على صوفي سارت نحو الغرفة المخصصة للأطفال. وقفت سونيا حائرة. وضعت المقعد المخصص لصوفي على الأرض، وجلست إلى جواره وقلت: انظري. هاهي طفلتنا. فاقتربت سونيا وسألتني إن كانت الأمور سارت على ما يرام. أخبرتها أن الأمور سارت على أفضل ما يكون. جلست سونيا إلى جواري وأخذت تبكي.

التفتت إليّ بعد مدة من الزمن وسألتني: ما العمل؟ لا أدري. قلت: دعينا ننتظر حتى تصحو. بدأت سونيا، للمرة الأولى، تتأمل صوفي بجدّ. ربتّت بإصبعها على ظاهر يدها وهي تقول:

شعرها أسود، وهو أَمر تمنيته مذ كنت طفلة. إنها كالهندية الحمراء. فقلت إنها مثل: نشو-تشي[1]. كلّا. ردت سونيا أريدها أن تكون فينيتو[2]. ثم تأملتني وهي تقول ترى ما الذي ستفعله صوفي بحياتنا؟ لا أدري أجبت. فقالت تعال؛ لنحتسي القهوة.

بدأت صوفي تصرخ ونحن نحتسي القهوة، فهرولت نحو الطابق العلوي، وكأنني لا أريد أن تذهب أية ثانية مني، صاحت سونيا في أثناء ذلك: أحضرها إلى هنا، فإنها جائعة بالتأكيد. كانت سونيا تَعُدّ الزجاجة أثناء نزولي من الطابق العلوي. فحصتْ درجة حرارة

(1) Nscho-tschi شخصية متخيّلة تعود إلى الكاتب الألماني كارل ماري (1842-1912)، وهي فتاة ساحرة الحسن كانت تثير الإعجاب حيثما حلت بشخصيتها وملابسها.

(2) Winneto شخصية امريكية متخيّلة تعود إلى كارل ماي أيضاً وترمز إلى الحياة الرومانسية البريئة.

الزجاجة بظاهر يدها وجلستْ على الكنبة. هاتها قالت سونيا وفتحت بلوزتها وأخرجت ثديها. أخذت صوفي تحرك رأسها يمنة ويسرة، حتى استطاعت أن تمسك بحلمة الثدي، فبدأت تمصّها بقوة. تأملت سونيا، لكنها كانت منشغلة بالطفلة تماماً. وبعد أن أبعدت صوفي فمها، وضعت سونيا زجاجة الحليب في فمها. في تلك اللحظة نظرت سونيا إليّ، لأنها كانت قد لاحظت نظراتي المتسائلة. أخبرتني سونيا أنها استشارت المختصات في الرضاعة الطبيعية، فأخبرنها أن بإمكان الأم، التي تتبّنى طفلاً أن تلقمه ثدييها، صحيح أنّ الحليب لا يكفي الطفل في الغالب، لكنّ الأمر لا يخلو من الفائدة. وهل يأتي الحليب ببساطة هكذا؟ لقد أعددت نفسي، للأمر منذ زمن طويل،فأنا أقوم بتدليك الثديين منذ شهور دون أن أخبر أحداً بالأمر. بدت لي الفكرة غريبة ومتعجرفة، وسخيفة بطبيعة الحال، وتخيّلت للحظة من اللحظات أن سونيا تريد أن تخطف طفلتي مني.

وضعت سونيا، في اليوم التالي، ثديها في فم صوفي سألتها إن لم يكن ما فعلته بالأمس كافياً، فردّت سونيا بأن الأمر مهم للرضاعة. قلت لسونيا: لكنني لا أريد لصوفي أن تتعامل مع جسدك كأنه آلة؛ وإن كنت شاهدت النساء يفعلن ذلك مراراً. لم أستطع أن أتعود على منظر سونيا وهي ترضع الطفلة. كانت سونيا تبدو في غاية الاستمتاع، وعندما كنت أبدي أية ملاحظة بهذا الشأن كانت تردّد بأنني غيور. لكنّها توقفت عن إرضاعها عندما بلغت صوفي السنة الأولى من عمرها.

صارت صوفي تنام مؤقتاً في غرفة نومنا، فقد وضعنا سريرها الصغير

إلى جوار سريرنا، خشية أن لا نستطيع سماعها وهي تبكي ليلًا. وعندما كانت تصحو ليلاً، كانت سونيا تحملها بين ذراعيها وتختفي. أما أنا فكنت أستدير إلى الجانب الآخر وأواصل النوم.

زرت إيفونا في اليوم التالي في المستشفى، فلم تتكلم كلمة واحدة، كما لم أتحدث أنا كثيراً. لم أذكر صوفي، لكنني سألتها عن مشاعرها وعن الوقت، الذي يسمح لها فيه بمغادرة المستشفى، وإذا كان لديها كلّ ما تحتاج إليه.

هزت إيفونا رأسها بقوة رافضة أية مساعدة مالية مني. واستدارت نحو الحائط. بعد ذلك جاء هارتماير ومعه باقة ورد فغادرت المكان.

تأملتني أنتشه بصمت، وقالت بعد هنيهة بأنها لا تستطيع أن تتّوقع حدوث شيء أسوأ من هذا الذي حدث. أهو سيّئ إلى هذا الحد؟ سألتها. ماذا تظن؟ تخيّل نفسك في مكانها؛ لقد عشقتْ رجلاً استغلها كما يحلو له، وأعطاها المال تعويضاً عن هذا الاستغلال، ثم حملت على أمل أن تؤسس عائلة مع من تحب، لكنّ حبيبها أخذ الطفل منها وجرّدها من كل شيء. قلت لها بأنني سمعت قبل مدة قصيرة جملة في أحد الأفلام، ذات دلالة عميقة وهي: أنت بمن تحب لا بمن يُحبّك. قالت أنتشه وهي تملأ كأسها، عليّ أن أعيد التفكير بهذا الأمر. بعد مدة قالت أنتشه إنّ للجملة هذه إيقاعاً كاثوليكياً. ولكن ما الذي أقصده منها؟ قصدت أن أقول إن قدرة إيفونا على أن تحيا حياة سعيدة لا يعتمد عليّ، وأنّ من يحب لا بُدّ أن يربح، سواء يستطع أن يحقّق حبّه أم لا. هذا هراء. قالت أنتشه؛ لأن هذا يعني ببساطة أن الحب الذي لم يستطع أن يحقق ذاته لا يقل سعادة عن ذلك الحب، الذي استطاع أن يحقق ذاته. لم أقصد هذا، قلت لها، لكنّني أعني أنْ يُحبّ المرء ليس أسوأ من أن يُحَبّ. إنّ هذا الأمر غير مهم، لكنك تبدو، قالت أنتشه، وكأنك تريد أن تغسل يدك من الأمر. على الإطلاق. قلت لكنّ مسؤوليتي مستقلة تماماً عن إيفونا. كما أنّ حبها مستقل عني تماماً.

هذه أمور نظرية تماماً؛ قالت أنتشه، لكنّ الواقع أنك أسأت استغلالها، ثم عقدتْ ما بين حاجبيها وارتسمت على وجهها ملامح الارتياب وقالت: يساورني، على كل حال، الشعور بأنه لم يكن للشر دور حاسم في الحكاية صحيح أنك الذي تسبّبت بإحداث الضرر بأكمله، لكن هذا الضرر لم يصب إلا إيفونا في المحصلة النهائية. بل أصاب إيفونا

وسونيا وصوفي. قلت. أما الضرر، الذي أصاب صوفي فأنا أعرفه، قالت أنتشه، على وجه التقريب، فقد حدثتني سونيا أثناء الأزمة، التي مررتم بها قبل ثلاث سنوات، وقالت بأن صوفي هي طفلة عشيقَتك. لكنّ هذا الأمر ليس بهذه البساطة.

أخبرت أنتشه أنّ الأمور سارت على نحو مثالي، وليس هناك شيء في سونيا أكرهه، كما أنّ حياتي سارت تماماً على النحو، الذي أرغب فيه. التقيت بإيفونا ثانية وبدت وكأنها تسيطر علي. أدركت طبيعة الأضرار، التي تسبّبت بها، وتبين لي أنّ هناك إمكانية لأن تضبطني سونيا متلبّساً لكنه لم يكن أمامي خيار، ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً آخر. ردّت أنتشه بأنني أقوم بتسطيح الأمور، فهي تقوم بعمل شيء ما، مع أنها تعي خطأ ما تقوم به!أهذا يعود إلى الإرادة الحرة أيضاً؟ هزت أنتشه كتفيها وقالت ربما وقع ذلك في أيام الطفولة.

سألت نفسي عن طبيعة الصورة، التي رسمتها سونيا لإيفونا، التي لم يسبق لها أن رأتها، كما أنني لم أحدثها عنها على الإطلاق. أغلب الظن أنّ سونيا قامت باختراعها. فإيفونا تتفوق على سونيا في بعض الجوانب سواء أكانت حسيّة، أم عاطفية، أم غير ذلك من الجوانب.

ضحكت مضطراً فسألتني أنتشه فيم أفكر؟ فبحت لها بما أفكر فيه؛ وسألتها أتريدين أن تقابلي الرجل، الذي خانتني سونيا معه؟ أقامت سونيا ذات مرة علاقة مع أحد زملاء المدرسة القدامى، الذين عرفتهم معرفة عابرة، لكنّ سونيا كانت لحظة العلاقة ثملة، كان ذلك عذرها ،لكنّ سكرها زاد الطين بلّة عندي فقد أردت أن أعرف ذلك الشخص حتى باحت به أخيراً بعد ذلك تمنيت لو أنني لم أعرف ذلك الشخص،

لأنني أصبت بمرض الشك لمدة طويلة ،ففي كل مرة كانت سونيا تغادر المكتب كنت أعتقد أنها ستذهب إليه. قطبت أنتشه جبينها وقالت، طالما بقيت سونيا لا تعرف إيفونا، فإنها تستطيع أن تتصرف وكان المرأة لا وجود لها. فإيفونا بالنسبة لها ليست أكثر من كلمة، ولا تكتسب هذه الكلمة وجهاً إلّا عندما تلتقيها سونيا، سواء أكان وجه إيفونا قبيحاً أم جميلاً.

سألتني أنتشه إنْ كانت صوفيا تعرف أمها أم لا. أجبتها بأنها لا تعرف أننا تبنيناها، وإذا ذهبت إلى سونيا فلا يجوز لها أن تخبرها بحقيقة الأمر. أرأيت؟ قالت أنتشه، إنه يتوجّب عليكم أن تعلموها بالحقيقة ذات يوم. سألتها عن سونيا وأخبارها، فردّت بأن من الأفضل أن أسألها عن ذلك مباشرة. قلت بأنها تكرّر الإجابة ذاتها وتقول إنّها بخير. ابتسمت أنتشه وتساءلت: أليس هذا هو ما ترغب في سماعه؟ ثم سألتني إن كنت قد أحببت سونيا حقّاً. قلت وأنا أقف نعم، إن كان بوسع المرء أن يقول ذلك بسهولة.

كان عليّ أن أفكرّ، بلحظات الزفاف وبالعهد، الذي تعاهدنا عليه ولم أؤمن به أصلاً. سألتني أنتشه: هل أحببت إيفونا؟ قلت بأن علي أن أذهب إلى السرير حالاً، ويمكنني أن أحدثك عن ذلك غداً إن أحببت، أنا أعرف بقية الحكاية تقريباً قالت أنتشه، أنا لم ألتق بإيفونا بعد ذلك. قلت، رفعت أنتشه حاجبيها إلى الأعلى، ونظرت حواليها، وقالت بأنها ذاهبة لتنام، فأمامنا غداً نهار آخر.

بقيت جالساً، فلم أكن أشعر بالإرهاق بعد، وتساءلت إن كانت أنتشه على حق وأن علينا أن نخبر صوفي بالأمر، وهو أن سونيا ليست

أمّها على المستوى البيولوجيّ، ولم تكن لديّ مشكلة، إذا ما كان في مقدوري أن آمل، بأنّ لدى إيفونا بعض المشاعر تجاه طفلتها، لكن ما يبدو أنها لا تستشعر شيئاً نحوها، فلربما حرّمت على نفسها ذلك.

مرّت سنوات بعد ولادة صوفي لم أعرف خلالها شيئاً عن إيفونا. اتصلت بهارتماير بادئ الأمر؛ لأسأل عن أخبارها، فأخبرني ،بعد مدّة، بأنّ إيفونا لم تعد تشارك في الحلقات الإنجيلية، وأنه فقد الاتصال بها. قالت إنها صارت عبئاً علينا، نظراً لمسألة الطفلة ولما تتصف بها إيفونا من عناد أصلاً، ويبدو أنها لم تعد ترغب في أن يراها أحد؛ نظراً للخطأ الرهيب الذي ارتكبتْه، فاقترح عليها أحدهم بعدم حضور الحلقة، فالبعض يقع بين الأشواك، التي لا تلبث أن تنمو وتخنقه.

انتظرت أن تتصل بنا إيفونا في عيد ميلاد صوفي؛ لترسل لها هدية أو؛ لتتمنى لها السعادة، وعندما لم يتم ذلك اتصلت بها على الرقم القديم، لكن هذا الرقم لم يعد مستعملاً. ولم أعنّ نفسي مشقة البحث عن رقمها من جديد، فلعلها عادت إلى بولندا، وهذا أفضل للجميع. هكذا قدّرْت.

احتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى تعودنا على صوفي، فبعض الآباء والأمهات يحتاجون إلى تسعة أشهر حتى يستوعبوا فكرة وجود طفل لديهم. أما نحن فعلى النقيض، فعندما أحضرنا صوفي لم نكن متأكدين. إن كان بوسعنا أن نحتفظ بها ولم نتعامل معها على أنها تخصنا إلا عندما أمسكت سونيا بيدها ورقة التنازل، التي وقعتها إيفونا.

بدأ الشعور بالغربة يتلاشى تدريجياً. كنت أنسى أحياناً أن لدينا طفلة وأفاجأ عندما أعود إلى البيت في المساء، وأرى صوفي مع الفتاة التي، رعتها خلال ستة الشهور الأولى. كانت سونيا تجيء إلى المنزل بعدي، وكانت مهمتها أكثر إرهاقاً، لكن سونيا حرصت على أن لا تجعلنا نشعر بتأثير هذه التغييرات عليها، فلم تشكُ، منها ولم تجعل صوفي تحسّ بها،

فقد ظلت تعامل صوفي بقدر واسع من الحنان وتسبغ عليها رعايتها المفرطة.

كانت ترضعها وتخاف عليها مما يمكن أن تمسه بيدها؛ لأنها ترى فيه خطراً يتهدّد حياتها، فكانت تبعد الألوان السامّة عنها، والأدوات الحادة والأشياء الصغيرة، التي قد تبتلعها صوفي وكانت تقول تخيّل لو أن شيئاً من ذلك حدث. كنت أطمئنها وأهدّئ من روعها بأنّ شيئاً من هذا لن يحدث لها.

كنت أتأمل صوفي طويلاً، من حين لآخر، باحثاً عن تشابهات بينها وبين أمها، أو بيني وبينها، لكنني لم أستطع أن اكتشف شيئاً من ذلك. إنّها تشبهك. كنت أقول لسونيا. فكانت تضحك وتقول بأن صوفي لا تشبه إلا ذاتها وهي غير قابلة للمقارنة. وكنت أمسك، أحياناً، بسونيا متلبّسة تتأمل صوفي، وأتساءل بماذا تفكّر يا ترى؟

أخذنا صوفي ، بعد بلوغها ستة أشهر، إلى الحضانة؛ لتبقى هناك طيلة النهار. شعرت بتأنيب الضمير، عندما حملتها للمرة الأولى إلى هناك وبدا لي الأمر، وكأنني ألقي بها في البرّية. لكنّ الحضانة أعجبت صوفي على ما يبدو؛ لأنها كانت بصحبة الأطفال. لذلك لم ترغب بالعودة إلى المنزل عند المساء، وأخذت تبكي لحظة أن حملتها بين يدي.

كانت صوفي طفلة هادئة، لا تكاد تتسبّب في إشكالات، وكانت شهيتها للطعام مفتوحة. فكبرت بسرعة، حتى أن سونيا كانت تخشى عليها من السمنة المفرطة وتقول بأن علينا أن نكون حذرين فيما يخصّ تغذيتها.

كانت صوفي منذ طفولتها المبكرّة قادرة على أن تنشغل بذاتها.

كنت أراقبها وهي تجلس على الأرض أو فوق أحد الأغطية، تتأمل على نحو آلي أحد الأشياء، أو تحرك دون كلل يدها؛ كي تمسك بلعبة ما أو بحيوان مصنوع من القماش، موجودة إلى جوارها.

فيما بعد اعتادت صوفي أن ترعى دُماها، بتفاني الأم، فكانت تطعمها وتعدّها للنوم، وتحكي لها حكايات ليلية خيالية، لا أحد يعلم من أين جاءت بها، وكانت تصمت عندما كنت أستفسر منها عن ذلك. لم تكن صوفي عدوانية، لكنها بقيت منغلقة على ذاتها، وتحيا داخل عالم خاص بها. وقد تولد لدي انطباع بأن بعض الحب، الذي وهبته لها لم تبد معالمه على الإطلاق وأنّ مشاعري، التي غمرتها بها قد تلاشت كما يتلاشى الضوء في الثقب الأسود.

كانت صوفي متأخرة عن الأطفال الآخرين في كل شيء، واحتاجت إلى زمن طويل؛ كي تتمكن من المشي، وقد بلغت سن السنتين دون أن تتفوّه بكلمة. رأت بيرغيت طبيبة سونيا النسائية، وعرّابة صوفي أن هذه مظاهر غير مقلقة، فالمهمّ أن تكون صوفي بصحة جيّدة. شعرت سونيا بخيبة الأمل وإن لم تعترف بذلك، وطلبت من بيرغيت أن تجري لصوفي فحوصات، فرفضت بيرغيت وقالت دعيها تأخذ ما تحتاج إليه من زمن، فلكل طفل إيقاعه الزمني الخاص به.

كانت سونيا وبيرغيت قد حدّدتا أوقات المواعيد الطبيّة قبيل انتهاء العمل بقليل، وكنا نذهب بعد إجرائها لتناول الطعام في أماكن شتّى. ذات مرة أخبرتنا بيرغيت أن تانيا قد كتبت لها، وأعلمتها أنها أنجبت ثلاثة أطفال من زوجها السويسري، وأنها تعيش في لون من ألوان السكن الجماعي مع عائلات أخرى في مزرعة نائية بالقرب من بحيرة كونستانس، حيث تقوم العائلات بتأمين ما يلزم لها من الغذاء من خلال جهدها الذاتي، إضافة إلى أنها تتولى تعليم أطفالها بنفسها. وأنّ تانيا راغبة في التصالح مع بيرغيت.

تخلّت تلك المنظمة عن طابعها الألماني، وصارت تعمل لمواجهة الإرهاب والحروب. وقد كتبت تانيا بأنها لا تستطيع أن تعمل من أجل السلم العالمي، وحديقتها الصغيرة تخلو من الوئام، لهذا تطلب السماح من بيرغيت.

ضحكت بيرغيت وقالت بأن هؤلاء الناس يستطيعون أن يهتموا بالأمور غير المهمّة، أو يقفوا في مجابهة التجارب على الحيوانات، فهؤلاء الناس لن يتغيّروا على الإطلاق. سألتها سونيا ترى هل سامحتها؟ ليس هناك ما يمكنني أن أسامحها من أجله. قالت بيرغيت. لقد أرسلت لي تانيا بضعة أعداد من مجلة تصدرها منظّمتهم، ويبدو للوهلة الأولى أنَّ ما يكتبونه ليس صحيحاً، لكنّنا عندما نتأمله بدقّة نرى أنه خليط من الموقف السلطوي والعلاج الطبيعي ونظريات المؤامرة العالمية، فما أسهل تفسير العالم على هذا النحو! رأت سونيا أن على بيرغيت أن تردّ على تانيا، فهذا لا يكلّفها شيء، لكنّ بيرغيت هزّت رأسها رافضة وهي تقول: كلا. لن أقيم علاقات مع هؤلاء، وعلينا أن لا نؤيد مثل هذه المنظمات المجنونة.

سبق لي أن سمعت عن نساء حملن بعد قيامهن بالتبنّي، وكنت آمل سراً أن يأتينا طفل آخر. وقد فوجئت عندما أخبرت سونيا ذات يوم بذلك، بأنها قد وضعت لولباً في الرحم لمنع الحمل. أصبت بالذعر لحظتها، وسألتها ألم يكن من الضروري أن نناقش هذا الأمر معاً؟ فردّت بأنّ من الأفضل لي أن لا أحمل. ولا داعي أن أذهب إلى هنا أو هناك مع امرأة منفوخة البطن. إضافة إلى أنّ لدينا طفلة. قلت لها بأنني أحب أن يكون لصوفي أخ، أو أختٌ، فردّت بأنه ليس لدينا الوقت الكافي

لذلك. بدا لي أنها لم تستوعب ما أنا فيه من إثارة.

لقد حرصت سونيا، منذ مجيء صوفي، على أن تضع مسافة بيني وبينها. وكانت في الغالب سيئة المزاج وكثيرة الانتقاد لي ،ليس نقداً كما كان في الماضي، بل بحدّة لم أعرفها من قبل.

صارت حياتنا العائلية تبدو مملة عندها فعندما كنا نذهب يوم الأحد؛ لنمّشي ونجلس نحن الثلاثة في المقهى، كان يخيّم علينا صمت مؤلم، بعد ذلك تقف صوفي وتأخذ بالركض في أرجاء المقهى، حتى تصيح سونيا بها ألا يمكنك أن تجلسي بهدوء لحظة واحدة؟ ثم تشرب سونيا قهوتها وتنهض وتتساءل: أيمكننا أن نغادر؟

نغادر المقهى وقد حل الظلام في الخارج، فتمسك صوفي بيد كل واحد منها وتتنّقل منَ يد إلى أخرى، فيبدو التوتر على سونيا، التي تبدأ بالصياح: توقفّي، توقفّي في الحال! لكنّ صوفي لا تلقي بالاً إلى ذلك وتواصل حركاتها فتقوم سونيا بنزع يدها، وتمشي سريعاً؛ لتبتعد عنا عدة خطوات. وعندما نصل إلى المنزل تسارع في الذهاب إلى مكتبها حتى أدعوها للعشاء. لحظتها يتحسن مزاجها، وتقول بأنها استطاعت أن تنجز بعض الأشياء، فأطلب منها أن لا تكون قاسية مع صوفي فترّد بأنها ليست قاسية، لكنّ صوفي تعرف كيف تثير غضبي.

كانت صوفي في أثناء العشاء لا تتوقف عن النظر بطرف عينها إلى سونيا، وتشمخ بأنفها وتنظر إليها بتحفّز. وبعد العشاء تلعب وحدها على مقربة من سونيا، حتى تسألها سونيا. إنْ كانت ترغب في الصلح معها.

صار والدا سونيا يكثران من زيارتنا. وكانا يدلّلان صوفي ويحضران

هدايا ثمينة لها. لكنهما كانا لا يدعان فرصة إلا، ويتحدثان عما كانت تتميّز به سونيا أيام طفولتها المبكرّة من إشراق.

قرأ والد سونيا كلّ ما وقع تحت يده من كتب تتحدث عن التبنّي وتحوّل إلى خصم عنيف له. ويبدو أنّ كتابات القسيس، الذي تحوّل إلى طبيب نفسي أثرت فيه كثيراً. قرأ والد سونيا في تلك النصوص أنّ الآباء بالتبني لا يمكن أن يشكلّوا بديلاً، أو تعويضاً عن الآباء الحقيقيين، وأن عليهم أن لا يحاولوا ذلك كما أنّ الطفل المُتبنّى لا يرضى إلا بوالديه اللذين تربطه بهما رابطة اللحم والدم. وعليه أن يعرف لماذا رفضه أبواه، فإذا عرف استطاع أن يتحرر من أصوله وأن يبني علاقة طيّبة بأبويه اللذين تبنياه.

كان والد سونيا يجلس على الكنبة فاتحاً ساقيه ويتطلّع إلينا واحداً تلو الآخر وكأنه يقول كلاماً في غاية الأهمية بعد ذلك ثبّت نظره فيّ وقال إن من الأفضل أن تقوموا برعاية صوفي، وأن تقوموا بإلغاء التبني على الفور. نهضت وقلت: هذا كلام فارغ. إنّ أحداً لا يجوز له أن يخبر سونيا إنّها طفلة متبنّاة.

لكنّ عدم معرفة الطفل بأنه مُتبنّى أمر ذو عواقب وخيمة، قال والد سونيا. فالأطفال يشعرون، عاجلاً أم آجلاً، بأنّ الأمور لا تسير على نحو طبيعي. وحالة تسورفيمي معروفة في هذا المجال. وفي هذه اللحظة انحنى الرجل، وتطلّع إلى ابنته وقال: صار تسورفيمي قاتلاً ومغتصباً.

كان قد ألقي القبض على ديتر تسورفيمي قبل عدة سنوات بعد هروب مذهل، وبعد أن ملأ اسمه صفحات الجرائد. وهو، أضاف والد

سونيا، ابن لامرأة ألمانيّة وأب بولندي كان محكوماً بالأشغال الشاقة. تخلّى الأبوان عن الطفل بعد ولادته لكنّ ذلك الطفل وجد عندما بلغ سن الحادية عشرة رسالة من أمه الحقيقية تطلب فيها من الأسرة أن تعتني بولدها الحبيب. رفض من تبنّوه أن يخبروه عن أبويه ،عند تلك اللحظة ساءت أمور الطفل تماماً، وشرع يقاوم كلّ محاولات تربيته. وعندما بلغ سن الثانية عشرة قام بأول سرقة له، عندما سرق فتى في الخامسة عشرة من عمره. أما بقية الحكاية فمعروفة لديكم، ختم والد سونيا كلامه.

لمّ أتمالك نفسي من الضحك، فسألته أتظن أنّ صوفي ستصبح قاتلة جماعية؟ وماذا تقترح علينا أن نفعل؟ هل نلقي بها في الخارج؟ وقد وجدت سونيا أنّ أباها يبالغ في كلامه، فوقفت وجلست إلى جانبي. بقي والدها هادئاً، وأرجع ظهره إلى الوراء. كنّا نعي تماماً أنّ حب صوفي يأتي في المكان الأول بالنسبة لنا، وأنها تحترم ما نقررّه بشأنها. لكنْ والد سونيا رأى أنّ من الأفضل أن نخبرها بالحقيقة بأسرع ما يمكن، وأن نمنحها الفرصة؛ لتعرف أمها وأباها الحقيقيّن. لم يكن والد سونيا يعرف، بطبيعة الحال، بأنني والد صوفي، فقد أخبرناهم بأنّ الأمر يتعلق بنوع من التبني لا يتم الكشف فيه عن هوية المتبنّين للطفلة لأمها، ولا نعرف من هم والداها الحقيقيان. وهي الآن في سن الخامسة. قلت راداً على كلامه.

فقال والد سونيا وهو يقتبس قول القسّ، إنّ تخلّي الأبوين عن الطفل؛ ليغدو طفلاً مُتبنّى هو لون من الإجهاض؛ لأنه يحرم الطفل من مكانه الطبيعي. فالأبوان الحقيقيّان يشعران، بعد موت ابنهما بالذنب وقد تتكوّن لديهما نزعة انتحارية. وهناك حالات ينتقل الشعور بالذنب

فيها من الآباء إلى الأبناء فيقدمون على الانتحار.

كنت أتمنى لو أستطيع أن أصفعه لكنني قلت إنّ هناك أسباباً وجيهة تدعو إلى أن يتخلى الآباء طوعاً عن أطفالهم؛ ليقوم غيرهم بتبنيّهم، فهناك أناس غير ميسورين مثلكم. كانت هذه هي المرة الأولى، التي أدافع عن أيفونا فيها. إنّ الفقر ليس مسوغاً للخمول العاطفي. قال والد سونيا. في تلك الأثناء جاءت صوفي، فأخذها، ووضعها فوق ركبتيه وكأنه يريد أن يحميها منا. فقلت: إذا كان هناك أحد يمكن أن يتهّم بالخمول العاطفي، فإنّه أنتم نظراً لما تتصفّون به من ضيق أفق، وحياة رتيبة ما الذي ستفعلونه إذا كان دخلكم ألف مارك شهرياً؟ بقي والد سونيا هادئاً. فلم تكن حياته دائماً على هذا المستوى من الرخاء. وهو على النقيض مني يعرف ماذا يعني أن يكون المرء فقيراً، فبعد الحرب لم يكن يعرف المرء ما الذي يمكن أن يأكله غداً. فقلت وأنا أوجه الحديث له: إن هذا لا يعطيك الحق في الحكم على الآخرين، فابتسم ابتسامة عريضة وقال: هذه هي المرة الأولى، التي أعرف فيها وجهك الاشتراكي. اعتذرت بأن لديّ بضع اتصالات ينبغي أن أجريها، وتوجّهت نحو المكتب في الطابق الأرضي.

فكرّت بأن الرجل يحتقرني دون أدنى شك جرّاء عجزي عن جعل ابنته تحمل مولوداً يضمن امتداد جيناته. كانت طريقة تعامله مع بنات كارلا تختلف تماماً عن تعامله مع صوفي. فقد كان يعاملهن بود، ويعامل صوفي بشيء من القسوة. وفي حين كان يتعامل مع حفيداته تلك باحترام ويشجعهن وينتظر الكثير منهن، كان يعامل صوفي بقدر من الإشفاق يصل حد الاحتقار. قالت سونيا ذلك يعود لكون صوفي هي الصغرى،

فقلت، ولأنها أنثى أيضاً، إن عليك أن تقومي بالدفاع عنها. لكننّا أفدنا، على الأقل، أنّ فكرة التبنّي صارت محرّمة لا نقاش حولها.

صرت كلمّا أمعنت في معارضة والد سونيا، يكون للمعارضة مردود إيجابي إلاّ أنني كنت أعجب لأنّ إيفونا لم تتّصل بنا على الإطلاق. كان عليها أن تدرك أنني لن أمنعها من رؤية صوفي، ولن أعارض في أن تقضي صوفي معها، تحت أية ذريعة، ظهر يوم من الأيام بين الحين والآخر. وكلمّا أنعمت النظر في تصرف إيفونا، يتبّدى لي أنه يخلو من العاطفة. كانت سونيا تلتزم الصمت عندما أذكر إيفونا إلاّ أنه صار بوسعنا أن نناقش أشياء كثيرة على نحو أفضل مما سبق.وإذا كانت علاقتنا قد غدت موضوعية أكثر من ذي قبل، فإنها أخذت بعداً نوعياً مختلفاً من خلال مسؤوليتنا المشتركة.

كانت صوفي هي المشروع الأكثر تحدياً لنا، فقد كانت طفلة صعبة المراس، ذات إرادة قوية، لكنها لا تعبّر عنها، كبقية الأطفال، بالصياح والعناد. فإذا طلبنا منها أن تكون مطيعة لنا، تطلعت إلينا بصمت وفعلت ما تريد ونحن لم نبتعد بعد.

كنّا بالمجمل سعداء؛ لأن صوفي لا تحتاج إلى الكثير من الرعاية، ولأنها تكون سعيدة إذا لم يزعجها أحد أو يطلب منها شيئاً.

لم تتمكنّ صوفي من الدخول إلى المدرسة، فقد قالت معلمة الروضة بأنها غير ناضجة عاطفياً بما يكفي. غضبت سونيا كثيراً، وجاءت بعد عدة أيام ومعها الأوراق المطلوبة من إحدى مدارس في ڤالدورف. لم أكن متحمساً لهذه المدارس فما أعرفه عن مؤسسها رودلف شتاينر[1]

(1) تُسمى هذه المدارس في ألمانيا Friewalddorfschulen أسسها رودلف شتاين (1861–1925). وقد بدأ شتاين بتأسيسها في سنوات التحول بعد الحرب العالمية الأولى.

كان يبعث على الشك، كما أنّ رؤيته للعمارة ضعيفة في أحسن التقديرات. وإذا كان أحدهم قد وصفه بأنه معلّم مدرسة القرية، فإنني أجدها تسمية دقيقة تماماً ففي علم الهندسة ما يزالون يأخذون بنماذج قديمة مثل نموذج التشابك الزخرفي. أتعرفين ماذا يعني هذا؟ هزّت سونيا رأسها نافية وقالت: إنه ليس مناسباً بالتأكيد. فحدثتها عن التناغم وهو ترجمة أشكال اللغة إلى حركة. ثم تطلعت إليّ سونيا هذا يقتصر على البداية قالت. وهناك ميّزة الدوام المدرسي، الذي يمتد طيلة النهار كما أن الغذاء المقّدم للطلبة صحيّ تماماً.

ذهبنا مع صوفي ورأينا المدرسة، فبدا الارتياح على صوفي منذ اللحظة الأولى. قادتنا امرأة متقدّمة في السن، وتجوّلنا معها بين مباني المدرسة ومرافقها. كانت المرأة ترتدي قميصاً قصير الأكمام كتب عليه: إنّني قادرة على جعل اسمي يرقص. نظرت إلى سونيا وابتسمت ابتسامة عريضة، فأشارت إليّ بأنّ عليّ أصمت.

في تلك الأثناء قرأت الكثير عن رودلف شتاينر، وقمت بطرح عدد من الأسئلة على مدير المدرسة، لكنّه أجاب عنها على نحو مراوغ، فشعرت بأنّ هناك مسافة قوية تفصله عن أفكار معلّمه المبهمة. قررّنا، في خاتمة المطاف، أن نرسل صوفي على سبيل التجربة إلى المدرسة.

كان مكتبنا يسير سيراً حسناً. كنّا قد حصرنا عملنا في بناء المدارس والمساكن للطبقات محدودة الدخل، وكان لدينا الكثير من المهمات وقد شكّلت مع سونيا فريقاً ناجحاً في أية علاقة عمل. صار توزيع العمل أكثر تنظيما من ذي قبل، فلم أمارس الرسم التصميمي منذ سنوات. كنت أحضر، في بعض الأحيان، أوراقي القديمة ومشاريعي، التي أنجزتها

وأنا طالب في الجامعة، كما كنت أحضر الأعمال، التي كنّا نقدمها للمنافسة أيام أنشأنا مكتبنا. كانت غالبية ذلك تبدو لي مبتذلة على نحو رهيب. ومع ذلك فقد كنت أحس في تلك التصميمات الهندسية، أنه كان لدي الرغبة والتصميم، في كل زمان على أن أشّق طريقاً جديدة. لم تكن لديّ في تلك الأيام أشياء مقدسة، كما أنني لم أكن أرى أنّ هناك مستحيلاً. وعلى الرغم مما تتميّز به تلك الأعمال من محدودية، فإن فيها شيئاً من الصدق، وشيئاً من النضارة، صارت رسوماتنا تخلو منها في هذه الأيام، إنني أنظر إلى فن العمارة كما نظر إليه بولييه[1] من قبل، الذي اعتمد على الإشارات، دون أن يتولّد لديه الطموح في تحقيق شيء منها في عالم الواقع.

ففي العالم المتخيّل فحسب، يمتلك المرء الحرية، التي يستطيع بوساطتها أن يصنع المخططات والرسومات، كما يتصوّرها تماماً. شرعت، في أوقات المساء، بالرسم، فكنت أرسم في الغالب غرفاً داخلية أكبر من المعتاد، وقاعات فارغة ذات تأثيرات ضوئية درامية، ومبان مقدّسة ومتاهات ومنشآت تحت الأرض. لم أطلع سونيا على تلك الرسومات، ولو رأتها لعدّتني مجنوناً، كما أنني لم أتعامل مع تلك الرسومات بجدّية.

كنت أشعر بالراحة. وكنت احب أن أذهب إلى ورش البناء؛ لألتقي هناك بالبنائيّن والمختصّين في التنفيذ؛ لأناقشهم، ولأرى كيف تتحول مخططاتنا إلى واقع. كانت سونيا تردّد بين الحين والآخر، بأنها تتمنى أن

(1) الإشارة إلى Etienne-Louis Boullèé (1728–1799) الذي ينتمي إلى الكلاسيكيين الجدد في ميدان العمارة وهو ذو تأثير عميق في هذا المجال.

يكون لدينا مموّل قوّي، لكنّها كانت في المجمل سعيدة. وقد استطاعت الوسائل المحدودة والمعطيات القليلة أن تستثير قدرة سونيا الإبداعية ولست أظن في انّها كانت ستسعد لو كانت تعمل في مكتب معماري لأحد المشاهير. وقد تمكنت بعض المتدربات في مكتبنا أن يحققن إمكانية العمل في الخارج؛ كانت هايكي، وهي امرأة موهوبة من شمال ألمانيا، قضت مدة التدريب الإلزامي في مكتبنا، وذهبت بعد حصولها على الماجستير إلى نورمان فوستر[1] في لندن. وعندما زارتنا ذات مرّة، تحدّثت عن عملها فهي تعيش وحيدة في مكان ضيق، وليس لها أية علاقات أو أصدقاء خارج المكتب، الذي تعمل فيه. في أثناء حديث هايكي، بدأت عينا سونيا تلمعان، وسألتها العديد من الأسئلة وكانت تريد منها إجابات محدّدة. قلت لها إنّ هذه الحياة تبدو وكأنها حياة إحدى الراهبات، ضحكت هايكي وقالت: هذا صحيح نسبياً، وليس ينقصني إلا مراسيم الدخول في الرهبنة.

صار مجموع العاملين معنا في المكتب يزيد على عشرين شخصاً. وقد تمكنّا في المدة الأخيرة من إيجاد فضاءات جديدة في شركة قديمة أعدنا بناءها في ضوء تصوراتنا. وقد أهديت في لحظة الافتتاح لسونيا القول التالي المنسوب إلى لكوربوزييه: كلّ شيء مختلف، كل شي جديد، كل شيء جميل. وقد علقت سونيا الجملة فوق مكتبها وقالت بان كل شيء يسير، كما ينبغي له أن يسير.

بدأت الأزمة في مكتبنا متأخرة عنها عند الآخرين، فقد بدأت هذه

(1) تشير الرواية إلى نورمان فوستر (1935–) وهو واحد من أشهر المعماريين الإنجليز ومصمّم عدد من أشهر الجسور والمؤسسات في بريطانيا وأوروبا.

الأزمة بالزحف التدريجي. في بادئ الأمر كنت وفريق العمل، الذي يعمل معي لا نكاد نستطيع أن ننجز ما بين أيدينا من عمل، لكننا لم نتمكّن من الحصول على عقود جديدة. لم نشعر بالاستياء في البداية جرّاء هذا الفراغ. فقد قالت سونيا بأنه صار لديها ما يكفي من الوقت؛ لتعيد بناء أفكارها الأساسية، ولتقرأ وتشارك في المسابقات الفكرية. لكنّ علينا أن ندفع أجر العاملين وإيجار المكتب. حاولت أن أحمل العبء وحدي بعيداً عن سونيا. لكن العبء أصابها على الرغم من محاولاتي. كان علينا أن ننهي عقود بعض العاملين في المكتب. رجوت سونيا أن تتولى هذه المهمّة، فقد كانوا يعملون معها ويحبونها أكثر من حبّهم لي. تمّ الاستغناء عن العاملين على المكتب الأول وجرى تأجير جزء من المبنى، وساد في المكتب جو من الإحباط.

لاحظت أنه يجري الهمس وراء ظهورنا وقد أخبرتني سكرتيرتي عن الموضوعات، التي يجري الهمس فيها. لقد كانوا متفقين على أننا وسونيا نتقاضى أجوراً عالية جداً، وأننا اعتدنا على طريقة حياة مترفة. أتؤمنين أنت بذلك أيضاً؟ سألتها. لا. طبعاً قالت، فأنا أرى ما تبذلونه من جهد في العمل. دعونا بعدها لاجتماع يضم العاملين ووضعنا المعلومات المتعلّقة بالمصروفات أمام الجميع صمت الهمس بعدها لكنّ المزاج العام لم يتحسّن.

أضرّت الحالة بصحتنا، وأثرّت فيها تأثيراً سلبياً. أصيبت سونيا بطفح جلدي، أجبرها على البقاء في البيت عدة أسابيع، وعاودني وجع الظهر، بعد سنوات طويلة من الراحة من معاناته. كنت أمارس الرسم لوقت متأخر ليلاً، وفي الصباح لا تكون لديّ القدرة على أن أنهض من

فراشي، لأكون في أثناء وجودي في المكتب نهاراً متعباً ومرهقاً تماماً.

كان الحر شديداً في بداية حزيران. كنت قد أمضيت النهار بأكمله في إحدى ورشات العمل، وذهبت بعدها مع البنّاء إلى إحدى الحانات جلست فوق مقعد ليس له مَسْند، وكان ظهري يؤلمني. كانت الحانة مليئة بشباب وسيمين، يرتدون ملابس خفيفة تغري المرء بالانتقال إلى حانات أخرى، وإلى دور السينما والمسارح. شعرت بأنني لم أخرج منذ وقت طويل، وداهمني شعور بأنّ الكثير قد فاتني. اشتقت إلى الحياة البسيطة للطلبة، فبدلاً من أجلس مع امرأة جميلة، أجدني جالساً مع ممثل السلطة المدرسية؛ لنناقش تعليمات السلامة من الحريق، وطرق النجاة الآمنة. شعرت بالملل فاحتسيت بسرعة كمية كبيرة من الشراب، وما أن تخلصت من البّناء حتى كنت ثملاً.

تركت السيارة في المدينة وركبت قطار الأنفاق واتجهت نحو المنزل. كانت سونيا لم تنم بعد، وتجلس في غرفة المعيشة. وضعتْ الكتاب، الذي كانت تقرأ فيه جانباً، وأخذت تتحدث عن مشكلة صوفي مع طالب من زملائها. أخبرتها بأنني مرهق، فشَكتْ بأنها أصبحت تتحمل مسؤولية كل شيء. كنت أشعر بالإعياء إلى درجة لا أستطيع فيها أن أتشاجر مع سونيا، فتوجهت نحو السرير، وأنا أقول بأننا سنناقش المسألة في نهاية الأسبوع.

استيقظت ليلاً على ألم رهيب في أسناني. كانت الساعة الثالثة فجراً. تناولت حبة أسبرين، وجلست أمام التلفزيون في غرفة المعيشة، شاهدت إعادة لبرنامج حواري يتحدث المشاركون فيه بالتتابع على نحو بدائي. لا أتذكر موضوع الحوار، لكنني لا أنسى الوجوه القبيحة المنقبضة

والغاضبة. صرت أفكر بأنّ ما نمتلك من حضارة ليس إلا قشوراً سرعان ما تزول عندما ينفجر ألمنا، أو كراهيتنا، أو قسوتنا. أغلقت التلفزيون وأنا أشعر بالاشمئزاز، وأحضرت من المطبخ كأساً من الماء البارد. لم يكن لحبة الإسبرين أي مفعول، لكن الماء البارد، على ما يبدو، خفف الألم على نحو مؤقت. جلست على الكنبة وشربت كأس الماء جرعة فجرعة وأنا انتظر قدوم الصباح.

أخبرني طبيب الأسنان أن الجذور ملتهبة، وأن عليه أن يضع لي سنّاً صناعياً، فقام بعزل العصب وصنع عصباً مؤقتاً، وقررَّ أن يراقب تطورات الأمور في مدة لا تزيد على شهر.

وصف لي الطبيب مسكنّاً قويّاً، فخفف آلامي، لكنّ السن المؤقّت بقي يشكل مضايقة مستمرة لي. كنت لا أكفّ عن لمسه بلساني، وكان السّن يبدو لي ضخماً. وقد أصابني بالإحباط تخيّل فقداني لسّن من أسناني وهو فقدان ظل يذكرّني بقابليتي للفناء.

اتصلت بي سكرتيرتي في أثناء عودتي إلى المنزل؛ لتخبرني عن وجود مشكلات في إحدى الورش المعمارية، فقداستخدم البنّاء، الذي بنى الواجهة القالب الخطأ وهو يزعم بأن التصميم المعماري، الذي قدمناه ليس صلباً بما يكفي. أنهيت المكالمة بسرعة وطلبت منها أن تتصل بمهندس الإنشاءات، وقلت لها إذا كان الأمر لا يسير دون أن أكون موجوداً، فلماذا أُجبر على دفع أجور عشرين فرداً؟ بل أربعة عشر فرداً ردّت السكرتيرة باحتقار وأغلقت سمّاعة الهاتف.

لم يتحسّن مزاجي في الأيام التي تلت، كان يطاردني شعور بالخطر، لم يتراجع حتى عندما كنت أحتسي النبيذ مساءً. كانت سونيا تعمل

للاشتراك في مسابقة، وكان عليها أن تسلّم المخططّات في غضون بضعة أيام، لكنّها انسحبت وهو أمر لم تعتد سونيا عليه.

هذه المرّة تحمّلت وحدي ما يجري، وتعرّضت لشيء من الاكتئاب. كان على صوفي أن تشعر بهذا المزاج السيّئ الذي يسود الأجواء، فكانت تلّح في طلب أمّها، وترد بعناد على ما أقوله لها. كنت أحاول أن أجادلها لكنّ هذا الجدال كان يجعل الأمور تزداد سوءاً. وعندما كنت أغضب. كانت صوفي تبدأ بالصراخ، وتتمرّغ فوق الأرض كطفل صغير. هدّدتها بكل شيء ممكن، لكن تهديداتي ذهبت أدراج الرياح. كدت أقوم بضربها ذات مرّة، لكنني سرعان ما كنت أصاب بتأنيب الضمير عندما تذهب إلى السرير وأخجل من فشلي.

في هذه الفترة، على وجه التقريب، بدأت انشغل بإيفونا ثانية. كان ذلك اليوم الواقع في بدايات فصل الصيف حارّاً، كانت سونيا ما تزال في مكتبها، وكنت قد أحضرت صوفي من المدرسة، وتناولتْ ما أعددته لها من عشاء خفيف. وأخذتها إلى سريرها. بعدها جلست على الشرفة الصغيرة أمام المنزل، ودخنّت سيجارة. كان المذياع يعلن عن سقوط أمطار في الليل وكان الهواء رطباً، وقد أخذ البرق يلمع بين الغيوم السود فوق الجبال وكأنه ينذر بعاصفة كما كانت مصابيح الإنذار، على الشاطئ، تضيء مع أنّ الريح ما تزال هادئة. جاءت بعد ذلك طلائع الرياح، ودّوى صوت الباب، وخرج الجيران سريعاً من المنزل وجمعوا بسرعة أدوات لعب الأطفال المتفرقة بين الأعشاب وعادوا سريعاً إلى المنزل.

خرجتْ صوفي من غرفتها وهي تقول بأنها لا تستطيع أن تنام فهي

تخاف من الرعد، فأرجعتها إلى سريرها ثانية. وعندما قلت لها تصبحين على خير سألتني إن كنت سأذهب إلى خارج المنزل، فوعدتها بأنني لن أفعل.

كان الهواء داخل المنزل ثقيلاً وهادئاً إلى حدّ بعيد. نظرت إلى البعيد وصعدت صوب غرفة صوفي ثانية، التي كانت نائمة. وقد أزاحت الغطاء عنها بعيداً،0 واحتضنت واحدة من ألعابها القماشيّة الطرية، وضعتُ الغطاء فوقها وعدت إلى غرفة المعيشة.

لم أكن قد أحسست بالتعب لحظتها إلى درجة تدفعني للذهاب إلى السرير؛ لأنام، لكنني كنت مرهقاً إلى حد لا أستطيع معه القراءة أو الرسم. ثم خطر ببالي أن سونيا قد سألتني عن دليل خاص بأحد المعارض كانت قد رأته قبل سنوات، بحثت عنه لكني لم أستطع العثور عليه، فقد كان، في أغلب الظن، في المكتب. في أسفل الرف كان يوجد ألبوم الصور القديم الخاص بسونيا، إلى جوار المجلّدات الفنيّة. في بداية علاقتنا أرتني سونيا الصور الخاصة بطفولتها، وبأقربائها البعيدين، وأصدقائها الذين لم تعد لها علاقة بهم ولم يسبق لها أن تحدّثت عنهم. وكان يبدو وكأنها قد أنهت مهمتها التاريخية عندما ألصقت هذه الصور. بعد ذلك انضم إلى هذا الألبوم ألبومات صور أخرى خاصة بحفل زفافنا وطفولة صوفي. أما في السنوات الأخيرة فقد تراجع عدد الصور وصار نادراً. وغدت الصور حبيسة مغلفاتها وحبيسة الجارور. وصرت أشك أننا سنقوم بتثبيتها في ألبوم ذات يوم. تأملت ألبوم حفل الزفاف والصور الخاصة برحلتنا إلى مرسيليا، وبعض اللقطات المعمارية الواضحة ذات الحجم المتوسط. كانت الصور تخلو من البشر تقريباً.

وقد بدأت أتذكر كيف كنا نتنقّل في أرجاء مرسيليا، وكيف أقف أمام المبنى، الذي تريد سونيا تصويره وقفه تحد، وكيف كانت تقول لي ضاحكة: هيا ابتعد، فأنا أستطيع تصويرك في ميونيخ ولم يكن ذلك يزعجني. في نهاية الألبوم توجد الصور، التي التقطتها لسونيا وهي نائمة ولم تقم سونيا بتثبيتها في الألبوم، مع أنّها هي الصور الوحيدة، التي تستحق الذكر في تلك الرحلة. تساءلت، إن كنت قد أحببت سونيا بصدق، لكنها كانت تبدو رائعة الجمال في الصور بحيث بدا السؤال من لزوم ما لا يلزم.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة. سحبت الألبوم الثاني الموجود على الرف. كان الألبوم خاصا بأيام الدراسة، ولم أكن متأكداً أنني قلّبت صفحاته من قبل. كان الألبوم مزيجاً من الحفلات والرحلات والحفل الخاص بالتخرج. لم يتم التقاط تلك الصور بكاميرات سونيا الراقية، لهذا جاءت الصور صغيرة وكان الفلاش يبدو واضحاً على الأوجه في حين تبدو الخلفية معتمة. وبدا لي أنّ معظم الصور تنتمي إلى زمن لم نكن فيه قد بدأنا علاقتنا. كنّا نتحرك بين مجموعات بعضها لا أعرفها في حين لا أعرف الآخرين إلا معرفة وجوه. ولم أعرف كذلك المقاهي، التي التقطت الصور فيها. هناك صور لسونيا وروديغر يرقصان معاً، أو يتعانقان وتبدو على وجهيهما ملامح مبالغة وابتسامة للمصور.

بدت سونيا شابة وبدت على محيّاها ملامح مرح لم أعرفه لديها، ولم أكن اعتقد بوجوده عندها. وقد شعرت بشيء من الحسد نحوها، كما حسدت روديغر على حبّها له. فقد كانت مرحلة الدراسة الخاصة بي خالية من الذكريات السعيدة، كان عليّ يومها أن أعمل من أجل

الحصول على المال، أما عند المساء فقد كنا نجلس في الحانات ونتناقش حول السياسة، والضمان الاجتماعي، وفن العمارة بدلاً من أن نحتفل كما كان يفعل الآخرون. لكنّني ما أزال أتذكر بوضوح حفلة بعينها، كانت تلك الحفلة في السنة الأخيرة من سنوات الدراسة، وقد أقيمت قبيل الامتحانات. «ميلاد الربيع» كان هذا هو شعار الاحتفال وهو الشعار، الذي كتب في الألبوم كذلك. كان هناك صور للطّلاب في أزياء مضحكة، وهم يحتشدون أمام الكاميرا في أوضاع مختلفة. وهم يعون أنهم سيتفرقون عما قريب. وجدتني واقفاً بين روديغر وفردي وزميل آخر نسيت اسمه. كانت إيفونا تقف وراء هذه الأعداد الغفيرة من الطلبة. أدركت أنها هي تماماً مع أنّ وجهها لم يكن ليُرى في الصورة بوضوح. عرفتها من خلال وقفتها، ومن خلال كتفيها المعلقتين، ومن خلال شعرها المتساقط فوق عينيها. كانت إيفونا تقف وحيدة وكانت تبدو وكأنها صنعت فجوة بينها وبين هذا الهرج والمرج، وكأن الجميع بعيدون عنها. كانت تبدو في عينها بعض النقاط الحمر، وكان لدي الإحساس بأنها تنظر صوبي.

صحت صوفي مبكرّة وجاءت إلى غرفة نومنا ولم تتركنا نرتاح حتى نهضنا من السرير. قلت لسونيا إنّ بوسعها أن تنام قليلاً، فقالت بأنّ عليّ عندئذ أن لا أدعها تنام حتى وقت متأخر جداً، ثم واصلت نومها.

وعندما وصلت القطّة ماتيلدا إلى المنزل، حملتها صوفي ومسّدت على شعرها وقبّلتها. كنت أريد أن اعتذر لصوفي بأنّني أسرفت في ردّة فعلي وأنه ما كان ينبغي أن آخذها إلى سريرها دون أن تتناول طعام العشاء، لكنّ صوفي تكون في العادة، بعد أن نتشاجر، مطواعة وطيّبة لدرجة لم أحتج فيها أن أتحدث، فاستمتعت بالسلام، الذي حلّ بيننا.

هيا، قلت لصوفي، سنذهب؛ لنشتري الخبز، ارتدي ملابس دافئة!

كان الجوّ في الصباح ضبّابياً وبارداً، لدرجة أنّ أنفاسنا كانت تتكثّف وتبدو في الغالب وكأنها أنفاس كبيرة. أمسكت صوفي بيدي، ونادراً ما كانت تفعل، فنزلنا الجبل معاً إلى المخبز اليتيم، الذي يفتح أبوابه يوم الأحد في مثل هذا الوقت.

سألتني صوفي ونحن في الطريق المنزلي إذا كان ما كنت أحب الضباب؟ أجل. قلت وماذا عنك؟ وأنا أيضاً. فسألتني إن كنت أريد الرحيل إلى مرسيليا. فقلت لها كيف خطرت لك هذه الفكرة؟ فردت بأن أمها سألتها إن كانت قادرة على أن تتصور أن تعيش هناك. وماذا قلت لها يا ترى؟ هزّت صوفي كتفيها. قلت لصوفي بأن مرسيليا مدينة جميلة، لكنني لا أحب أن أعيش فيها. وأنا كذلك أجابت صوفي. قلت لها بأنك تقولين لي ما أحبّ سماعه. لا. قالت فنحن نملك ذوقاً متشابهاً.

كانت سونيا قد استيقظت عندما عدنا إلى المنزل، وقد بدأت بإعداد طعام الإفطار في المطبخ. جلست على المائدة وأخذت انظر إليها، وهي تقوم بتقطيع الخبز. تناولتُ النقانق والجبن من الثلاجة ووضعتها في أحد الصحون. وسلقت بيضاً وسكبت القهوة. طلبت من سونيا أن تقوم بوضع أدوات الطعام على المائدة سألتني إن كنت أرغب في كأس طازج من عصير البرتقال. ماذا جرى لك؟ سألتني، إنّك تبدو وكأنك شاهدت شبحاً من الأشباح. قلت لها بأنني مرهق قليلاً. فقد تحدثت طويلاً مع أنتشه، ولم أتمكن بعد ذلك من النوم. بدت سونيا، هي الأخرى، وكأنها لم تنم جيّداً، فاستدارت سريعاً لدرجة أنني تساءلت إن كانت قد استطاعت أن تخّمن الموضوع، الذي كنا نتحدث فيه. فكّرتُ بالسؤال، الذي كانت أنتشه قد وجهّته لي يوم الافتتاح، وهو إن كنت قد أحببت سونيا. تساءلتُ بدوري إن كانت سونيا قد أحبتّني. لقد سبق لها أن قارنت علاقتنا ببيت من البيوت، اشتركنا في بنائه، وهي لا تعني بيتاً بعينه، بقدر ما تتّحدث عن أمر نشأ ثمرة لإرادتنا المشتركة. في هذا البيت هناك العديد من الغرف، قالت سونيا، غرفة طعام، وغرفة نوم، وغرفة للأطفال، ومخزن لذكرياتنا المشتركة. وماذا عن القبو يا ترى؟ فاكتفت بالضحك.

طلبت سونيا مني أن أرى أنتشه، فسألتها إن كان من الأفضل أن نتركها نائمة. ردت سونيا بأن أنتشه تريد، على وجه اليقين، أن تتناول طعام الإفطار معنا، ما لم تكن وحيدة. قلت بأن الوحدة ليست عبئاً عليها. فقالت سونيا: إياك أن تنخدع، فلا أحد يحبّ أن يبقى وحيداً. نزلت إلى الطابق الأرضي، وقرعت باب غرفة الضيوف. نعم. قالت

أنتشه، فدخلت. كانت ترقد فوق الأرض وهي ترتدي بنطالاً رياضياً وتقوم ببعض التمرينات. لم يكن جسدها يبدو جسد امرأة في الستّين من عمرها. أخبرتها بأن الإفطار جاهز.

مدت يدها نحوي فساعدتها على النهوض. سآتي في الحال، قالت وهي لا تكاد تقوى على التنفس، سآخذ حماماً سريعاً. سألتها إنْ كانت تمارس التمرينات الرياضية كل صباح؟ فردّت بسخرية بأن لديها عاشقاً شاباً، وأنه ينبغي أن تحافظ على قوامها. ما عمره يا ترى؟ إنه في نصف عمري. قالت وهي ترفع حواجبها إلى الأعلى. إنه وحش صغير. وهل تعشقينه؟ ضحكت أنتشه وقالت: عندما أكون معه. لكنّني في الواقع لا أفتقده عندما يغيب؛ فهو طيّب وبسيط، وهو تماماً كما سبق لي أن تمنيّت. وهل هو كذلك حقاً؟ سألتها. ابتسمتْ وقالت: هذا ما أظنّه، لكنه من جيل مختلف وعلينا أن لا نخدع أنفسنا، بعدها صارت ابتسامة أنتشه حزينة، في ذات يوم سيمّلني ويبحث عن امرأة أخرى. ثم فكّرتْ قليلاً وأضافتْ: نحن نضحك كثيراً. أتدري؟ وضعت يديها على نحو متصالب، ودفعت بصدرها إلى الأمام فربتّ على شعرها القصير بنعومة، فقالت هيّا أخرج وإلّا أمسكت زوجتك الغيور بعنقي.

لم يتلاش الضباب في هذا اليوم وبقينا جالسين على المائدة طويلاً. كانت صوفي في غرفتها تحل الواجبات المدرسية المطلوب.

سألتني سونيا عن مشروعاتي، فتساءلت إن كانتا تريدان الخلاص مني، فأطرقت سونيا وقالت: ذكريات قديمة. لم أصدّقها، فقد كانت سونيا آخر من يهتم بالماضي. سأكون في المكتب. واتجهت صوب الطابق السفلي.

كان باب غرفة الضيوف مفتوحاً، فبقيت واقفاً استرق السمع للأصوات المنخفضة، للمرأتين قادمة من الطابق العلوي. بعدها دخلت. كانت حقيبة السفر الخاصة بأنتشه مفتوحة على وسعها، وملقاة على الأرض، وعلى حزام الحقيبة، عُلّقت البطاقة، التي تحمل رمز مطار ميونيخ. إلى جانب الحقيبة كانت ملابس أنتشه الرياضية ملقاة بإهمال وإلى جانب تلك الملابس رواية سيمنون[1] الغرفة الزرقاء، الرديئة. مددت يدي، وأبعدت الملابس الموجودة في الأعلى ونحيّتها جانباً. وجدت أسفل الملابس مجموعة متشابكة من الملابس الداخلية وحقيبة شفافة من السوق الحرة من مرسيليا فيها زجاجة فودكا سويدية، وجهاز لشحن الهاتف الخلوي. وفي أسفل الحقيبة عثرت على كراسة رسم، رفعتها وقلّبتها فكانت خالية.

كانت أدوات الأكسسوار الخاصة بأنتشه موجودة في حمّام الضيوف، وهي فيض من الزجاجات، والعلب الصغيرة. أخذت أقرأ أسماء المنتجات الخاصة بكريمات الجلد، والمساحيق، والشامبوهات ومعجون الأسنان الخاص بالأسنان الحساسة، وعدسات لاصقة وأسبرين وحبوب لعسر الهضم.

وقفت عند نافذة غرفة الضيوف ورفعت الستائر المعدنية إلى الأعلى. تأملت الضباب فوجدته كثيفاً مقارنة بالأيام السابقة. بدا لي كل شيء معاصراً، وأحسست بأن كلّ شيء ممكن، كأنْ أغادر المنزل ثم لا أعود أبداً إليه. كان ذلك الإحساس مخيفاً وباعثاً على التحرر في الوقت ذاته.

---

(1) يشار هنا إلى الروائي البلجيكي كريستيان سيمنون (1903–1989)، الذي نشر ما يقرب من عشرين رواية. وقد اخترع شخصية ميغريت في روايات الجريمة، التي كتبها، والذي كان ضابط بوليس شرطة. وقد صدرت الغرفة الزرقاء عام 1964.

ارتديت معطفي وذهبت إلى الخارج، وجدت مدخل المنزل، الذي كنت نظفته بالأمس غاصاً بالأوراق الذابلة، مشيت على امتداد الشارع ببطء وبلا هدف. تذكرت على وجه التحديد المرّة الأخيرة، التي راودني فيها ذلك الشعور الخطر بالحريّة. كان ذلك في صباح الليلة الأولى، التي قضيتها مع إيفونا، عندما وقفت أمام السكنّ الخاص بها، وكانت العصافير تغرد بأصوات مرتفعة تماماً، وشعرت بأنني صرت راشداً بما يكفي؛ لأتحكم بمجريات حياتي.

بدا لي الأمر وكأنني كنت أسير داخل النفق وتمكنّت أخيراً من الخروج منه وها أنذا أقف في مساحة واسعة، وأستطيع أن أذهب في الاتجاه الذي أريده.

كان الشارع ينتهي بنقطة رجوع، وهناك كانت مساحة عشبية واسعة ترعى فيها بعض البقرات، ويفصلها عن المكان حاجز كهربائي. كانت البقرات مخفيّة في الضباب، وعندما وقفت على الحاجز رفعتْ إحدى البقرات رأسها ونظرتْ إليّ سريعاً، وركضت نحوي، لكنّها سرعان ما عادت إلى الوراء. من البعيد كان يجيء إلى سمعي صوت أوراق الأشجار الصفراء، وأصوات أجراس الكنائس، التي كانت تعلن عن الساعة العاشرة صباحاً.

سمعت صوت خطوات ورائي فاستدرت فإذا بها أنتشه، التي وقفت إلى جواري وهي تتأمل البقرات. إنها تستعصي على الرسم قالت سونيا، وبخاصة الجزء الخلفي منها. سألتها عن سونيا فلم تجب. ألا تريد أن تكمل لي بقية حكايتك؟ سالتْ أنتشه. هيا بنا قلت لها، فأنا أستطيع أن أحكي ذلك على نحو أجمل ونحن نتمشّى.

وضعت أنتشه ذراعها بذراعي، وسرنا باتجاه وسط المدينة. حدثتها عن بدايات الأزمة، كانت تلك هي المرة الأولى، التي يتراجع فيها مكتبنا الهندسي، ولعل ذلك هو ما جعلني أشعر بالإحباط. كنا من قبل نمر بفترات صعبة، لكننا كنا نمتلك هدفاً، كنا نعتقد أننا سنبلغه ذات يوم. لكنني بدأت منذ ثلاث سنوات أشعر أن الأمور يمكن أن تسوء. ولعلني من أجل ذلك بدأت أفكر بإيفونا ثانية ،التي صدف أن رأيت لها صورة في أحد ألبومات سونيا، وهي صورة التقطت لها في إحدى الحفلات، ويصعب أن تراها فيها بدّقة.

أخرجت محفظتي من جيبي، وأريتها الصورة. صارت إيفونا هدفاً ينبغي أن أحققّه. إنّ عليّ أن أجدها، ولست أدري بماذا أعد نفسي عندما أتمكن من تحقيق ذلك.

لم يكن من السهل أن أعثر على عنوان إيفونا، فلم يكن لها اسم في دليل الهاتف، وقد أعلمتني القنصلية البولندية بأنه يتعذّر الحصول على عنوانها ما لم تكن مسجّلة في الدوائر المعنيّة. أما في العمارة، التي كانت تقيم في إحدى شققها، فلا أحد يعرف اسمها ولعلها كانت قد استأجرت شقتها عن طريق شخص آخر. اتصلت بالبعثة البولندية، فطلبت مني السيدة، التي أجابت على اتصالي الهاتفي أنْ أمرَّ بالبعثة.

كانت البعثة موجودة في مبنى متواضع. قرعت الجرس، ففتحت لي امرأة طيّبة، لعلها في حوالي الخمسين من عمرها. قدّمت نفسي لها، وذكرتْ هي اسمها كذلك، لكنني سرعان ما نسيته. بعدها قادتني إلى مكتبها. كانت شمس حزيران ساطعة في الخارج، لكنّ الأضواء في داخل المبنى كانت خافتة مع أن الغرفة شديدة العلو.

جلستْ السيدة وراء مكتبها، وأشارت إلى كرسي، يبدو كأنّه من عالم الأثاث المستعمل. أنت محظوظ، قالت المرأة. فالأمور هادئة صباح اليوم هنا. سألتها عن طبيعة عملها، فحكت عن المشكلات، التي يعاني منها مواطنوها في ألمانيا، كالأجور القليلة المضحكة، وأوقات العمل الطويلة وسوء الاستغلال. لم أكن أعرف أن هناك عدداً ضخماً من البولنديين يعيشون هنا. قالت السيدة بأن عددهم يبلغ قرابة عشرة آلاف شخص، ولعل هذا العدد في تزايد في هذه الآونة. قلت.

لم تكن السيدة تعتقد أن دخول بولندا في الاتّحاد الأوروبي يمكن أن يؤدّي إلى تغيير الأوضاع بالنسبة لهم؛ فالنساء البولنديات، اللواتي يعملن دون تراخيص عمل، لا يردن أن يقمن بتسجيل أنفسهن حتى لا يدفعن شيئاً بسيطاً من أجورهن مقابل التأمين الاجتماعي. فغالبية النساء

يفضلن البقاء غير القانوني هنا.

كنت قد اخترعت حكاية لأرويها، لكنّ المرأة بدتْ رقيقة، ومتفهّمة إلى درجة جعلتني أصمّم على أن أقول لها الحقيقة. استمعتْ إليّ باهتمام، وأنا أوضح لها الأمور الضرورية، وختمتْ حديثي بالقول بأنني لستُ فخوراً بما قمت به. كنت أنتظر منها أن تقول بأنّ ما فعلته هو الأفضل بالنسبة للطفلة، لكنّها اكتفت بالإطراق. وعندما قلت أنا ذلك، قالت بأنّ أحداً لا يدري في الواقع. أخبرتها بأنني أرغب في إعادة الاتصال مع إيفونا. لأخبرها أنّ أمور صوفي تسير على ما يرام، ولأمنحها فرصة رؤيتها. لماذا الآن تحديداً؟ سألتني السيدة. ولم أستطع أن أقول شيئاً. آمل أنك لا تريد أن ترضي ضميرك بذلك. قالت الموظفة، وهي تتجه صوب خزانة مملوءة بالملفات. ما اسمها لو سمحت؟ فناولتها شهادة الميلاد الخاصة بصوفي.

استغرق البحث مدة طويلة من الوقت، بعدها قامت الموظّفة باستخراج ملّفً رقيقً من حافظة الملفات. كانت إيفونا هنا قبل ثلاث سنوات، وكانت تحتاج إلى مال؛ لإجراء عملية جراحية. ولما كنا لا نملك المال، فليس في وسعنا سوى إسداء النصيحة، فقمنا بتحويلها إلى أحد الأطباء، الذين يقومون بمعالجة المرضى دون أن يكون هؤلاء حاصلين على إذن بالإقامة لهم في البلاد.

لقد تركتْ إيفونا، قالت الموظفة، عنوانها، لكنّها لا تدري إن كان العنوان ما يزال هو لم يتغيّر. أما عن رقم الهاتف الخاص بإيفونا فهو غير موجود. تردّدت الموظفة قليلاً، ثم قامت بتدوين العنوان على ورقة صغيرة وناولته لي.

ذهبت في اليوم نفسه إلى العنوان، وهو بيت للإيجار في بيرلاخ، ليس بعيداً عن سكن إيفونا السابق. وجدت موقفاً للسيارات، أستطيع أن أقف فيه، وأراقب مدخل المبنى. انتظرت مدة من الزمن، واتصلت بعدها بالمكتب، وألغيت موعدين كنت قد رتبتّهما بعد الظهر. سألتني السكرتيرة إن كنت سأمر بالمكتب في وقت متأخر، فقلت إنني لا أعرف حقيقة.

كان عدد المارّة قليلاً، مع أن المنزل ضخم ويحتوي على قرابة خمسين شقة، وقد مضى وقت طويل دون أن أرى أحداً يغادر المنزل، أو يدخل إليه.

صار الجو في السيارة حاراً، فغادرتها بعد حوالي نصف ساعة وذهبت إلى باب المنزل. كانت قائمة الأسماء الموجودة إلى جانب الجرس كلها غير ألمانيّة، لكنّ اسم إيفونا لم يكن له وجود.

انتظرت. وبعد مرور بعض الوقت خرجت امرأة عجوز من المنزل، فسألتها عن إيفونا، فهزّتْ رأسها نافية دون أن تنظر نحوي، ومضت بحال سبيلها. بعد ذلك بوقت طويل نسبياً، جاءت امرأة شابة سمينة، تدفع عربة أطفال وسارت باتجاه المنزل. لم تكن المرأة قد سمعت هي الأخرى، باسم إيفونا، لكنها بعد تفكير طويل قالت إنْ بعض البولنديات يسكنّ في الطابق السفلي من المنزل، ثم فتحت الباب وسمحت لي بالدخول. ألقيت نظرة، في هذه الأثناء، على عربة الأطفال فوجدتها فارغة. أشارت المرأة إلى الباب، وبقيت واقفة إلى جواري وأنا أقرع الجرس. لم تكن نظرة أو نظرات المرأة تدل على الشّك، بقدر ما كانت تدّل على الفضول. وعندما فتحت الباب امرأة رقيقة في حوالي

الخمسين من عمرها، قالت المرأة، التي اصطحبتني. بأنّ هذا الرجل يبحث عن امرأة بولندية. هل تسكن إيفونا هنا؟ سألت المرأة. إنها تعمل الآن. ردّت المرأة بالألمانية وإن كانت اللكنة فيها ظاهرة تماماً. كانت المرأة ترتدي روباً صباحياً فضفاضاً، مع أن الساعة كانت الثانية بعد الظهر. هل تسمحين لي بالدخول؟ سألت، أنا صديق لها.

لم تكن لديّ الرغبة في الحديث مع المرأة، وأنا أقف على باب الشّقة، عندها غادرت المرأة السمينة دون أن تنطق كلمة واحدة، فشكرتها بصوت مرتفع.

سمحت لي المرأة ذات الروب الصباحي بالدخول إلى الشّقة، وأغلقت الباب. إنّ إيفونا تعود إلى هنا في المساء. قالت المرأة،وهي تمشي بجانبي. كنت على يقين أن هذه المرأة تعرف من أكون. سارت المرأة في ممر طويل معتم، وتخطّت باباً مواربأً، تصدر منه أصوات أناس يتحدثون. ولم أتبين إلا بعد مرور مدة من الوقت، أنّ هذه الأصوات صادرة عن التلفزيون. في نهاية الممرّ كان هناك مطبخ يتسم بالنظافة والترتيب.

كانت النافذة مفتوحة، فسمعت صياح أطفال، وضجيج آلة قص العشب قادمة من بعيد. جلست المرأة ذات الروب على الكرسي وهي تئن بصوت منخفض، لكنها سرعان ما وقفت؛ لتسألني إن كنت أرغب في شرب شيء. طلبت كأساً من الماء. فذهبت المرأة وملأت كأسين من الماء.بماء الصنبور، ووضعت الكأس على طاولة صغيرة أمامي ثم جلست وهي تتنهّد.

قالت المرأة بأنها تُدعى إيفا وهي تسكن في هذه الشقة مع إيفونا،

وصديقة أخرى. أخبرتني بأن إيفونا هي ابنة عمها، وأنها استطاعت أن تجد عملاً في مخزن الكتب المسيحي حيث سبق أن التقيت بها. بالمقابل أخبرتُها أنني التقيت بها في أحد المقاهي، قبل خمس عشرة سنة. لقد كانت دوماً عنيدة. قالت إيفا وضحكت. سألتها عن قصدها فقالت بأنها حذّرت ابنة عمها بأن الرجال في العالم متشابهون.

كانت إيفا مختلفة تماماً عن إيفونا. ولم يكن ليخطر ببالي أنهما قريبتان، فقد كانت إيفا ضيئلة وشقراء الشعر، ويبدو أنّها كانت امرأة جميلة عندما كانت شابة؛ لأنها تبدو حسنة المظهر إلى اليوم. أخبرتني أنها تزوجت من رجل ألماني، وأن الألمان يفضّلون البولنديات، فنحن البولنديات نمتلك حيوية ومشاعر تفوق ما لدى النساء الألمانيات، ولا نحاول أن نقلّد الرجال.

رنّ هاتفي الخلوي في هذه الأثناء، فأغلقته من غير أن أنظر إلى الشاشة. سألتها عن أحوال إيفونا. ليست جيدة. ردّت إيفا. فقد عرفتْ عائلتها، بشكل أو بآخر، عن مسألة الحمل، ولم يكن ذلك عن طريقها، وهي تقسم على ذلك، وهذا، وهنا تردّدت إيفا، بحثاً عن كلمة مناسبة على ما يبدو، قد أساء إلي إيفا. أطرقت برأسي. وما تزال إيفونا ترسل لهم نقوداً، لكنّ العلاقة بينها وبين أسرتها تقطّعت تماماً، لهذا لم تذهب إلى هناك منذ ثماني سنوات. ولو لم أكن هنا، لما علمت على الإطلاق، بوفاة والدها.

كما أنّ أمور إيفونا الصحية لا تسير على ما يرام. فما تزال تعاني من الأورام، وكان عليها أن تجري منذ مدة عملية جراحية، لكنها لا تريد. قلت بأنني على استعداد أن أدفع تكاليف عملية إيفونا، فهزّت

إيفا كتفيها، لعل إيفونا قد بعثت بالمال، الذي أعطيته لها إلى أهلها في بولندا، إذ يبدو أن هدفها الوحيد هو أن تتمكن من إرسال أكبر كمية من المال إلى هناك، فنصف أقربائها يعتمدون عليها، لكنهم، مع ذلك، لا يحبونها. قالت إيفا إنها تعمل كالمجنونة. فهي ترعى، على امتداد النهار، عجوزاً طريحة الفراش، وتقوم بالليل بتنظيف المكاتب.

حلّ الصمت فجأة. وبعد مدة من الزمن قالت إيفا بأنّ إيفونا ما تزال تأمل بأن أرجع إليها ذات يوم. قالت ذلك وهي تنظر إليّ بنظرة مملوءة بالشك والتساؤل وكأنها تريد أن تقول بأنني لن أصاب بالجنون إلى هذه الدرجة. هززت رأسي نفياً للفكرة. فأضافت إيفا، لقد قلت لها بأنها غبيّة، لكنها لم تستمع إلى ما قلته لها. ولعلّ عليك أن تقول لها ذلك. قلت لإيفا بأنني سبق أن قلت لها ذلك، فمدّت إيفا ذراعيها وهي تكرر بأنه لا أحد يستطيع أن يفعل شيئا لها، إذا كانت لا تصغي لما يقال لها،إن أحداً لايستطيع أن يجبر الرجال على الحب.

كانت إيفونا تقول لابنة عمها في كل مرة يدور الحديث فيها عنّي بأنني رجلها، وهذا هو كل ما كانت تتلّفظ به إيفونا عندما يجري فتح الموضوع، والحديث فيه. وعندما كانت إيفا تسعى لتعريفها برجل آخر، كانت تكرر الرّد ذاته، وتقول إنّ لديّ زوجاً!

تعال معي، قالت إيفا، وقادتني إلى الغرفة الواقعة قبالة المطبخ مباشرة. كانت الغرفة مملوءة كما كان الحال في سكنها. كانت الستائر مغلقة ومع ذلك كانت الحرارة مرتفعة جداً، وكان اللون الأحمر ينتشر في أرجائها. فتحت إيفا الجارور الأول في الطاولة الصغيرة، واستخرجت ألبوماً سميكاً وفتحته. كان اسم «الاكسندر» مكتوباً بخط جميل على

الصفحة الأولى من الألبوم. وكان اسمي مزّيناً بضفيرة من الورود، التي تشكّل صورة لطفل من الأطفال. وتحت الاسم كان قد جرى إلصاق خصلة شعر. ولم أستطع أن أتذكر إن كنت قد أعطيت إيفونا خصلة شعر كهذه. أما الصفحات، التي تلي فكانت مملوءة بالصور الخاصة بي وبالأشياء والأماكن، التي تربطنا معاً. رأيت صورة مقهى الحديقة، الذي التقينا فيه للمرة الأولى، وصورة الكنزة الصوفية، التي نسجتها إيفونا لي، والجزء الخلفي من الغرفة في مخزن بيع الكتب. أما الصور الخاصة بي فلم تقم هي بالتقاطها، فقد سبق لي أن أعطيتها صورتين أو ثلاث صور بعد أن طلبت ذلك، أما الصورة الأولى فهي تعود إلى الجريدة، التي أصدرناها بعد تخرجنا وحصولنا على الماجستير. وأما الثانية فتعود إلى المجلات، أو الصحف المعمارية. أما المقالات المرفقة مع الصورتين فلم تقم إيفونا بقصّهما ووضعهما في الألبوم.

تذكرت واحدة من تلك الصور بوضوح. كنت أنا وسونيا نتصدر حفلة إحدى المدارس، التي قمنا منذ عدة سنوات، ببنائها. أخذنا صوفي معنا إلى الحفل، وظهرت في الصورة، مع أنني لم أكن أرغب في ذلك. وقد ألصقت إيفونا صورتي وحدي، وحذفت صورة سونيا وصوفي. أما الصفحات المتبقية فكانت تظهر صور لعشّاق، مأخوذة من المجلات المصوّرة والمسابقات التصويرية، وهم يجلسون لحظة الغروب عند البحر، كما كان في الألبوم صور لرجال ونساء بلباس النوم وهم ينظفون أسنانهم. أما في صفحة الألبوم الأخيرة، فهناك صور لمنطقة توتسينج ولمنزلنا. قالت إيفا بأنه لم يسبق لها أن شاهدت هذه الصور، ويبدو أن إيفونا قد التقطت هذه الصور قريباً، ثم سألتني أهذا

حقاً منزلكم؟ فأطرقت برأسي.

جلسنا في المطبخ وبدأت إيفا تحكي لي حكاية أسرة إيفونا؛ كانت والدتها معلّمة أما أبوها فكان خبير مفرقعات؛ وقد أمضى وقتاً طويلاً يعمل في الخارج في الأماكن الخاصة بإنشاء عمارات جديدة ،في العالم الاشتراكي طبعاً ، أوضحت إيفا وهي تبتسم.

كانت إيفونا الطفلة الوحيدة لعائلتها، وكان أبواها في منتصف الثلاثين عند ولادتها، كان أبوها وأمها متدينيْن، لكنهما لم يبذلا جهداً ؛كي لا يسهم تدينّهما في القضاء على تقدمها المهني. ولأن إيفونا كانت طفلتهما الوحيدة، فقد قاما بتدليلها، ومنحاها الرعاية الكاملة. وأنا أتذكر كيف كنت أحسدها على ذلك، أضافت إيفا. كان لدى إيفونا الكثير من الألعاب، والدمى الجميلة، التي كان والدها يجلبها لها من إفريقيا ومن القوقاز. وعندما كانت عائلتي تزور عائلتها، كان لا بد من وقوع شجار. فلا أحد يحق له أن يلمس أشياء إيفونا، التي كانت تصاب بحالة هستيرية عندما يطأ أحد غرفتها. واجهت إيفونا الكثير من المشكلات في المدرسة، لم تكن إيفونا طالبة رديئة، لكنها كانت تشعر بالاغتراب، فلم يكن لديها، كما أتذكر، صديقة مقرّبة. كانت كثيرة الصمت وعنيدة في الوقت نفسه. وقد جرى علاجها لمدة طويلة جرّاء ذلك. وقد حسدتها أيضاً نظراً لما كانت تحظى به من عناية واهتمام. كان الاهتمام بها لا يتوقف، فقد كانت كثيرة المرض، وكانت تعاني من الاضطراب، ومن الآلام المزمنة، التي جعلتها لا تكاد تذهب إلى المدرسة.

أتعرف قصة ذلك الرجل، الذي استيقظ ذات يوم ووجد نفسه

خنفساء؟ سألتُ إيفا. فأطرقت برأسي. هذا هو ما يحدث لإيفونا في بعض الأحيان. قالت إيفا، فتبدو مثل مخلوق غريب بلا مشاعر يقيم عشه عند والديه، اللذين صنعنا كل شيء من أجلها، لكنها ظلت تبدو غريبة بالنسبة لهما، فكانت مثل دبابّة عصيّة على الاختراق.

سألتُ إيفا إن كانت إيفونا متدينّة آنذاك. فقالت بأنها لم تكن متدينّة على نحو لافت. فقد كانت تتسّم بالأنانيّة وهنا تردّدت قليلاً، لكنّها أضافت: أجل. لقد بقيت تردّد لمدة طويلة من الزمن بأنّها ستذهب إلى الدير، لكن تلك الفكرة كانت واحدة من أفكارها المجنونة. ومن المؤكد أنّها فكرّت بأنها ستغدو قديسّة، ولن تكون راهبة في غمار الراهبات.

تراجعت إيفونا وانسحبت عندما بدأت الفتيات في بدايات الصبا يخرجن مع الفتيان. كانت إيفونا قد نمت على نحو مبكرّ. وكان لها صدر وهي في الثانية عشرة من عمرها، وكان أبواها يخافان على نحو يصل حد الذعر، من أن تتورط مع أحد الشبان. قالت إيفا بأنها لا تعلم ماذا حكى والدا إيفونا لها، لكنّ إيفونا كانت على استعداد للهرب، إذا ما ظهر رجل في حياتنا.

تأملتني إيفا بعينيها الزرقاوين الصافيتين، ولعلها تساءلت ما، الذي وجدته في ابنة عمها وما الذي جذبني إليها واجتذبها نحوي.

لم تعمل إيفونا بعد انتهاء المدرسة، أما إيفا فقد ذهبت إلى وارسو وبدأت تتدرب؛ لتصبح ممرضّة وكانت تعود في أيام العطل إلى بوزنان، وتلتقي مع إيفونا في أثناء اللقاءات بين العائلتين، لكنهما قلّما كانتا تتبادلان الأحاديث. وقد كادت إيفا تقطع علاقتها مع عائلتها عندما صار لها صديق ثابت للمرة الأولى في حياتها، وكانت قد وصلت إلى

ألمانيا عندما علمت أن إيفونا تعمل في مخزن مسيحي لبيع الكتب. وبعد أن انتهى عملها في المخزن، استطاعت إيفا أن تبحث لأيفونا عن عمل هنا، وقد رجتها والدة إيفونا أن تفعل بعد أن فقد الأب عمله، وصار يعاني من المرض. فقد التزم بالعمل في النقابات، قالت إيفا، وكانت تلك السنوات من سنوات بولندا القاسية. أعرف ذلك، قلت، مع أنني لا أتذكر الأحداث إلّا على نحو غامض. قالت إيفا بأنها رتّبت أوضاع إيفونا عند وصولها إلى ألمانيا، فقد استقبلتها في محطة القطار وعرّفتها بالبولنديات أولاً، ثم قدمتها لرجال بولنديين جيّدين وجادّين يبحثون عن شريكة عمر. عدّت إيفونا كل ما قمت به أمراً بدهياً، ولم تفعل شيئاً من أجل ذاتها.

عندما قدمت إيفونا إلى ألمانيا، كانت إيفا متزوجة. وقد دعت ذات مرة ابنة عمها إلى منزلها. أمضت إيفونا ذلك المساء صامتة لا تتكلّم، لدرجة أنّ الأمسية كانت عذاباً حقيقياً. بعدها لم تكد تراها، أو تلتقي بها. كانت إيفا تتصل بسكن الطلبة بين الحين والآخر للاطمئنان على إيفونا والسؤال عنها، وكانتا تذهبان في بعض الأحيان إلى السينما، أو إلى الاحتفالات، التي تقيمها البعثة البولندية.

ما زالت أذكر إلى اليوم، كيف قالت لي إيفونا بأنه صار لها صديق. لم أكن قادرة على تصديق ذلك. فكثيراً ما كنت أتساءل كيف استطعت أن تصل إليها. سألتها متى كان ذلك؟ قالت إيفا بأنها لم تعد تذكر ذلك. أنا أظن أن الأمر قد حدث مصادفة. قلت لإيفا. فقد رأتني وتبعتني بعد ذلك. أتؤمنين بشيء مثل هذا؟ أتؤمنين بالحب من النظرة الأولى؟ هزّت إيفا رأسها غير مصّدقة. إنّ هذا لون من الجنون، يحدث لإنسان في

الرابعة عشرة من عمره، لكنه لا يحدث لامرأة ناضجة. لقد قرأت إيفونا الكثير من الكتب المضلّلة، وأنت أول صديق لها. أنا لم أكن صديقها على الإطلاق، قلت، فقد التقينا بضع مرات قبل أن أتزوج. ثم لم نلتق بعد ذلك لعدة سنوات.اتصلت بي ذات مرة؛ لأنها كانت تحتاج إلى شيء من المال من أجل إجراء العملية. تطلّعت إليّ إيفا متسائلة. فقلت إنني لا أستطيع أن أوضح لماذا أقمت علاقة مع إيفونا. لقد تم الأمر ببساطة على هذا النحو.لقد بدا أن لحضورها سيطرة قوية عليّ، ابتسمت إيفا وقالت : إنّ عليّ أن لا اعتذر، إن الرجال ساذجون.

لقد سبق لإيفا أن تساءلت إن كان لهذا الصديق المزعوم، الذي تحكي عنه إيفونا، وجود على الإطلاق، لأن إيفونا لم تتحدث عن أمور محدّدة، حتى أنها لم ترد الإفصاح عن اسم ذلك الصديق.

ولم أصدق إيفونا إلا عندما رأيت أنها حامل. اتصلت بي فسألتها إن كانت تعيش مع والد الطفل، أو أنها ستتزوج منه مستقبلاً، فأجابت إجابة مراوغة وطلبتْ مني أن لا أخبر أحداً بالأمر، فتساءلت عن الأسباب، التي جعلتها تحدثني بالأمر.

زارت إيفا ابنة عمها في المستشفى مرة واحدة، لكنّ إيفونا أفهمتها بأنها لا تريد زيارتها. لكنّ إيفونا زارتها بعد الولادة، على غير توقع، وتصرّفت وكأنّ شيئاً لم يكن. وعندما سألتها عن المولود، نظرتْ إليّ نظرة شعرت جرّاءها بالخوف. إن صوفي تعيش معنا، قلت، وأحوالها تسير على ما يرام، فأطرقت إيفا. لقد عرفت ذلك فيما بعد، قالت إيفا، ففي البداية توقعت أن الأسوأ قد حدث. إن من غير الجائز أن تقول ذلك، ولكنها تثق بإيفونا إلى حد ما. فعندما كانت إيفونا طفلة صغيرة،

أهديت لها قطّة صغيرة وحلوة. كانت إيفونا تحملها معها أينما ذهبت. لكن القطة سرعان ما كبرت وصارت قادرة على الاعتماد على نفسها، وتذهب بعيداً عندما تريد إيفونا أن تلعب معها. ذات يوم وفي أحد أيام الصيف اختفت القطة. جرى البحث عن القطة بدأب وقوّة، لكنّ القطة لم تظهر على الإطلاق وبعد عدة شهور، جاء فصل الشتاء، وصار الناس بحاجة إلى التدفئة، اكتشف أحد المستأجرين تلك القطة، التي ماتت جوعاً في قبو الفحم. . تساءلتُ إن كانت القطة قد حاولت أن تتسلق إحدى النوافذ، ولم تفلح في مغادرة القبو. لم يكن هناك نوافذ في القبو ،قالت إيفا، ولا بد أن أحداً قد قام بإدخالها إلى هناك وحبسها، وأنا واثقة أن إيفونا هي التي فعلت ذلك، مع أنها بكت عليها بكاء عظيماً، وأقامت لها مراسيم دفن حقيقية.

نهضت إيفا وملأت الكأسين ماءً وقالت بعد أن جلست، أيّاً ما كان الأمر فإن من الخير للطفلة أن تكبر عندكم، فليس لدى إيفونا وقت؛ كي تهتم بها وترعاها.أخرجتُ محفظة النقود من جيبي وأريت إيفا صورة صوفي، فألقت عليها نظرة سريعة.

لم يكن لدى إيفونا نقود، قالت إيفا، وقد منحها أصدقاؤها المتديّنون بعد ولادة الطفل ما يسد الرمق، قالت ذلك وهي تحرك يدها على نحو يكشف عن موقفها الرافض، لكنّها اليوم في وضع أفضل. وكان وضع إيفا في ذلك الوقت سيئاً هو الآخر؛ لأنها كانت تمرّ بمرحلة ما بعد الانفصال عن زوجها.

قدمت إيفا يد العون لإيفونا ثانية وساعدتها في العثور على عمل، ثم سكنتا معاً في هذه الشقة من أجل توفير المال، وتسكن معهنّ مالغورزاتا،

التي تعمل هي الأخرى في المستشفى. لكنّ الثقة بينها وبين إيفونا لم تكن موجودة. بل إن إيفونا منذ أن سكنت مع إيفا، ازدادت عزلة، فليس لها أية علاقة سوى مع الناس، الذين تعمل معهم. فأنا ومالغورزاتا نطهو طعامنا معاً، لكنّ إيفونا تأكل وحدها في الغالب. فعندما تعود من عملها، تدخل إلى غرفتها وتختفي، أو تبقى لساعات طويلة في الحمام. وهذا يحدث هذا منذ سنوات، ثم ضربت على جبينها وقالت إن شيئاً ما لديها مضطرب، لعلك تعتقد أنني لا أحبها، إن هذا غير صحيح. فأنا حزينة لأجلها، لكنني عاجزة عن مساعدتها، وليس هناك من يقدر على ذلك.

كان على إيفا أن تذهب إلى العمل فسألتها إن كنت أستطيع أن أوصلها بالسيارة لمسافة صغيرة، فقبلت شاكرة. وبينما كنت انتظرها، نظرت إلى التلفون المحمول؛ لأرى من الذي تكلّم معي، فتبيّنت أنها سونيا.

قالت إيفا وأنا أفتح لها باب السيارة، سيارتك جميلة. فأوضحت لها أنها مستأجرة، فردّت بنبرة مملوءة بالفخر كان لزوجها سيارة أودي 100. ثم قالت بأنّ من الخير أن لا تدري إيفونا بخبر زيارتي؛ لأن هذا لن يؤدي إلّا إلى شعورها بالتوتر. سألتها إن كان بوسعي أن أصنع شيئاً من أجل إيفونا فقالت: دعها بهدوء. وماذا إذا احتاجت مالاً من أجل العملية؟ سألتُها، فردّت إيفا بأن الأمر لا علاقة له بالمال، فإيفونا لا تريد إجراء العملية؛ لأنها بعد العملية لن تكون قادرة على الحمل والإنجاب وعندما بدأت أحسب سنوات عمر إيفونا، قالت إيفا بأنّ إيفونا بلغت السادسة والأربعين ولم تنضج بعد. ثم ساد الصمت.

فكرّتُ بأنّ إيفونا أضاعت عمرها بسببي فهي منذ خمسة عشر

عاماً تجري وراء سراب، ووراء حب غير ممكن. فقالت إيفا وكأنها تقرأ أفكاري إن عليّ ألاّ أوجه اللوم إلى ذاتي، فالمسألة لا علاقة لها بي، فإن إيفونا سعيدة على طريقتها. فأنت موجود في داخلها، فهي في حالة عشق منذ خمس عشرة سنة! ثم ضحكت إيفونا وقالت: انظر إليّ، فقد كان عندي زوج، فهل حالتي أفضل من حالتها؟

هنا لو سمحت! قالت إيفا. فأوقفتُ السيارة، وخرجت إيفا وانحنت؛ كي تودعني. أتسمحين لي أن أتصل بك؟ سألتها، فأخرجت من حقيبتها دفتر ملاحظات، وكتبت عليه شيئاً وناولتني الورقة. هذا هو رقم تلفوني المحمول. أردت أن أعطيها بطاقتي، لكنّها هزت رأسها رافضة وقالت اتصل بي متى أردت أن تعرف شيئاً عن أحوال إيفونا.

تأملتها وهي تصعد درجات المستشفى بسرعة وبخطوات رشيقة مملوءة بالشباب. فتح لها الباب أحد الرجال فالتفتت نحوه، وقالت شيئا فرأيت للحظات ابتسامتها المشرقة.

جلست أمام المستشفى وأنا داخل السيارة، ورأيت الناس يدخلون ويخرجون، الموظفين والمرضى وأقرباءهم من الزوار كما رأيت الناس، الذين عرفوا أنهم لن يعيشوا طويلاً والآخرين، الذين برئوا من أمراضهم، مؤقتاً على أقل تقدير. كان عليّ أن أفكّر بصوفي، التي سألتني قبل مدة من الزمن لماذا وجد الناس؟ أجبتها بأنني لا أدري، فردّت بطريقة تعليمية بأن الناس موجودن؛ كي يعتنوا بالحيوانات. ذلك ممكن. قلت، لم لا؟ هذا هو السبب، قالت صوفي بوعي طفلة في السابعة من عمرها. تساءلت كيف يمكن يا ترى لإيفونا أن تجيب على هذا السؤال؟ فقد خسرت كلّ ما بوسع المرء أن يخسره، لكنها تعي أسباب وجودها. كان

لديها هدف حتى لو كان هذا الهدف مجنوناً. ولعل إيفا على حق، فلربما كانت إيفونا أكثر سعادة منا.

اتصلت بسونيا، فلم تجب فقمت بتسجيل رسالة صوتية لها. أخبروني في المكتب أنها ذهبت إلى المنزل، وقد بحثت عني في كل مكان. قالت السكرتيرة، وعليّ أن أتصل بالمنزل فوراً.

ردّت سونيا عليّ مباشرة، فأخبرتها بأنني لم أر مكالمتها الهاتفية، فقاطعتني وقالت بأننا قد أفلسنا، وأنّ عليّ أن أحضر فوراً إلى المنزل. وماذا عن صوفي؟ سألتها. لقد أحضرتْها بيرغيت من المدرسة قالت سونيا، وستقوم بإحضارها إلى المنزل فيما بعد.

شعرت بقدر من الارتياح وأنا في الطريق إلى المنزل. فقبل سنوات كان لدي هواجس بأننا سنفشل وشعرت بالخطر، دون أن يكون هناك أسباب وراء ذلك الشعور، والآن ظهر التوتر جلياً، ولا بد أن تتغير الأوضاع نحو السلب أو نحو الإيجاب. لكنّ الارتياح، الذي شعرت به سرعان ما غادرني، عندما غادرت السيارة وتساءلت بقلق كيف يمكننا أن نخرج من هذه الورطة!

كان ليشنر، مستشار الضرائب الخاص بمكتبنا، يجلس على مائدة الطعام، وأمامه كومة ضخمة من الأوراق، بينما كانت سونيا تقف عند النافذة المطلة على الحديقة. استدارت سونيا عندما دخلت المنزل، فبدت ملامح القلق على قسمات وجهها، مثلما بدا الإرهاق والتفكير. كانت لديّ رغبة في هذه اللحظة في أن أنام معها، فذهبتُ نحوها وقبّلتها على فمها، ووضعت ذراعي على كتفها لكنّها تملّصت منّي.

أخبرتني سونيا بأن البنك قد ألغى الاعتماد الخاص بنا، وأنها خالية

الذهن من الموضوع. أخبرتها بأنني لم أرغب في أن تصاب بالقلق ،وأننا سنخرج من المأزق بعد قدوم العقد من مدينة هالّة. سألتني سونيا عن المدى الزمني لمعرفتي بالأزمة، فوقف ليشنر وهو يحمل الحساب الختامي المالي للعام، وقال: كان الأمر متوقعاً منذ زمن طويل، والسيولة هي أقل أجزاء هذه المشكلة، فلدينا مصروفات عالية ثابتة، ولدينا الكثير من العاملين. أضافت سونيا بأن المبالغ الخاصة بالضمان الاجتماعي لم تدفع منذ ثلاثة شهور، فقال ليشنر بأن علينا أن نكون سعداء إذا لم تفرض علينا غرامات ضريبية. وماذا عن المكتب، هل يعني هذا أن علينا أن نقوم بإغلاقه؟ سألت سونيا. ردّ ليشنر بأننا إذا قدّمنا طلباً بالعجز عن الدفع، فسيتم تكليف محام يتولّى القيام بالإجراءات اللاحقة ومن شبه المؤكد أن يتم السير في المشاريع القائمة إلى النهاية، وتسريح العاملين في المكتب وبيع الأثاث.

إن بيع هذا كلّه لن يوفّر السيولة، فليس لدينا في المكتب سوى بعض المكاتب، وجهاز الحاسوب، ومن المحتمل أن يقوم محامي الإفلاس بإدارة المكتب، وهذا يعني أن علينا أن نعمل ثلاث سنوات سخرة.

ذهبت سونيا إلى الطاولة ورمت نفسها فوق أحد الكراسي، ثم رفعت بعض الأوراق على نحو آلي وتأملتها ثم ألقت بها ثانية. أنا لا أفهم، قالت، أنا لا أستطيع أن أفهم كيف أن أحداً لم يخبرني؟

صمت ليشنر للحظات ثم قال. إنّ هناك مشكلة أيضاً، ثم صمت؛ ليحدث صمته التأثير المطلوب، سيجري الحجز على ممتلكاتنا الخاصة. بدت معالم الدهشة على وجه سونيا فقلت بأنه كان علينا أن نؤسس شركة محدودة. أعرف، قالت، أنا أتحمل مسؤولية ذلك. المسألة ليست

من يتحمل المسؤولية، قلت. فقال ليشنر بأنه سيبذل قصارى جهده؛ كي نبقى نعيش في هذا المنزل، ثم أضاف، طال الوقت أو قصر فلا بد من اللجوء إلى المزاد العلني، لكنّ هذا قد يستغرق سنة أو اثنتين. فقالت سونيا بسخرية إلى هذا الحد نحن في أمان! إنّ بوسعنا أن نطلق النار على أنفسنا حالاً. حاول ليشنر أن يبدو وكأنه لم يستمع إلى ما قيل. إنّ الحل الأمثل هو أن ترحلوا بسرعة إلى مكان آخر، فكروا بالرحيل بوصفه فرصة. فتساءلت سونيا: فرصة لأي شيء يا ترى؟

ساد الصمت طويلاً بعد ذهاب ليشنر. كانت سونيا تجلس على الكنبة، وتحتسي الزجاجة الثانية من مشروب كحولي. كنت أروح بعصبيّة جيئة وذهاباً، أقلب الأوراق الموضوعة على الطاولة دون أن أعرف في واقع الأمر عن أيّ شيء أفتش فيها. ثم جلست، بعد ذلك، إلى جوار سونيا، التي نهضت فجأة، وتناولت الهاتف ومشت نحو المطبخ وهي تختار الرقم الذي تريد. أغلقت سونيا باب المطبخ خلفها، وبعد مدة قصيرة سمعتها تتحدث بالفرنسية، ولم أفهم شيئاً مما قالت.

ذهبت إلى الشرفة؛ كي أدخن. خرجت سونيا بعد دقائق، وأخبرتني أنها تحدثت مع إلبرت، الذي وعدها بوظيفة ليست مغرية، لكنّها أفضل من الجلوس بلا عمل. نظرت نحوها حائراً. فقالت بأن ليشنر أخبرنا بأن علينا أن نبحث عن عمل، وليس هناك من عمل هنا في هذا الوقت، إضافة إلى أنني لا أمتلك الرغبة للدخول في منافسات. وماذا أفعل أنا؟ سألتها. فردّت بأن عليّ أن أقوم بتنفيذ مشروعي إلى النهاية، وبعدها لكل حادث حديث. وماذا عن صوفي؟ فكرّت سونيا قليلاً وقالت إن من الأفضل أن تبقى هنا، فإنّ انتقالها الآن إلى مدرسة فرنسية لن

يكون أمراً سهلاً. ومن سيعتني بها يا ترى؟ عليك أن تبذل بعض الجهد الإضافي. ردت سونيا بغضب، فأنا لا أذهب إلى هناك للمتعة.

أفلسنا وخسرنا شركتنا، والجزء الأعظم من تقاعدنا، وسيباع بيتنا بالمزاد العلني. قلت لسونيا بأن علينا أن لا نهوّل الأمر. فردّت بعنف لو أنك تركت تفاؤلك اللعين هذا، ونحيّته جانباً وشعرت بقلق مبكّر لما كنّا اليوم نعاني من الإفلاس. كان على سونيا أن تتصل بوالديها وأن تخبرهما بالأمر على نحو من الأنحاء. وكان هذا الأمر أكثر سوءاً من شماتة منافسينا. هرولت سونيا نحوي، وعانقتني، ووضعت رأسها على صدري. إنّ الوضع في غاية الصعوبة، ماذا نفعل؟ لا أدري. قلت. سأذهب إلى هناك لمدة ستة أشهر. فالبرت يقوم ببناء مشروع، وهو يحتاج إلى المساعدة في إنجازه.

سألتها إن كانت قد أقامت علاقة معه، فردّت بأنه مضى على ذلك خمس عشرة سنة، ثم تساءلت: أهذا هو ما يهمّك في هذه اللحظة؟ لكنك قادرة على أن تتذكري إن كنت قد أقمت معه علاقة أم لا. كلا. لم تقم بيننا علاقة جنسية. قالت سونيا. أنا لن أشعر بالاستياء منك قلت لها. فكرّرت سونيا بأنها لم تنم معه، وسألتْ: أتريد أن أكتب لك ذلك خطيّاً؟

وصلت بيرغيت في حوالي التاسعة ومعها صوفي. وكانتا قد تناولتا الطعام في مكدونالد، وكانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لصوفي. فقد ظلت سونيا ترفض أن تذهب إلى ذلك المطعم مع صوفي. وقد ابتسمت بيرغيت ابتسامة تحد عندما أخبرتنا صوفي عن الأمر. أكان ذلك ضرورياً؟ سألت سونيا، التي لم تكترث كثيراً. بعدها التفتت صوب

صوفي وطلبت منها أن تصعد بسرعة إلى الطابق العلوي، وأن ترتدي بيجامتها. أتريدين أن تشربي شيئاً؟ سألت بيرغيت بعد ذهاب صوفي، فأشارت إلى زجاجة البيرة الموجودة أمامي، وقالت سأتناول واحدة مثلها. هل الأمور سيئة كما فهمت؟ بل هي أسوأ بكثير ردّت سونيا. هل أحضر لك شيئاً لعلك ترتاحين قليلاً؟ سألت بيرغيت سونيا، فهزت سونيا رأسها نافية. فأعلنت سونيا بأنها ستأخذ صوفي إلى سريرها، ثم ذهبت إلى الطابق العلوي.

حكيت لبيرغيت عن الحالة في المكتب. كانت تصغي بعناية بعد ذلك سألت بعض الأسئلة الدقيقة وكأنها في صدد تشخيص حالة مرضيّة لكنها هزت كتفيها عندما نظرت إليها نظرة تساؤل. قلت لها بأنها محظوظة؛ لأن الناس لا بد أن يمرضوا ولكن ماذا يحدث لو توقف الناس عن العمارة؟ فقالت بيرغيت بأن حركة البناء ستستأنف مجدّداً. طبعاً سيتم استئنافها مجدداً قلت، لكنّ السؤال هو ما إذا كان مكتبنا الهندسي سيكون موجوداً. وإن لم يكن موجوداً، فعليكم أن تبدأوا ثانية، فالأمر يتعلق بوجود المال. قلت لها بأنّ لدي الإحساس بأنها منذ أقمنا معا وهي لا ترتاح لي. رفعت بيرغيت حواجبها عالياً، وفكرّت قليلاً ثم قالت هذا غير صحيح. ولماذا هو غير صحيح؟ سألتها. ردّت قائلة أظنّ أنني وجدت سونيا مناسبة تماماً لك. ولعلّي كنت أشعر لذلك بالغيرة. فقد كان روديغر أول رجل يحوم حولها، ثم كنت أنت ولا أدري من سيأتي، وبعد ذلك أردت أن تسكن معنا، وكان كلّ شيء جميلاً ونحن نسكن معاً. لعلّي لم أكن كفوءاً لسونيا. قلت. لا ذنب لك في كل ما جرى، قالت بيرغيت، فأنتم لستم العائلة الوحيدة، التي تعاني

من المشكلات. قلت، أظن أنه لولا وجودي لكانت سونيا قد تقدّمت إلى الأمام ،فقد كانت ترغب في الذهاب إلى الخارج؛ لتعمل في مكتب هندسي كبير.لكن سونيا كانت تعي تماماً، قالت بيرغيت، ما هي الأشياء ،التي تشترك معك فيها.

وقفت بجوار النافذة ونظرت إلى البعيد. كانت بقايا الأضواء تلوح في السماء، لكنّ الظلام بدأ يلف كلّ شيء، فلو وقف أحد في الخارج لما تمكنت من رؤيته، حتى لو كان بعد أمتار. تخيّلت كيف استطاعت إيفونا أن تتسلل إلى منزلنا، وأن تقوم بالتقاط بعض الصور فنحن لا نضع ستائر على النوافذ؛ لهذا فإن من السهل أن يتم التجسّس علينا.

لم تعد سونيا من الطابق العلوي، وعندما طال غيابها أردت أن أدعوهالكن بيرغيت رفضت، وطلبت مني أن أدعها فربما تكون قد نامت. شيّعت بيرغيت إلى الباب. كنت أشعر بالإرهاق الشديد، لكنني كنت أدري أنني لن أتمكّن من النوم جلست حتى ساعات الفجر الأولى في غرفة المعيشة، وأنا أفكّر في مكامن الخطأ وفيما أقدمت عليه من أعمال غير صائبة، وكيف كان يمكن تجنّب الإفلاس. فكرّت بتفكيك المكتب الهندسي وإنهائه. وبكلام العاملين معنا، وبما سيقوله زملاؤنا، وما سيوجهه الدائنون من اتهامات. تناولت زجاجة النبيذ وبدأت أشرب، وكنت كلما أسرفت في تناول الشراب، ازدادت أفكاري حيرة واضطراباً. كنت أشعر بخيبة الأمل من سونيا. إنها، بطبيعة الحال، على حق، ففي ميونيخ؛ لن تتمكن من العثور على أية فرصة عمل، أما أنا فعلّي أن أبقى هنا في ميونيخ؛ لأنّني أشرف على مدرسة يتم بناؤها في بافاريا السفلى، ومع ذلك فقد بدا لي أن هروبها لون من الجبن. ففي

اللحظات، التي سأكون فيها أتحمل النتائج وحدي، فإنها ستكون في البحر المتوسط، تبني مع ألبرت مشروعه ولا أحد يدري ما الذي ستقوم بعمله. لم أستطع أن أتخيّل كيف يمكن لي أن أنجز ذلك وحدي، وأن أرعى، فوق ذلك، صوفي وأهتم بشؤونها. كانت أفكاري تدور في حلقة مفرغة، فلم تعد عيناي تقويان على النظر جراء التعّب لكنني، لم أستطع مع ذلك أن أقرّر الذهاب إلى السرير؛ خوفاً من اليوم القادم.

كانت الشهور، التي تلت من أسوأ أيام حياتي على الإطلاق. وقد استطعت أن أبقى؛ لأنني كنت أنجز عمل كل يوم دون أن أفكّر بالأيام المقبلة. كانت سونيا قد ذهبت إلى مرسيليا بعد أسبوعين من الحوار، الذي دار بيننا. وفي تلك الأثناء تم وضع شركتنا تحت إشراف إدارة مؤقتة، وكانت محامية الإفلاس تأتي كل يومين؛ لتعرف كلّ شيء. فقد سارعت في البداية إلى عقد اجتماع للعاملين وأخبرتني أنه لم تعد لي أية كلمة بخصوص العمل في المكتب. جلست المحامية على مكتبي؛ وبدأت تبحث في أوراقي؛ وبدأت بتسريح العاملين وتخفيض النفقات حيثما كان بوسعها أن تفعل.

كنت مضطراً أن أرجوها في كل صغيرة وكبيرة، وقد رجوتها أن تبذل ما تستطيع حتى لا يتم إغلاق المكتب. ومع ذلك كان المزاج العام تعيساً، فقد كان يقف، على الدوام، إلى جوار ماكنة صنع القهوة عدد من العاملين يتغامزون ويتلامزون عند مروري بهم. كنت أستشعر نظراتهم تخترق ظهري، كما كنت أحس بعداوتهم، وكأنه كان ذنبي ما حصل للشركات المعمارية من خسائر جسيمة.

حاولت محامية الإفلاس أن تلفت نظري، إلى أن الإفلاس في أمريكا

لا يُعدّ أمراً مُخلّاً بالشرف بل إنه يعد لوناً من ألوان المغامرة، لكننا لسنا في أمريكا. قلت. فقالت بأنّ عليّ أن أسعى للحصول على عقود؛ لأحصل على بعض المال. حتى لو اضطررت إلى إلصاق الحقائب البلاستيكية. اتصلت بفِرْدي. ولم يسبق لنا أن تجادلنا منذ زمن طويل، وكان يؤلمني أن أطلب منه أن أعمل معه، لكنه لم يبق أمامي خيار آخر. أبدى فرِدْي ألمه، لكنّه وضح بأنه لا يستطيع مساعدتي. وبيّن أنه يكون سعيداً عندما يستطيع عمله أن يغطي النفقات. ثم طلبت أن أزوره؛ ليرى طفلتنا. سألته عن أخبار أليس، وتبادلنا الحديث قليلاً، لكنّ جو الثقة بيننا لم يكن موجوداً، فبقيت رغبتي تقف حائلاً بيننا، وشعرت كأنني منبوذ. وقد أنهى فرِدْي الحديث معه بمرح. فقال: خلّ رأسك مرفوعاً.

قامت محامية الإفلاس بإلغاء العقد الخاص بسيارتي، واستبدلته بعقد جديد لسيارة من نوع أوبل أسترا بيضاء اللون كان هذا الأمر هو الأسوأ. ليس لأن السيارة تعني لي الكثير، بل لأنني في كل مرة أضع سيارتي إلى جانب سيارة المرسيدس الخاصة بها، يتبّدى لي فشلي، وتظهر لي خيبتي.

وعندما كانت محامية الإفلاس تذهب، اسرع في الجلوس إلى طاولتي، فأبدو كالمحتال. لم أستطع أن أبقى في المكتب طويلاً، فكنت أسافر، كلما كان بوسعي، إلى فيلس هايم حيث يُوجد البناء المنوي إنجازه، لكنّني لاحظت أنّ وجودي يشكل إزعاجاً ويحول بين المهنيّين وإنجاز أعمالهم.

اعتدت الذهاب إلى إحدى الحانات في حوالي الرابعة عصراً والجلوس هناك حتى يحين وقت إحضار صوفي من مدرستها. كنا

نذهب إلى المنزل صامتيْن، فأحضّر لها عشاءها الخفيف، وآخذها إلى سريرها، وأبقى مشغولاً حتى منتصف الليل بأمور بسيطة.

كنت أنام خمساً أو ستّاً من الساعات، فاستحم وأوقظ صوفي وآخذها إلى المدرسة وأذهب إلى المكتب، حيث تكون محامية الإفلاس بانتظاري.

وصلت الشماتة بين المتنافسين إلى ذروتها، فكان الماء يرتفع ويصل إلى عنق بعضهم، ومع ذلك تراهم يتردّدون في النطق بالحكم على تلك الحالة. كانت كلّ المكاتب تعاني ،وسبق للكثير من العاملين فيها أن غادروها. كانت سونيا على صواب، فلم تكن قادرة على أن تجد عملاً في ميونيخ.

أقامت سونيا عند أنتشه، وكانت تتصل بنا مرة كلّ عدة أيام، لكنّ اتصالاتها كانت سريعة، لم تكن ترغب في سماع شيء عن الشركة، لهذا لم يكن لدينا الكثير لنتكلم عنه. وكنت أشعر بالسعادة عندما تلتقط صوفي سماعة الهاتف وتتبادل بضع كلمات مع أمّها.

بعد مرور شهر على ذهابها إلى مرسيليا، جاءت سونيا؛ لتزورنا في نهاية الأسبوع. كان ذلك في مطلع شهر آب، وكان الطقس جميلاً وكانت الطبيعة تنعم بمزاج ودود ومعافى. كانت خضرة الأشجار قد بدأت تطغى على الظلال السوداء، التي تركها الصيف، كما أن لون البحر بدأ يميل إلى الإظلام

تمشينا على امتداد الشاطئ وشاهدنا القوارب الشراعية، وتأملنا الفيلل الجميلة والقديمة. كان الأطفال يلعبون تنس الريشة ورائحة الشواء تملأ الأجواء. قرأنا قائمة وجبات المطاعم، التي تقدّم الوجبات

البحرية. قالت سونيا بأن الأسعار قد تضاعفت منذ أن صار اليورو العملة الرسمية، وأن من الأفضل أن نتناول طعامنا في المنزل.

بدأت صوفي في أثناء العودة بالشكوى؛ فهي لم تتبادل الحديث مع سونيا منذ جاءت، كما أن سونيا رفضت أن تمسك بيدها أثناء المشي. كانت علاقتي بصوفي منذ البداية أكثر قرباً مقارنة بسونيا، ولم ينفع الابتعاد الطويل في تحسين العلاقة بينهما على ما يبدو.

كانت سونيا في اليوم التالي سريعة الغضب، وتصرخ بصوت مرتفع لأي سبب تافه. احتسينا النبيذ ظهراً، وبعد الظهر شعرت سونيا بالإرهاق وأرادت أن ترتاح، وصاحت بصوفي؛ لأنها لم تكن هادئة. وجهت الاتهامات لي وكانت تسخر مني عندما أردت أن أتحدث عن المستقبل. وعلى الرغم من أن لون بشرتها صار يميل إلى السُمرة، إلا أنها كانت تبدو شديدة الإرهاق، وصار وجهها أكثر قسوة، وملامحه غير جميلة ولا تبعث على الارتياح. أمضينا اليوم بالخلاف، أما في الليل فقد اقتربنا من بعضنا بعضاً بشوق حقيقي، لكن الجنس لم يكن قادراً على أن ينقذنا من الحالة، التي نحن فيها. طلبت سونيا مني أن أتوقّف؛ لأنها تتألم. فاستلقيت إلى جوارها وأنا ألهث وأتصبّب عرقاً. قالت سونيا بأنّ عليّ أن أتغيّر ولم أسألها عن قصدها فقد شعرت للمرة الأولى في حياتي أمامها بالخجل.

بدأت أفكر في إيفونا في هذه اللحظات، وكنت أتخيل وأنا أقف على الشرفة في وقت متأخر؛ كي أدخن، أنها تقف في الظلام في مكان ما ومعها كاميرات تراقبني وتحرسني. كان هذا التصوّر يثيرني ويصيبني بالغضب في الوقت نفسه. وكنت أتخيّل أنني أقوم بإحضارها إلى هنا

؛كي أتبادل معها الأحاديث، وكيف أنها تصمت بعناد وتحاول إخفاء جهاز الكاميرا خلف ظهرها، بعدها أعريها من ملابسها، ونتواصل معاً فوق الأريكة أو في السرير الخاص بسونيا وبي ثم أقوم بطردها في الظلام، دون أن تقول شيئاً على الإطلاق.

ذات يوم اتصلّت بإيفا، لكنني سارعت إلى إغلاق الهاتف قبل أن تبادر للرّد، فأنا لا أرغب في الاستماع إلى طفولة إيفونا وأخبار عائلتها وحياتها بعيدًا عني. كلّ هذا كان يثير فيّ الملل، مثلما سبق لإيفونا أن بعثت فيّ الملل بأساطيرها المقدّسة وأفلامها التلفزيونية، التي كانت ترويها لي وكأنها عاشت بنفسها أحداثها. وعندما أتخيّل نفسي معها، فإنّ هذا التخيّل لم يكن الشوق، الذي نحسه نحو صديق أو حبيب، بقدر ما هو رغبة مؤلمة متوحشة، يصعب السيطرة عليها. وقد كان بوسعي في تلك الليالي أن أسافر إلى ميونيخ، وأن أجلس في سيارتي أمام منزل إيفونا؛ لأعيش التوقعات الخطأ. فتشعر هي بوجودي وتجيء إليّ. لكنها لم تأت، بطبيعة الحال، وكنت أعود ذات لحظة من هذا العالم الوهمي.

وعندما عدت ذات مرة من تلك الرحلات الخيالية، كانت صوفي قد استيقظت، سمعتها وهي تبكي بصوت عالٍ عندما دخلت المنزل. لم تكن صوفي قادرة على أن تكف عن البكاء، وكنت أشعر بالإرهاق نظراً لما أشعر به من قلق، لدرجة أنني اضطررت إلى تهديدها في خاتمة المطاف بأنني سأغادر المنزل إن لم تتوقف في الحال. كنت أبدو، طيلة الوقت، وكأنني أقف إلى جوار نفسي وأقوم بمراقبتها، وأنا أشعر بالاشمئزاز لقسوة قلبي. لكنني لم أستطع أن أفعل غير ذلك وهذا مما

ضاعف غضبي وشعوري بالقرب من نفسيّ.

كانت لدينا مشكلات بخصوص المواعيد الخاصة بالبناء. قد يكون تخطيطي قد امتاز بالتفاؤل، وقد يكون الذنب ذنب المهنيين. كنت أقوم بحثّهم في اجتماعات البناء وأهدّدهم بالعقوبات المنصوص عليها في الاتفاقات. في تلك الأثناء عرفوا جميعاً ما آلت إليه الأحوال في المكتب، وعندما كنت أقوم بشتمهم، كانوا يتجاهلون نظراتي ويشرعون في الخربشة في دفاترهم.

كان شهر تموز رطباً الأمر، الذي أدى إلى شيء من التأخير.في آب تحسن الطقس، وبدأ العمل يتقدّم، لكنّ رئيس العُمّال سقط من على السّقالة، وأصيب بجروح بليغة، وكان قد نقل إلى المستشفى عندما وصلت إلى مكان العمل. كان العمال متجمعين ويتناقشون فيما وقع. لم يستطع واحد منهم أن يوضح لي ماذا حدث تحديداً، فكلهم سمع الصراخ، ثم صوت السقوط. لقد كانت السّقالة في وضع محكم، وكان قد تم التأكد من ثباتها. فما الذي جرى له؟ سألت. قالوا بأنه كان يتحدّث في تلك الأثناء، وقد كان على فريق الإنقاذ أن يضعوه على نقّالة. قلت لهم بانّ هذا لا يعني شيئاً، وأردفت بأننا لا نساعده عندما نقف هنا، فنظروا إليّ بعداء، وذهبوا إلى أعمالهم ثانية. عرفت في الأيام التالية أنّ أربع فقرات من عموده الفقري قد كُسرت، صحيح أنّ العمود الفقري لم يتأثر، لكنه يحتاج إلى شهرين على أقل تقدير. ولم يكن من الصعب، في هذه الفترة، إيجاد بديل له.

بدأت بهذه الفترة أسرف في الشرب، وكنت أطيل فترة الاستراحة ظهراً واحتسي البيرة، أو النبيذ في بعض الأحيان، حتى أشعر بالإرهاق

وأغدو غير قادر على التفكير في العمل. كنت أعرف أن ما أقدم عليه كان لوناً من الغباء، لكنّ الشراب كان يخفف من توتري. فعندما كنت أشعر بالثمل، كنت أحس أن الوضع يمكن أن يكون قابلاً للانفراج، ويتحسن مزاجي قليلاً. وكنت أواصل الشرب بعد انتهاء العمل مساءً. وقد تجاوزت ذات مرة، وأنا في الطريق إلى المنزل، الإشارة الضوئية الحمراء وكدت اصطدم بسيارة أخرى. بعدها لم أعد احتسي الشراب نهاراً، وإن كنت قد صرت أضاعف كمية الشراب مساءً، حتى صرت لا أستطيع أن أنام دون أن احتسي الشراب.

اتصل روديغر بي في هذه الفترة ، كان يريد الحديث مع سونيا، في واقع الأمر، وعندما قيل له بأنها غير موجودة، طلب أن يتحدث معي. أخبرته أن سونيا في مرسيليا. فأخبرني أنه في المدينة، وسألني إن كان في الإمكان أن نلتقي.

لم تكن لديّ، في واقع الأمر، أيّة رغبة في أن ألتقي أحداً من الناس، لكنني صمّمت منذ مدة طويلة على أن أسأله عن علاقته بسونيا، فأبديت موافقتي على اللقاء.

اتفقنا أن نلتقي في مكان مفتوح، لكن الجو كان بارداً عندما التقينا، فذهبنا إلى مكان مغلق. كان المقهى شبه خال، وكانت تنتشر في الجو رائحة كريهة هي مزيج من رائحة الدخان، وأدوات التنظيف. لكن روديغر لم يعر ذلك اهتماماً وجلس على أول طاولة. كان روديغر يبدو مرتاحاً وبصحة جيدة، فقد سمع عما نمرّ به من صعوبات، ومن المؤكد أنه لا حظ ما نمرّ به من أحوال رديئة، لكنّه بدا وكأنه لا يلتفت إلى هذا. حدثّني عن سويسرا، حيث تمكن من الاستقرار، وعن المعهد الواقع

بالقرب من زيورخ وعلى مرتفع بالقرب من البحيرة. وصفه بأنه جنة صغيرة. ثم بدأ ،دون أسأله، يحدثني عن عمله. تحدث عن الشبكات العفوية، وعن حياة رجال الأعمال، وعن الناس الآخرين أصحاب الرؤى، الذين لا يكفون عن السؤال عن مواطن قوتهم، ورغباتهم وشروطهم، وعن النتائج، التي تتولّد عن عملهم، كما لا يكفون عن السؤال عن المكان، الذي يقصدون الوصول إليه، وعن كيفية الوصول إلى ذلك المكان. هنا يوجد مستقبل الشركة، التي قمت بتأسيسها. قال روديغر. فسألته وماذا لو قمت بتأسيس شركة منافسة لها؟ فرد روديغر بأن من الطبيعي أن يكون خاسراً، لأن الأمر يبدو، وكأننا نتحرك، على المدى القصير، في إطار طبقة اجتماعية جديدة. حيث يضطر ثلثا الشعب للعمل دون أن يجد له مكاناً في عالم العمل. فقلت بأن وقع هذا الكلام غير جميل. فرد روديغر بوجه مشرق بأنّه ليس من مهمّته أن يحكم على الأمر.

سألته بعد ذلك عن أمور الشخصية، وإن كان ما يزال يعيش مع إليزابيث، فعقد روديغر ما بين حاجبيه، وكأنه يفكّر قبل الرد على السؤال. لا، لقد انتهى ذلك تماماً، فهو لم يسمع أخبارها من زمن طويل. فقلت له بأنني رأيتها ذات مرة في واحدة من الحفلات، التي يقيمها، وقد ظننت عند رؤيتي لها بأنها نصف مجنونة، وكان لديها في ذلك الوقت مشروع له علاقة بالخبز. ضحك روديغر وقال بأن والدها كان خبّازاً، وهذا ما صبغ شخصيتها، وقد أمضت فترة زمنية طويلة تقوم فيها بتشكيل أشكال من الخبز الممضوغ، على نحو يشبه النماذج الحرفية، التي كنا نضعها أيام طفولتنا. كانت مأساتها أنه ليس لديها ما

تقوله، وهذا أمر لا يفيد، عندما تكون لدى المرء الآن الأفكار.

هزّ روديغر رأسه وكأنه لا يستطيع أن يصدّق أنه أحب إليزابيث ذات يوم. فهو لم يجد إلى اليوم المرأة المثال، التي يبحث عنها. قلت له: لعلك تبالغ قليلاً. فالمرأة المثال لا وجود لها، وهذه المرأة إما أن تكون صغيرة السن تماماً، أو مطلّقة وعندها أطفال. أخبرني بأنه أقام علاقة طويلة مع إحدى المعلمات، التي كان عندها طفلتان طيّبتان، قلت لها بأنني أريد أن يكون عندي أطفال من صلبي، فأخبرتني بأنها لا تريد أن تحمل ثانية. قلت: عليك بحياة العزوبية الجميلة. لا. قال روديغر، فقد سئمت تلك الحياة، التي عشتها طويلاً، التي لا يكف المرء فيها عن البحث والمحاولة. أريد أن أعيش في منزل وأشاهد مباريات كرة القدم وأكون سعيداً.

كنت قد شربت في تلك الأثناء ثلاث مرات، في حين لم يكن روديغر أنهى كأسه الأول، استأذنت في منتصف الجلسة وذهبت إلى التواليت. تأملت وجهي في المرآة وأنا أغسل يدي، فتبيّن لي أنّ هيئتي ما تزال حسنة، ولا أبدو فاشلاً أو كحولياً مدمناً مصاباً بالإرهاق الدائم. لقد كان حظي سيئاً، وذات يوم سأقف على قدمي من جديد، فأنا ما أزال صغير السن، وكل شيء ممكن.

عدت إلى الطاولة من جديد. جلسنا وقد ران الصمت علينا مدّة طويلة، امتلأ المقهى في تلك الأثناء، فأشار روديغر إلى رأس يتحرك في أحد الزوايا البعيدة، فرأيت امرأة تجلس هناك وتقرأ. فسألني على إثر ذلك أتتذكر كيف افترسنا المرأة البولندية يومها؟ هناك ثمة مرشحّة لهذا الأمر. ترى هل أقمت علاقة مع البولندية؟

لم أجب، وأخذت أفكر كيف أبدأ الحديث. في النهاية سألت روديغر إن كان يظن أن سونيا تحبنّي. نظر إليّ وقد أصابته الدهشة وسألني: ماذا تعني؟ أعني هل تحبني سونيا؟ قلت. فأجاب روديغر: طبعاً. إنها تحبّك. سألته: لماذا انفصلتم آنذاك يا ترى؟ ضحك روديغر ضحكة قصيرة وقال: لا أدري. لقد مرّ على ذلك زمن طويل. من الذي أنهى العلاقة منكما؟ أظن أنني أنا من فعل ذلك. قال روديغر ببطء. سألته كيف يمكن لأحد أن ينفصل عن امرأة مثالية مثل سونيا؟ هنا بدأت نظراته تعبّر عن القلق فسألني: أهناك مشكلات بينكما؟ قلت له إنني لا أشير إلى ما وقع في الشركة. وسألته: هل أحببتها يا ترى؟ فأجاب بأنه كان يرتاح لها. إنّها مثالية ورائعة. ثم ابتسم ابتسامة تشجيع وقال: ستخرجون من هذا الوضع بكل تأكيد، وسيتعافى الوضع المعماري، وسترى ذلك عما قريب.

كنت على ثقة أن روديغر لا يريد أن يتحدّث عن علاقته بسونيا، ولعّل ذلك يعود إلى الإخلاص، أو أنه غير قادر على التذكر حقّاً. أخبرته أنّ عليّ أنْ أذهب. فقال روديغر بأننا سنلتقي جميعاً في المرة القادمة أليس كذلك؟

عندما غادرنا المقهى ربّت روديغر على كتفّي وهمس قائلاً: هناك رجل يقف عند طاولة المرأة التي تقرأ. وهو يحدّثها بينما تضحك هي بخجل، سبقني روديغر وفتح لي باب المقهى وقال: وهنا نبدأ حكاية جديدة.

كنت قد وضعت صوفي قبل لقائي بروديغر في منزل والديْ سونيا. كانت الساعة تزيد قليلاً عن العاشرة عندما وصلت إليهم. قالت والدة

سونيا إنّ من الأفضل أن أترك صوفي تنام هنا هذه الليلة.

فقلت بأنّني سآخذها معي؛ لتنام في المنزل. فتساءلت أليس من الأفضل أن ندعها نائمة بهدوء حتى الصباح! أخبرتها بأنني سأحمل صوفي حتى السيارة وسيكون بمقدورها مواصلة النوم. هل أسرفت في الشرب؟ سألتني أمها. فقلت بأنني لم أشرب كثيراً. جاء والد سونيا من غرفة المعيشة وبيده الجريدة. فكرّر هو الآخر ما سبق أن قالته زوجته، وأضاف بأنه سيأخذ صوفي صباحاً إلى المدرسة. لم تكن لدي أدنى رغبة في مواصلة النقاش. لهذا اتجهت نحو الطابق العلوي وحملت صوفي، التي كانت مستغرقة في النوم. أمسكتُ صوفي بعنقي وأنا أهبط بها الدرجات، ووضعت رأسها على كتفي وبدت وكأنها تتحرّر من قبضة السجن. كان والدا سونيا يقفان في بداية الدرج بوجهين صارمين. آمل أنك تعي ما أنت مقدم عليه. قال الأب.

كان منظر منزلي يبدو مريعاً؛ فمن أجل توفير بعض المال، طلبت من العاملة، التي تتولّى تنظيف المنزل أن لا تعود. ولم يكن لدي الوقت أو القدرة على تنظيف المنزل والعناية به، فكنت لا أجد ملابس نظيفة؛ لأرتديها أو أقوم بارتداء القمصان غير مكويّة. وكانت المجمّدات هي الوجبات الرئيسية في المنزل، ولم يكن تسخين هذه المجمدات يزعج صوفي، على ما يبدو، فقد أحبت هذا النوع من الطعام؛ لأنها كانت تتناول طعاماً صحياً في المدرسة دون أي نوع من اللحوم. كانت صوفي في هذه المرحلة حسنة التصرف، تلعب بهدوء مع دماها، عندما يكون عليّ أن أعمل وتدعني آخذها إلى سريرها دون أن تتذمر. وعندما استيقظ في الصباح أجدها نائمة

إلى جواري، فاحتاج إلى مدة طويلة فنصل متأخريْن، فأجيء إلى المكتب متأخراً، وتدخل صوفي متأخرة إلى صّفها.

بدأت أشعر بأن جسدي أخذ يتداعى، فقد أخذ التوتر والكحول والتدخين يترك آثاره عليّ. وقد وقعت نظراتي ذات يوم وأنا في الحمام على قدمي، فظننت، للوهلة الأولى، أنني أنظر إلى قدميْ رجل آخر. كانتا قدمين لرجل عجوز تبدو الأوعية الدموية فيهما عبر جلد القدمين الرقيق. فكرّت بأن الأمورستسير على هذه الشاكلة، وأن انهيار الجسد سَيَسْتَمّرُ دون توقف، وسيصيب أعضاء هذا الجسد جزءاً جزءاً. شعرت بالضعف وعدم القدرة على التماسك. في تلك الأثناء لم يعد وضع المكتب رديئاً تماماً. ففي الوقت الذي كدت أصاب فيه بالشلل نظراً لإسرافي في لومي لنفسي، استطاع المهندسون المعماريون الشباب الذين يعملون معنا أن يبذلوا جهداً في الحصول على عقود لمشروعات صغيرة في المدينة. وقد رأت محامية الإفلاس أن الوضع إذا ما استمر على هذه الشاكلة، فقد نتجاوز حالة الخطر ونصل إلى الحافة. كانت تتحدث وكأنها تتحدث عن شركتها، وهي كذلك بمعنى من المعاني. إنّ علينا أن نقنع الدائنين، قالت المحامية، بأن بوسعنا أن نسّدد ما علينا، وسنقوم بوضع خطة لتسديد الديون، فعليك أنّ تسّدد قدر ما تستطيع وفي خلال ثلاث سنوات ستكون بلا ديون وبوسعك عندها أن تبدأ من جديد. قلت لها بأنني لا أدري إن كانت لدي الطاقة لأفعل ذلك. فقالت بأنه ليس هناك خيار أمامي. كان عليّ أن أكون شاكراً لتعاونها. لكنني بدلاً من ذلك كرهت مرحها وتفاؤلها.

لقد سبق لي أن وعدت صوفي بصدق أنني لن أتركها وحدها في

المنزل أبداً، لكنني فعلت ذلك في إحدى الليالي. فعلى الرغم من أننا كنّا في منتصف أيلول إلّا أن اليوم كان حاراً، وشعرت بقلق استثنائي ولون من الإثارة الغامضة. اتصلت بمنزل أنتشه، لكن أحداً لم يجب، كما أنّ الهاتف الخلوي لسونيا لم يكن يجيب. كنت أعمل وأواصل الشرب، واتصل بمرسيليا مرّة كل نصف ساعة. أجابت أنتشه على اتصالي الهاتفي في الحادية عشرة وأخبرتني أن سونيا نامت منذ مدة. فقلت لها بأنهما لم تكونا في المنزل منذ نصف ساعة، والآن تقولين بأن سونيا قد نامت؟ فقالت أنتشه إنّ عليّ أن لا أرجم الناس بالحجارة؛ لأنّ بيتي من زجاج. قلت لها بأنني لا أدري ماذا تعني. فقالت إذاً عليّ أن أفكّر بالأمر واتصل بسونيا صباح الغد في المكتب حيث تعمل وأغلقت سمّاعة الهاتف قبل أن أتمكن من الإجابة.

كنت على ثقة تامة بأن سونيا ليست في المنزل، وأنّ لديها عشيقاً وأن أنتشه تتستّر عليها. كانت ليلة دافئة، فتذكرت أيام الصيف في أوقات الدراسة وكيف كنا نمضي الليل ونحن نتمشى، ولا نذهب إلى غرفنا إلا في الصباح عندما تأخذ الطيور بالغناء، فنعود إلى النوم ثملين، بلا هموم، ومثقلين بالآمال والتوقعات. بدا لي المنزل كالسجن، أو كالزنزانة، التي أصر على البقاء فيها، بينما تتفتح الحياة في الخارج، وتشعر ميونيخ كلها بالسعادة بما في ذلك منافسّي ودائني والعاملين في البناء، الذي أشرف عليه. سيستغرق الأمر سنوات حتى يستطيع المكتب أن ينهض على قدميه، بحيث نستطيع أن نتحدث عن الحد الأدنى من الحياة، في شقة من الشقق الرخيصة.

دون تفكير صعدت إلى السّيارة وتحركّت، كانت صوفي نائمة نوماً

عميقاً، وقلت لنفسي بأنني سرعان ما سأعود صحيح أنني أسرفت في الشراب لكنّه كان لدي شعور بأنني قادر على أن أسيطر على السيارة. كانت الشوارع شبه خالية، وكنت أقود السيارة بهدوء. وبعد نصف ساعة أوقفت السيارة أمام منزل إيفونا. فكرّت بأنها قد تكون ما تزال في عملها وبالتالي فبوسعي، مراقبتها وأخذها معي في السيارة؛ لأتمكن من النوم أخيراً. فتحت المذياع وأخذت استمع إلى الموسيقى وأدخن. بعد مدّة فتحت النافذة وأغلقت المذياع؛ كي أستمع إلى ضوضاء الليل في المدينة. أخذت أصحو تدريجياً وصمّمت على العودة إلى المنزل، عندما دق هاتفي الخلوي، كانت سونيا، وقد سألتني بصوت غاضب عن المكان، الذي أنا فيه. في السيارة أجبتها، هل أنت مجنون؟ ومن تركته لدى صوفي؟ إنها نائمة قلت لها. استشعرت آثار الكحول وأنا أتحدث معها في تلك اللحظة. فقلت لها بأنني كنت سأعود إلى المنزل الآن. أنت غبي. قالت سونيا: فسألتها وأين كنت أنت خارج المنزل؟

كانت جارتنا تجلس في غرفة المعيشة عندما عدت إلى المنزل، فقد كان لديها مفتاح، وقد اتصلت سونيا بها، وطلبت منها أن تعتني بسونيا ريثما أعود إلى البيت. كانت الجارة تبدو نعسانة، ولم تتحدث كثيراً باستثناء أن كلّ شيء على ما يرام. قلت لها بأنّ كل شيء على ما يرام ولست أدري ما الذي كانت سونيا تريده. صمتت الجارة وقالت تصبح على خير، فشكرتها. فقالت أنا أدري أن هذا وقت صعب لكل منكما، لكن عليك أن تستجمع قواك. تخيّل لو أنّ شيئاً ما قد حدث. ذهبت إلى الباب وفتحته لها فسألتني إن كنت أحب أن نتحدّث. كلّا لا أريد، تصبحين على خير.

اتصلت بي في اليوم التالي والدة سونيا في المكتب، وقالت بأنها تحب أن تقيم صوفي لديها فترة من الوقت. هل طلبت سونيا ذلك منك؟ سألتها فتردّدت في الحديث، لكنّها قالت بأنّ ذلك يسهّل عليّ الكثير من الأشياء، ويخفف عليّ الأعباء؛ لأن لدي الكثير مما ينبغي أن أفعله. تساءلت إن كانت سونيا قد حدثتها بما جرى. لكن صوتها بدا محايداً وموضوعياً. قلت بأن صوفي تذهب إلى المدرسة، فقالت بأنّ جدّها سيأخذها إلى هناك، وهو على استعداد لأن يفعل ذلك من أجلكما عن طيب خاطر. صمت فأضافت بأن بوسعي أن أزورها في الوقت الذي أرغب فيه كان الأمر يبدو وكأن المرأة ترغب في أن تسحب مني حقّ رعاية صوفي. ولم أكن حتى هذه اللحظة قد تفوهّت بكلمة. إن هذا هو الحل الأمثل لصوفي. أضافت والدة سونيا. قلت بعدها بأنّ عليّ أن أتحدث مع صوفي في الأمر. إذاً فإننا سنأتي اليوم مساء وسنأخذها معنا. قالت والدة صوفي في الختام.

سألت صوفي إن كانت ترغب في أن تقضي بضعة أيام عند جدها وجدّتها أثناء العطلة. فقالت والدة سونيا موضحة الأمر لصوفي. إنّ لدى والدك الكثير من الأعمال عندما يعود إلى المنزل في المساء. ونحن سنشتري لك دمية جديدة، وسنأخذك في رحلة بحرية بالقارب وسنصنع لك قوالب الحلوى والشوكلاتة. قلت لوالدة صوفي بأنّه لا يجوز أن تخاطب صوفي وكأنها غبية. لكنّني وعدت صوفي أن أزورها كل يوم. وبدا لي أنني أتصرّف كما يفعل الخائن.

كنت أظن أنّ كل شيء سيكون سهلاً بدون صوفي، لكن العكس هو الصحيح على الإطلاق، فقد أسرفت في الشرب وصرت أكثر إهمالاً.

كنت أذهب بعد انتهاء العمل إلى منزل والدي سونيا، فألاعب صوفي قليلاً وأعود إلى المدينة وأذهب إلى المكتب؛ لأواصل العمل. وعندما لا أتمكن من مواصلة العمل، أذهب إلى إحدى الحانات حيث ألتقي بعضاً من معارفي. صرت أسعى للحديث مع الناس بكل وسيلة، وأستمع إلى قصص تخص حياة رجال. كنت أتجنب اللقاء بهم عندما ألتقيهم في الشارع. وكنت أعيد حكايتي مراراً وتكراراً وأتلقى النصائح المبتذلة منهم. اهرب! نصحني بذلك رجل كان قد ترك عائلته منذ سنوات. ومنذ تلك الفترة وهو يعمل كثيراً؛ لأنهم الآن لا يستطيعون أن يأخذوا منه شيئاً. وقد أخبرني رجل ثان بأنه هو الآخر كان قد تزوّج من امرأة بولندية، ثم تزوجت رجلاً آخر. فقلت بأنني متزوج وأشرت بيدي في تلك الأثناء، إشارة تدل على اليأس؛ النساء كلهن سواء. في بعض الأحيان تتحدث معي بعض النساء ويعرضن عليّ أن يذهبن معي، فكنت أرفض الذهاب معهن مقابل المال.

في كل ليلة كنت أحكي ذكرياتي فيها، تكون ليلة طويلة مملوءة بالحوار والموسيقى الصاخبة والضحك. كانت الحكاية قابلة للتبادل كالمرأة أو الرجل الجالسيْن بجواري، وكنا جميعاً نحدّق في الاتجاه ذاته، ونمسك بكؤوسنا بقوة، ونطلب المزيد من البيرة، أو من البوشار. ذهبت وأنا أترنح إلى التواليت المضاء، كان يأتي من النافذة المفتوحة هواء رطب، وقد فكرت في إحدى اللحظات أنّ بوسعي أن أتسلق النافذة، وأقوم بالانتحار، وهو مشهد سبق لي أن شاهدته في أحد الأفلام لكنني عدت إلى الصالة وجلست على المائدة. كان الرجل يجلس ويصيغي إلى ما أقوله.

في نهاية الجولة، التي أمضيتها في الحانة، ركبت السيارة وذهبت إلى منزل إيفونا ووصلت هناك في وقت متأخر من الليل، وجلست أنتظر في السيارة، دون أن أدري ماذا أنتظر. وبدا لي وكأنّ حياتي قد تجمعّت في هذه اللحظة، التي أمارس فيها الانتظار. لم أعد أهتم على الإطلاق بما جرى وبما سيجري. فقد كنت أجلس كالمغشيّ عليه، وأحدّق في مدخل منزل إيفونا وأواصل الانتظار.

ذات مرة نمت في السيارة ولم أصح إلا عندما مرّ بضعة أطفال وهم في طريقهم إلى المدرسة، فدقوا على زجاج السيارة وضحكوا وواصلوا سيرهم. شعرت بالخجل من أن تراني صوفي على هذه الشاكلة، لكنّ ذلك كله لم يساعدني على أن أتراجع وأصبح رابط الجأش. لم أذهب في ذلك النهار إلى المكتب، بل رجعت إلى المنزل، واستلقيت فوق السرير، في حوالي التاسعة اتصلت السكرتيرة بي، فزعمت بأنني مريض وعدت إلى السرير. صحوت في فترة متأخرة بعد الظهر وأنا أعاني من صداع رهيب، تحسن بعد أن احتسيت شيئاً من البيرة. اتصلت بوالدي سونيا وأخبرتهما بأنني لن أتمكن من المجيء هذه الليلة؛ لأنني مريض، فردت والدة سونيا بأنّ ذلك غير مهم. وبدا بأنها تجد بأن من الأفضل أن لا أجيء إليهما يومياً. كانت صوفي تشعر بالاستقرار هناك. وصرت لا أزورها إلا في نهاية الأسبوع.

كنت أعي بأنّ الأمور لا ينبغي لها أن تسير على هذه الشاكلة، ولا يصح أن أخسر صحتي وعائلتي وشركتي، لكنني لم أكن أمتلك القوة لتغيير هذا الواقع. لقد جاءت خسارتي بعد سنوات من العمل المرهق، ولم يعد يمكن أن يصيبني، بعد هذه الخسارة، شيء. فقد صرت أحيا من

غير شروط ودونما واجبات. ويمكن لي أن أجد عملاً بسيطاً في مكان ما وأعيش وحدي في شقة صغيرة. وسيكون لديّ وقت للتأمل والتفكير. وسأكون أكثر هدوءاً فكثيراً ما كنت أشعر أنني أرى نفسي من الخارج، وكأنه ليس هناك ما يربطني بهؤلاء الناس وعندها سأتمكن من الظفر بشيئين مهمين هما: الجمال والهدوء. كان الأمر يبدو لي أحياناً وكأنني أصحو وأنا في وسط الشارع. كنت أقف في مكان ما أرقب أماكن الوقوف عند المدارس، أو أراقب عمارة يجري بناؤها، أو أيّ مشهد آخر ولا أدري كم مرّ عليّ من الوقت، وأنا أقف وعليّ أن أفكر في الوجهة، التي كنت أقصدها.

وعندما كنت أبقى في المكتب لمدة طويلة، فذلك؛ كي أؤجل مسألة الشراب قليلاً. كنت أجلس على الطاولة وألعب إحدى الألعاب الموجودة على جهاز الحاسوب حتى تؤلمني يداي من تكرار الحركة ذاتها. وكنت أغادر المكاتب في العاشرة والنصف.

في تلك الليلة كانت هناك مباراة مهمّة للدوري الألماني، والمقاهي تغصّ بمجموعات صاخبة من الرجال. كنت أرغب في مشاهدة المباراة، وقد تمكنت من العثور، أخيراً، على حانة في زاوية الشارع فيها تلفزيون صغير، وهي شبه خالية. جلست إلى إحدى الطاولات وطلبت كأساً من البيرة. وأخذت أنظر أمامي. كان يجلس على البار رجل سمين في مثل سنّي ويديم النظر نحوي. بعد مدة من الزمن جاء الرجل حيث أجلس وبيده كأس وسألني إن كان بوسعه أن يجلس. أطرقت موافقاً، فجلس قبالتي وأخذ يتكلّم. كانت ألمانيته مشوبة بلكنة خفيفة، وقد كان فرنسياً في الغالب، وبدا لي أنه تعّلم الألمانية من خلال الكتب. كانت جمله

طويلة ومعقدة، وكان يستخدم الكثير من الكلمات القديمة ولم يكن من السهل علي أن أتابع حكايته. فقد توفيت إحدى النساء، ولم أستوعب تماماً السياق، الذي جعله يعد نفسه مسؤولاً عن موتها. كان الرجل مسكوناً بفكرة الذنب هذه، وقد سألني غير مرة إن كان هو مذنباً حقّاً. وقبل أن أتمكن من الإجابة، كان يواصل الحديث حتى لم أعد قادراً على الإنصات، فأطرقت برأسي، لكنّني بدأت أفكّر بسؤاله ، فقد عاملت إيفونا معاملة رديئة، لكنني لا أشعر بالذنب نحوها. وإذا كان هناك أحد له الحق في توجيه اللوم لي، فهذا من حق سونيا وحدها. ومع ذلك فأنا لا أشعر نحوها بالذنب. وبدا لي الأمر أكثر بساطة مما أظن، فإنّ ذنبي في كل ما وقع لا يكاد يذكر، تماماً مثل سونيا، أو إيفونا أو أية شخصية أخرى. أنا لم أكن غولاً، لكنني لم أكن أفضل أو أسوأ من الآخرين.

كانت مسألة الذنب هذه تبدو لي نوعاً من العبث، لكن المسألة على الرغم من عدم تفكيري فيها، لعبت دوراً مهماً في حياتي وقد بدا لي وكأنّني كنت اشعر بالذنب منذ طفولتي ليس بالضرورة جراء أعمال بعينها، أو نتيجة للسهو أو لوجود أشياء كان يمكن لي أن أغيرّها. ومن يدري لعلها كانت الخطيئة الأزلية في أن تكون إنساناً. ولو أنني أستطيع أن أتخلّص من الإحساس بالذنب لغدوت إنساناً حرّاً. جاءني هذا الكشف في أثناء سكري، وكأنه حكمة كبرى، وشعرت حقيقة وكأنني تحرّرت.

إنّ الإنسان ليس سيئاً في حقيقته، كما يقول الفرنسيون، لكنه يفقد النور. كان الرجل يتحدث طيلة الوقت عن ذنبه لكنه بدا وكأنه يقصدني. دعاني إلى حبات البوشار الموجودة في صحنه.

وفي اللحظة، التي فرغت فيها كأسانا، جاء النادل إلى الطاولة وملأ الكأسين، ولم أدر إن كان النادل قد جاء إلينا بناء على إشارة، إلاّ أنني احتسيت كأساً سريعاً على نحو يفوق ما اعتدت، عليه وعندما أردت الذهاب إلى الحمام، سقط الكرسي خلفي وبدأت أشعر وكأن الصالة تميد من تحت قدمّي. توقف الفرنسي عن الكلام في منتصف الجملة، عندما بدأت أترّنح. بعد ذلك بدأ يتحدث عن الأشياء بفرح جنوني، كالمجنون أو كشخص لم يعد لديه ما يمكن أن يخسره. وكنت كلّما أسرفت في الشرب، أجد سهولة في متابعة حديثه. كانت أفكاره تتسم بالقدرة على الإقناع وبالجمال. لقد تأخّر الوقت كثيراً، قال أخيراً وتنهّد.

ستجيء كل الأمور متأخرة لحسن الحظ. بعدها نهض الرجل وذهب وتركني وحيداً في حالة من الالتباس. ناديت صاحب المقهى وطلبت كأساً من البيرة، فرفض أن يقدّم لي أية خدمة وقال إن من الأفضل أن تذهب إلى المنزل حالاً، وسأطلب لك سيارة تاكسي.

لو لم أكن ثملاً تماماً، لتشاجرت معهم، أخرجت محفظة النقود وسألت عن الحساب. لا شيء. قال صاحب المحل، لقد سبق للسيد أن دفع الحساب. فكرّت بأنني بريء من الذنب. وكان عليّ أن أضحك. أمسك بي صاحب المقهى من ذراعي، لكنّني نفضت يدي واتجهت نحو الباب وأنا أترنح. إنّني حرّ.

جلست في التاكسي وعجبت أنه لم يتّحرك. أدركت بعدها أن السائق يتحدث معي، وسألني عن العنوان. كنت مرهقاً وفي حالة سيئة. نظرت في محفظة النقود، فلم أجد فيها نقوداً من الفئات الصغيرة، فأعطيت السائق عنوان منزل إيفونا.

لم تستغرق الرحلة إلى منزلها مدة طويلة، ولعلي كنت غفوت في تلك الأثناء، لكنّ السائق ربّت على كتفي. وقال: لقد وصلنا. انتظرني في أثناء ذهابي إلى باب المنزل، وأنا أبدو وكأنني أبحث عن المفتاح، التفتّ فإذا به قد قفز من السيارة وتبعني. سألني إن كان بوسعه أن يساعدني، فقلت سيأتي أحد الآن، وعليه أن يختفي في الحال. سألته عن بلده فقال إنه من بولندا، كان عليّ أن أضحك، تراجعت خطوة إلى الوراء وكدت أسقط لو لم يحل بيني وبين ذلك. سألني أين ينبغي أن يدق الجرس، فقلت على الطابق الأرضي، يساراً.

احتاج الأمر إلى زمن طويل حتى جاءت إيفا إلى الباب، كانت ترتدي تنورة صباحية كتلك، التي قابلتها فيها بعد ظهر ذلك اليوم، عندما جئت إلى هنا للمرة الأولى. تأملتني للحظات عبر زجاج الباب، وهي تشعر بالحيرة ثم بدا أنها عرفتني. فتحت الباب وسألت السائق إن كنت قد دفعت له الأجرة فأطرق، وقال شيئاً بالبولندية. ضحكت إيفا بصوت خفيف وأجابته وأمسكتني من ذراعي. تذكرت صوت الباب وهو يفتح مثلما تذكرت الهدوء ورطوبة بيت الدرج. ساءت حالتي وشعرت بأنني يجب أن استسلم. كانت إيفا ما تزال تمسك بذراعي بقوة وتربت بيدها على ظهري وتكلّمني وكأنها تتحدث مع أحد الأطفال. قادتني إلى السكن ثم إلى الحمام وأجلستني على التواليت، ثم تناولت دلواً بلاستيكياً وممسحة وأختفت. كنت ما أزال أشعر بأنني دائخ، لكنني بدأت أصحو وبدأت حالتي بالتحسن. سمعت أصوات أبواب وغمغمات عادت بعدها إيفا وأخبرتني أن بوسعي أن أنام في غرفة إيفونا. نهضت وغسلت فمي بماء بارد. أمسكت إيفا بي من

الخلف وقبضت على يدي بقوة قبضة ممرضة.

في الغرفة كان هناك ضوء جانبي ضعيف. كانت إيفونا تقف برأس محنّي إلى جوار الباب. سلمتني إيفا لها، فقادتني إيفونا إلى السرير وساعدتني على خلع ملابسي والاستلقاء. كان الوضع يأخذ أبعاداً احتفالية أو طقوسية تقريباً.

استلقيت فوق السرير، وأغمضت عينّي، لكنّ كل شيء كان يدور في رأسي، ففتحت عيني، وحدقت في سقف الغرفة وحاولت أن أُثبّت نظراتي في مكان ما هناك. استمعت إلى شيء من الضجيج، وعندما فتحت عيني شاهدت إيفونا وهي ترتب الغرفة. كانت ترفع الأشياء هنا وهناك وتقف وتتأمل النتائج وتمضي في ترتيب المكان كان جهداً ضائعاً؛ لأن الغرفة كانت غاصة بالأشياء إلى درجة يستحيل معها إعادة تنظيمها. بعد ذلك صارت حركات إيفونا تتسّم بالتردّد، فكانت تمسك شيئاً ما بيدها، ثم تتوقف لحظة، وتضع ذلك الشيء في المكان نفسه. ماذا تفعلين؟ سألتها. كان صوتي يبدو مبحوحاً. لم ترد إيفونا على سؤالي واكتفت بالوقوف وهي تدير ظهرها لي. تعاليْ إلى السرير. قلت لها، فخلعت روبها الصباحي وأطفأت النور الجانبي واستلقت إلى جواري.

لم أستطع النوم وبقيت صاحياً لمدة طويلة، وكنت على ثقة بأن إيفونا هي الأخرى، لم تنم. كنت أتقلّب بين اليقظة والأحلام، رأيت أنني وإيفونا مستلقيان فوق السرير، على النحو الموجود في اللوحات التذكارية، التي اعتدت أن أراها في الكنيسة أحياناً، حيث يستلقي رجل وامرأة إلى جوار بعضهما البعض منذ مئات السنوات، ويداهما

مضمومتان على صدريهما، وعيناهما مفتوحتان، ووجهاهما منشرحان. كانت إيفونا تبدو في غاية الجمال، وكنت أريد أن أضمّها لكنني لم أستطع أن أتحرّك.

عندما صحوت تبيّن لي أن إيفونا كانت مستيقظة. كانت تستلقي وكأنها لم تتحرك من مكانها طيلة الليلة الماضية. شعرت بالخجل مما جرى، لكنني لم أشعر، للمرة الأولى في حياتي، بأنّ لديّ الدافع للهرب. التصقت بجسدها الثقيل، ودفنت وجهي في صدرها كما يفعل الطفل مع صدر أمه، فربتّت على شعري، وبقينا في السرير على هذه الشاكلة دون أن يتحدث واحد منا بكلمة.

نهضت إيفونا فجأة، فتراجعت بحذر من ورائي، وتناولت ملابسها الموضوعة على أحد الكراسي وغادرت الغرفة. غفوت مرة أخرى ثم استيقظت، عندما كانت إيفونا تلمس كتفي برفق. ذهبت إلى الحمام بينما ذهبت هي إلى المطبخ. نظرت إلى الساعة فرأيتها قد بلغت السابعة.

كان الهدوء يخيّم على الشّقة. أخذت حماماً وذهبت إلى المطبخ، حيث كانت إيفونا قد بدأت تصنع القهوة. وضعت إيفونا الخبز والزبدة والنقانق وشرائح من الجبنة فوق الطاولة. كانت حركتها تبدو خجولة وبدت وكأنها لن تنتهي من الحركة.

جلست إلى المائدة، وجلست إيفونا قبالتي ونهضت ثانية عندما انتهت القهوة. أتريدها بالحليب؟ سألتني، كان ذلك هو أول كلام لها منذ ليلة البارحة.

لم أستطع أن أتناول الطعام، لكن إيفونا كانت تأكل بشهية مدهشة، اقتطعت لنفسها شريحتين من الخبز الموجود في وعاء بلاستيكي مغطّى

بحقيبة بلاستيكية. بدت الأمور وكأننا زوجان قديمان يعرفان بعضهما معرفة وثيقة، لدرجة أنّ أحداً منهما لا يحتاج إلى الحديث مع الآخر. قالت إيفونا بأنّ عليها أن تذهب إلى العمل، فلحقت بها إلى خارج الشقة، ثم إلى خارج المنزل. كانت السماء صافية، لكنّ الجو كان بارداً. لم يكن موقف الباص بعيداً عن المنزل، وقفت إيفونا في الصّف، وهمست لي بأن أذهب، لكنّي بقيت واقفاً إلى جوارها. بعد دقائق رأيت الباص في نهاية الشارع وهو ينحني عند المنعطف ويتجه صوبنا. كانت إيفونا بانتظار أن أقول لها كلمة، وقد حاولت أن أحول بينها وبين الباص، لكنني في النهاية لم أفعل. أخبرتها أنّ عليّ أن أحضر سيارتي، فقد تركتها ليلة أمس واقفة. قبل أن تصعد إيفونا إلى الباص قبلتني على فمي قبلة خاطفة، واستدارت سريعاً وجدتْ مقعداً فارغاً عند النافذة فتبادلنا النظرات عبر الزجاج. عندها صرت على قناعة أنّ إيفا كانت على حق عندما قالت بأن حياة إيفا على الرغم من كل ما فيها من فقر وعناء وحقوق مسلوبة، أكثر سعادة من حياتي.

كان على الباص أن يتوقف قليلاً حتى يستطيع أن يعود إلى خطّ مسيره الطبيعي وعندما مشى الباص رفعت إيفونا يدها، ولوّحت لي وابتسمت.

عقد اجتماع الدائنين بعد ظهر هذا اليوم، لم تكن سونيا موجودة، فقد كان لديها الكثير من الأشغال في مرسيليا، وكانت ترى أنها لا تستطيع أن تغيّر شيئاً لو أنها جاءت. كانت محامية الإفلاس قد أعدّت خطة وعدت فيها بتسديد ما قيمته 15٪ من مجموع الدين، وقالت بأنها لو قامت في هذه اللحظة بحلّ الشركة فإنّ الدائنين لن يحصلوا على 5٪

كان تفاؤلها ذا طابع مؤثر، وإن كان الوضع بمجمله يبعث على الإحباط. وسواء أكنت مذنباً أم غير مذنب، فقد كان عليّ أن أدفع لهؤلاء الناس أموالهم، وأرى ذلك رؤيا العين. لكنّ أحد تجّار القرطاسية، وقف دون تحقيق خطة الإفلاس هذه، وكان الأمر يتعلق بمبلغ قليل نسبياً لكن هذا التاجر أراد التلاعب بالأمر ووجه إليّ اللوم. شعرت بالغضب وأردت أن أعارض ما يحدث، وهنا وضعت المحامية يدها فوق ذراعي وهمست: لا تقل شيئاً. إنّه مجرد تنفيس لا أكثر، أخيراً وصلنا إلى التصويت وصوّت الجميع لصالح الخطّة، ولصالح استمرارية الشركة.

اتصلت بسونيا من أمام مبنى المحكمة. كانت سونيا في مرسيليا تنتظر مكالمتي على أحرّ من الجمر، فسألتني عما حدث. أخبرتها أنه بوسعنا أن نستمر في العمل. صمتت سونيا لحظة ثم قالت لقد تحدثت مع ألبرت، وستعود إلينا في منتصف كانون الثاني. هل أنت سعيد بذلك؟ سألتني. أجل، فلم يعد بوسعي أن انتظر المزيد، فأنا أشعر بالإرهاق الشديد.

عادت سونيا قبل أعياد الميلاد بأسبوع. استقبلتها في المطار ومعي باقة ورد. جلسنا بعد ذلك في مقهى قريب من منتصف منطقة الاستقبال وشربنا القهوة. أتذكر يا ترى كيف قمت آنذاك بإحضاري من المطار؟ لقد أصبت يومها بالدهشة لجمالك. قلت لها. خفضت سونيا عينيها وعندما تأملتني ثانية بدت عيناها تلمعان. أتبكين؟ سألتها. قالت بأنها أضاءت شمعة من أجلنا في كاتدرائية مرسيليا. سألتها إنْ كانت تقصد تلك الكاتدرائية القبيحة القريبة من البحر. ابتسمت سونيا وأطرقت. أخبرتني أنها اعتادت الذهاب إلى هناك في الشهور الأخيرة، حيث

كانت تجلس وتفكر وتأمّل. هل ستصبحين متدينّة عندما يتقدم بك العمر؟ نهضت سونيا وقالت هيا لنذهب، ونحضر صوفي.

ضحكت عندما رأت السيارة. لقد ولّت السنوات الخصبة. قلت لها إنها ليست سيارة رديئة، ففيها مكيّف. قالت سونيا إن ألوان المرسيدس تعجبها دائماً. ولم نتحدث كثيراً في أثناء السفر كنت أتأمل سونيا بين الحين والآخر، مثلما كانت هي الأخرى تفعل وتبتسم.

كان والدا سونيا بانتظارنا. كانت حقيبة صوفي الصغيرة في الممرّ وإلى جانبها دراجة أطفال جديدة، وحقيبتان بلاستيكيتان فيهما دمى قماشية، وهدايا أخرى، اشتراهما والد سونيا لصوفي في الأسابيع الأخيرة، كانت صوفي تجلس في غرفة المعيشة، وتشاهد الرسوم المتحركة. وعندما وصلنا نظرت نحونا نظرة سريعة وقالت دون أن تحيّينا، بأنّها تريد أن تشاهد الفيلم حتى نهايته. تعالوْا، قال والد سونيا، وهو يقودنا إلى مكتبه. جلس الرجل على نحو رسمي وقال بأنه سيقوم بتحرير بيتنا من تبعات مسألة الإفلاس وسيقوم بشرائه، وأنه تحدّث، بهذا الخصوص، مع البنك وتفاوض معهم حول السعر. وقد وافقت كارلا ووالدة سونيا. ما معنى هذا؟ سألت سونيا. هذا يعني، قال والدها، أنّ مسألة الرهن قد انتهت، وأن البيت لن يباع في المزاد العلني، وأنكم تستطيعون البقاء في المنزل. فأموالي لكم في نهاية المطاف، وستأخذونها ذات يوم. بعدها نهض والد سونيا وقال بأنه يفعل ذلك من أجل صوفي، أعجبنا ذلك أم لا.

في الطريق أخبرتنا صوفي بأنّ جدّتها وعدتها بأن تهديها قطة صغيرة، إذا لم يكن لدينا مانع. ردت سونيا بأنها لا تستطيع أن تقرر

بسرعة، فالحيوان ليس دمية، فإذا اقتناه الإنسان، فعليه أن يرعاه ويعتني به. وهل صوفي قادرة على القيام بهذا؟ ردّت صوفي بصوت عصبّي بأنها تعرف ذلك، فضلاً أن لفيلسيتا قطة. قالت سونيا بأن على صوفي عندئذ أن تقوم بتنظيف المطبخ، والتفت نحوي، في هذه الأثناء. قلت بأن هذه الفكرة غير حسنة. فبيتنا خال من الناس طيلة النهار، وهذا يعني أن القطة ستكون وحدها. ردت صوفي بأنّ في وسع القطة أن تذهب إلى الخارج. إذاً دعينا ننتظر بعض الشيء. قالت سونيا. شعرت صوفي بالإهانة وظلت صامتة حتى وصلنا إلى المنزل.

كنت قد نظفت المنزل وأزحت الزجاج القديم. لذا بدا لي المنزل عندما وصلنا، وكأنّنا وصلنا إلى منزل غريب، وكان هذا شعور سونيا إلى حد ما، التي كانت تتحرك بين الغرف وتتأمل المنزل، وتفتح مصاريع الخزائن، وتتأمل الرفوف. كان علي أن أتذكر دعاية مسحوق التنظيف، الذي استخدمه الزوج من أجل تنظيف المنزل، وعندما جاءت الزوجة من رحلتها وجدت المنزل نظيفاً إلى حد لافت. يقوم الزوجان بالتجوّل في ثنايا المنزل، والزوجة تنظر وتتأمل أرجاء المنزل بإعجاب وهي تبتسم ابتسامة الخبير، الذي يعرف أنّ الفضل في النظافة يعود إلى المسحوق العجيب. قالت سونيا وهي تقبلني بأنه منظر المنزل يبعث على الارتياح.

احتاجت صوفي إلى بضعة أيام حتى شعرت بالألفة. في البداية كانت تنعزل وحدها عندما ندعوها لتناول الطعام، وكانت تشكو من كل شيء. كانت لا تكف عن رغبتها في الحصول على القطّة، وعندما كنا نرجئ الموافقة، كانت تُواصل البكاء. أوضحنا لها طبيعة الوضع،

بقدر استطاعتنا، لكنها رفضت أن تستمع إلينا، واختفت في غرفتها، حيث لا عمل لها سوى الجلوس. أخذت صوفي تتحّسن بالتدريج، فبدأنا نقوم برحلات قصيرة، وبدأت تحكي لنا عن مدرستها حيث تشعر هناك بالراحة. كنا نمضي أيام العطل عند أهالينا، لكننا توقفنا عن ذلك، في هذا العام، وقررنا البقاء في المنزل.

كنّا نمضي الوقت في النقاش حول المستقبل، عندما تذهب صوفي لتنام، و كنا لا نتوقف عن الحساب ونتأمل ونفكر في الوسائل، التي تمكنّنا من التوفير، ونتابع المفاوضات. لن يكون الأمر سهلاً. قلت، لكنّنا سننجح، قالت سونيا، فليس لدينا خيار آخر.

كانت السنة الأولى نضالاً حقيقياً، كان علينا أن نعمل من أجل العقود الصغيرة، وأن نعمل من أجل الشروط، التي كنا نسخر منها قبل عدة أيام، غير أننا تمكنا من البقاء في إطار خطة الإفلاس، وقمنا بدفع النقود المطلوبة. صرنا نشارك في المنافسات، وصرنا نحصل بالتدريج على عقود تتمثل في مشروعات صغيرة، كالصيانة، أو بناء منزل للرحلات لأصدقاء عائلة والديْ سونيا. كنا نشتغل في تلك الفترة بقليل من القوى العاملة وكنت أشعر، أحياناً، كما كنت أشعر في بدايات سنوات الزواج، عندما كنا شباباً وبلا خبرة، ونجرّب كل شيء للمرة الأولى. كنا أنا وسونيا نعمل معاً على نحو وثيق أكثر مما كنا نفعل قبل الأزمة، كما أن علاقتنا صارت أكثر ثقة من ذي قبل.

كنا نتحدّث عن فن العمارة، وعن القضايا الأخرى الجوهرية في هذا الفن، كما كنا نحكي عن الأهداف، التي نسعى للوصول إليها من خلال عملنا. كان كل شيء يبشّر بالخير، وإن كان يساورني الإحساس،

أحياناً، بأنّ سونيا لا تستطيع أن تكتفي فقد كان لديها، على الدوام، مثل عليا وأهداف تجعلني أشعر بخيبة الأمل، كانت تعاملني بتسامح لكنني كنت ألحظ في بعض الأحيان، أنها تتفحصني بنظرات نقدية. وعندما أسألها بماذا تفكر، كانت تكتفي بهزّ رأسها وهي تضحك.

صار لدينا وقت أكثر لصوفي، وأصبحنا أعضاء في نادي المدرسة، التي تتعلم صوفي فيها. فقد انضمت سونيا إلى الدائرة، التي تعد الاحتفالات التي تقام في عطلتي الربيع، ونهاية العام، أما أنا فقد ساعدت إدارة المدرسة في التخطيط لنظام تدفئة جديد.

توقفت عن الشرب، وبدأت أقوم، للمرة الأولى، منذ سنوات طويلة برسومات خاصة بي. كنت أغامر أكثر مما كنت أفعل سابقاً وكأنه لم يعد لديّ ما أخسره. وعندما أخذت أقلب تصميمات ألدوروسي خطر على بالي جملة سبق له أن قالها، بدت لي مناسبة تماماً لما أنا فيه: إنّ تغّير العالم، حتى لو تم قطعة قطعة، ينبغي ألاّ/ ينسينا ما لا نستطيع امتلاكه.

لم يتم تنفيذ أي تصميم رسمته، لكنّ ذلك ليس مهمّاً، بل على العكس تماماً، فقد استطاع ذلك أن يعدني عن القبول بالحلول الوسط، وسمح لي بقدر واسع من الحرية أنْ أصمّم تلك التصميمات في ضوء تصوراتي. لقد عاد لي الشعور ثانية بأنني معماري حقيقي، وقد أثر ذلك على عملي، وما أشرف عليه من بناء.

تغير أسلوب سونيا، فقد تحرّرت تماماً من النماذج، التي تحتذيها ووجدت لغتها المعمارية الخاصة بها. قد يبدو الأمر عجائبياً، لكنّ من الواضح أن الأزمة استطاعت أن تفتح أعيننا على طريق جديد، بعد أن لم ننجح في تطوير أنفسنا بعد سنوات النجاح، ومضينا في تقليد أنفسنا.

كتبت سونيا بعض المقالات في المجلات المتخصّصة، وصارت تدعى إلى المؤتمرات، وحصلت على عقد في إحدى الجامعات في ديساو، ثم تمكنا من الظفر بمسابقة لبناء مشروع سكن اجتماعي في لينتس. ها قد عدنا إلى السوق. قالت سونيا، وهي تزّف لي البشرى.

قررنا أن نحتفل، فأوصلنا صوفي إلى منزل والديْ سونيا، وذهبنا إلى أحد المطاعم الراقية. سألتني سونيا إن كنا نستطيع أن نحتمل نفقات المشروع، أجبتها بأن فترة الاختبار ستنتهي بعد ستة أشهر، نكون بعدها بلا ديون، ونستطيع أن نفعل ما نشاء. قالت سونيا بأنها لم تكن تعتقد بأننا قادرون على أن نبدأ من جديد. أتعرف الشعور، الذي تعجز فيه عن أن تستدير إلى الوراء، وتكون مجبراً على السير قُدماً في الاتجاه نفسه؟ أمّا الأسوأ فهو أنّ هذا التصوّر جذّاب بعض الشيء. وعلى من يستقيل أن لا يبذل أيّ جهد. ربما. قلت، لكنني لم أر طريقاً آخر. فهزت سونيا رأسها مؤكدّة أنها جبانة على الدوام. فأضفت بأن المرء عندما يخسر في النهاية، فهذا أمر حسن إذا كان قد كافح من قبل، ولهذا فأنا أحبك؛ نظراً لتفاؤلك غير القابل للانكسار. بدا لي أن سونيا لم تنتبه إلى السخرية في صوتي. فقالت هذا أمر لا علاقة له بالتفاؤل، وكانت ملاحظتي قد أزعجتها، إنه أمر ذو صلة بالموقف.

وهكذا عشتم سعداء وفرحين. قالت أنتشه. هيّا بنا، قلت لها، سنعود القهقرى، فإن سونيا ستتعجب أين نحن الآن. سألتني أنتشه ونحن في طريق العودة عن مخططاتي. ليس عندي منها شيء، قلت لها. وهل انتهت علاقتك بإيفونا تماماً؟ نعم. انتهت. أجبتها، تأملتني أنتشه بنظرات ارتياب. إننا نأمل أنّ كل شيء قد ذهب بحال سبيله.

ها قد عدنا، صحتُ وأنا أغلق باب المنزل. كان الوقت ظهراً، أو بعد ذلك بقليل. قالت أنتشه إنها ستقوم بترتيب حقائبها سريعاً. دخلت إلى غرفة الجلوس، فلاحظت أن أمراً غير عادي يحدث. كانت سونيا تقف أمام النافذة. وعندما استدرت رأيت أن عينيها حمراوتين. سألتها إنْ كانت جائعة، أو إذا كانت قد أعدت طعام الغداء؟ صمتت سونيا. ما الذي جرى؟ سألتها. كانت نظراتها تنطوي على بعض الشكوك، ذهبت إلى الكنبة، ثم عادت إلى النافذة مجدّداً، وبدأت تتحدث ووجهها نحو الخارج، وكان صوتها منخفضاً. فلم أكد أستوعب ما قالت. تصرفت وكأنني لم أستوعب شيئاً، أو كأنني لا أريد أن أستوعب شيئاً.

ماذا؟ أتريدين الذهاب إلى مرسيليا؟ جلست على الكنبة وجلست سونيا إلى جواري، وهي تضع رأسها بين يديها. أنا لست سعيدة هنا، قالت.

جلسنا متجاوريْن دون أن نتحدث. وقد وضعت ذات مرة يدي على كتفها، لكنها كانت صلبة، فحالت بيني وبين عناقها، وأبعدت ذراعي. بدأت أفكر بالأشياء على نحو عبثي، إذ يتوجب علينا أن نتقاسم الأشياء بيننا، فالمنزل ملك لوالديْ سونيا، وأفكر بما سيقوله العاملون لدينا. فكرّت في كل شيء، لكنني لم أشعر بغير الحيرة ولون

من الرعب، الذي لم يكن سلبياً ولا إيجابياً. هل كانت فكرة الذهاب إلى مرسيليا إحدى أفكار أنتشه؟ كانت سونيا تبدو سعيدة؛ لأنه صار بوسعها أن تتحدث. قالت بأنّ أنتشه لا تدري عن هذا القرار، وأنها قد اتخذت هذا القرار منذ زمن طويل. فقد لاحظت أثناء إقامتها في مرسيليا، أنها تمتلك إمكانيات كبيرة مخبوءة في داخلها. هل لهذا العودة صلة بألبرت. هزت سونيا رأسها نافية ذلك، وقالت بأنها لم تشعر هنا بالراحة على الإطلاق، إنه ليس عالمها. قلت لها بأنها كانت تريد منزلاً على البحر، وتريد أن تقيم إلى جوار أهلها مع أنني كنت أفضل دائماً أن أعيش في المدينة. ضحكت سونيا، ولكنّ ضحكتها كانت تبدو وكأنها على وشك البكاء. قلت لها إنّه كان ينبغي علينا أن نتحدث. من قبل، حول هذا الأمر، فقد صرت أشعر بأننا صرنا أكثر تفاهماً من ذي قبل ليس هذا هو مربط الفرس، قالت سونيا، فأنت لم تعد بحاجة إليّ.

جاءت أنتشه إلينا وأخبرتنا أنها جهّزت حقائبها، وسألت إن كان هناك غيرها يشعر بالجوع. تحركت سونيا نحوها، وأمسكت بذراعها وخرجتا من الغرفة. لتعود بعد حوالي عشر دقائق ولتجلس إلى جواري.

بدأنا نتحدث مع أنه لم يكن لحديثنا معنى. كانت سونيا قد تخلّت عن علاقتها بي منذ زمن طويل، وكانت المشكلة تكمن في قدرتها على إيضاح أسبابها لي، والتقليل من الخسائر ما أمكن. بعد ذلك بدأ الحديث يدور حول الأزمة. عارضتها، ورأيت أن موقفها قد يعود إلى الجبن، مع أنني أعرف، أنها على حقّ. لقد استطعت أن أرتّب أموري مع الحالة القائمة، لكنني لم أكن سعيداً. لكنّ السعادة لا تكفي سونيا. صحيح أن

الأمور تسير نحو التردي، قالت سونيا، لكنه يكفيها شرف المحاولة.

جاءت إلينا أنتشه بعد ذلك، وقالت بأنها تشعر بالجوع، وعرضت علينا أن تطهو السباغيتي لنا. وعندما لم يجب أحدنا، ذهبت وعادت ومعها صوفي، التي كانت تحمل قطتها على ذراعها، وتنظر إلينا بخوف. قالت أنتشه بمرح مصطنع. إنها ستذهب؛ لتناول الطعام مع صوفي. واصلنا الحديث عندما سمعنا صوت المفتاح وهو يغلق الباب الخارجي.

وماذا عن صوفي؟ سألت سونيا. سيتبدّى الحل في هذه الأثناء قالت سونيا، إنك تعتقد بأنني مخلوق أناني مشوّه. لا. هذا ما لا أعتقده. قلت لها. لكنّ صوفي لا تريد الذهاب إلى مرسيليا. أطرقت سونيا، وهي تقول أنا أدري، ولعّل من الأفضل أن تبقى عندك. ثم ترددت قليلاً، وقالت ينبغي علينا أن نخبرها بأنني لست أمها. نظرت نحوها متسائلاً فقالت سونيا: هذا هو واحد من حقوقها. ومتى ينبغي لها أن تعرف أمها الحقيقية؟ سألتها: فقالت بأنه ليس من الضروري أن يحدث ذلك في الحال، لكنّ الشعور ظلّ يخامرها منذ البداية بأن ما فعلناه لم يكن صواباً. فسألتها لماذا لم تتحدثي عن هذا الأمر على الإطلاق؟ فقالت بأنها كانت تخشى أن تفقدني. والآن أنا الذي أفقدك. قلت لها. هزت سونيا رأسها وقالت بأننا سنبقى أصدقاء أعزاء، على كل حال. ولن يتغير الكثير في وضعنا. ثم تردّدت قليلاً، وسألتني إن كنت أنوي أن أقيم مع إيفونا. كانت تلك هي المرة الأولى، التي تلفظت فيها باسم إيفونا. كلا. قلت. لقد انتهت المسألة. كنت أريد أن أضيف إلى ما قلته أنني لم أحبّ إيفونا، وأنها لم تكُن منافسة لسونيا على الإطلاق، لكنّنيّ

لم أكن متأكداً إذا كان ذلك صحيحاً أم لا. لهذا صمت، ولم أقل شيئاً. من يدري، قالت سونيا وهي تبتسم، وبدت وكأنها لا تصدّق ما أقول. سألتها عن موعد سفرها، فردّت بأنها ليست في عجلة من أمرها، فنحن غير متخاصمين. وليس في حياتها رجل آخر، وعليها أن تنظّم الأمور كلّها، فتجد سكناً مناسباً ووظيفة. هل سنحتفل بأعياد الميلاد سوية؟ سألتها وكدت أجهش بالبكاء. لم أكن أعرف على الإطلاق أنك تستطيع البكاء، قالت سونيا وهي تضع ذراعها على كتفي، وتضمني نحوها. ثم قالت: سيكون كل شيء على ما يرام.

أصبت بالدهشة، لأن سونيا لم تصر على إيصال أنتشه إلى المطار، فلعلها كانت تريد أن تتحدث مع صوفي في أثناء غيابي، أو لعلها كانت تأمل أن تتمكن أنتشه من إيضاح ما لا يناسبني هنا. لكن أنتشه تجنبت الموضوع، وشرعت تتحدث عن أشياء أخرى. فعندما بدأت أتحدث عن الموضوع، أفصحت عن معلومات متناقضة. فقد قالت في البداية بأنه ليس لديها معلومات بأن سونيا تريد أن تنفصل عني، بل لقد كان لديها الشعور بأن الأمور قد تحسنت ثانية. وأنا كذلك قلت. فقالت أنتشه لعل رغبة سونيا في النضال قد انتهت.

استفسرت من أنشته عن المدة، التي أمضتها سونيا في مرسيليا. فقالت أنتشه بأنّ سونيا كانت قليلة الخروج. فعندما كنت لا أجدها في المنزل مساء، كانت تذهب إلى السينما وحيدة. ولو كانت لها علاقة. لكنت أول من عرف بها. إن هذا قد يخفف من ثورتك أليس كذلك؟ قلت بأن هذا قد يكون سبباً من الأسباب. سألت أنتشه عما يمكن أن تفعله لو كانت مكاني. سأدعها تذهب. قالت. هل تعنين أنها ستعود من

تلقاء نفسها؟ صمتت أنتشه. وماذا لو قررّت الرحيل معها إلى مرسيليا. قرارك هذا متأخر جداً. قالت أنتشه.

كان عليّ أن أفكر بالفرنسي، الذي التقيت به، عندما كنت في المقهى لقد قال لي هو الآخر إنّ الأمر متأخراً جداً، لحسن الحظ. لقد قررت سونيا منذ ثلاث سنوات أن تنفصل عني، لكنها بقيت ثلاث سنوات، واستطاعت أن تتحمل معي فترة الاختبار، وهي تعي أنّها ستهرب وتبدأ بداية جديدة، عندما تمر المرحلة الأكثر سوءاً. بدأت أفتش في ذاكرتي عن إشارات، وتساءلت إن كان بوسعي أن التقط شيئاً. لكن سونيا لم تكشف عن شيء، فقد كانت في هذه المرحلة وحيدة تماماً.

تركت أنتشه تنزل من السيارة أمام مبنى المطار، وسألتها إن كان لا يغضبها عدم ذهابي معها إلى داخل المبنى. هزّت رأسها وتناولت حقيبتها من صندوق السيارة الخلفي. تأملتها وهي تمشي نحو المبنى بخطى واثقة وتصميم. تخيّلت كيف ستركب إحدى سيارات التاكسي في مطار مرسيليا، وتعود إلى المنزل الفارغ، وكيف ستتأمل الثلاجة وتذهب لتناول الطعام في حانة أو مطعم. وبعد عودتها إلى منزلها ستفتح التلفزيون، وتحتسي النبيذ وتبدأ بقراءة البريد، الذي وصلها في المدة الأخيرة، ولعل هناك رسائل صوتية على الهاتف.

تخيلّت سونيا في إحدى الشقق في مرسيليا، وهي تعود إليها بعد يوم عمل مرهق، متأخرة ومرهقة، وروحها المعنوية عالية مع ذلك. وكيف تغادر المنزل لتلتقي بأحد الرجال. رأيت المصور، الذي سبق لأنتشه أن أحضرته معها إلى المنزل، وهو يجلس إلى جوار سونيا في أحد النوادي وهي تضع يدها على فخذه العلوي، وتتكلم بصوت مرتفع في أذنه،

وهما يتبادلان الضحك. وبدا لي وكأنهما يسخران مني. قالت أنتشه: ستجد عما قريب امرأة أخرى. فأنت لست زوجاً رديئاً. لكنني لا أريد أن أجد امرأة أخرى. فقد كانت تزعجني فكرة التنقل بين المقاهي، وإعطاء مواعيد للنساء، والبداية من جديد.

فكرّت في إيفونا التي لم أرها منذ تلك الليلة، التي مضى عليها ثلاث سنوات، وهي الليلة الوحيدة، التي أمضيناها معاً. ولم أتصل كذلك بإيفا على الإطلاق، كما أنها لم تتصل بي.

أغلب الظن أنهما تعيشان معاً إلى اليوم، في الشقة نفسها. كان بوسعي أن أذهب إليهن وأزورهن، ولكنّ أيّ معنى لزيارتي يا ترى؟ كنت أجد نفسي في بعض الأحيان مضطراً للتفكير بإيفونا، فكان هناك شيء يذكرني بها، كالرائحة أو امرأة أخرى أراها في الشارع، وكنت لا أدري في كثير من الأحيان الباعث لهذا التذكر. بعدها كنت أفتح ألبوم سونيا وأرى صورتها حيث كانت تبدو، في خلفية الاحتفال، بوجهها الغامض، وهي الصورة الوحيدة، التي أملكها.بعدها كنت أتمنى أن أمتلكها، على نحو لم يسبق لإنسان أن امتلكها من قبل ومن بعد.

قدت السيارة إلى الموقف وذهبت إلى صالة المغادرين. لقد سبق لي منذ افتتاح المطار أن سافرت من هذه الصالة، لكنني أرى قبح المبنى للمرة الأولى، الذي تم بناؤه دون أي اعتبار للمقاييس الإنسانية على ما يبدو.

كان المسافرون القلائل الذين ينتظرون موعد الإقلاع، يشعرون بالضياع في هذه الصالات الفارغة. كانوا يتجولون بعصبيّة كالحشرات، التي يفاجؤها الضوء. كان يبدو وكأن الصالة لا تكفي، وكأنّ الهدف

الوحيد منها أن يتم الاحتفال بسعتها.

جلست في المقهى المطلة على الصالة. كان يجلس إلى جواري سيدتان شابتان، ومعهما أطفال صغار، يحاولون تسلق المقعد، بينما تقوم الأمهات بإطعامهم الجبن. أصغيت إلى حوار السيدتين. كان يبدو أنهما تلتقيان، بانتظام، هنا. وتشعران بالسعادة في هذا المكان، الذي يمكن أن يوجد في أية بقعة من العالم. ولعلهما اعتقدتا بأن شيئاً ما لا يمكن أن يحدث لهما في هذا المكان.

ذهبت إلى الشرفة المطلة على الطائرة. كنت مع صوفي ذات مرة هنا، لكنها لم تهتم بالطائرة، ومع أننا لم نطل المكوث إلا أن صوفي كانت ترغب في العودة إلى هذه الشرفة. كان هناك رجل على الشرفة، ومعه طفلان كانا ينظران إليّ بارتياب. التفت الرجل إلى طفليه وقال: لقدطارت فسأل أحدهما، الذي يبلغ العاشرة من العمر أين هي؟ إنني لا أراها. إنها هناك. قال الأب. إنها تحلّق الآن في الجو. لكنّ شيئاً لم يكن يرى حيث كان الأب يشير باستثناء السماء المغطاة بالغيوم. بعدما قال الأب: تعالا ثم أضاف كلمات لم أفهمها.

كنت أرى في الأسفل مجموعة من الرجال، الذين يرتدون بناطيل زرقاء، وقمصان صفراء يعطون الإشارة للطائرة. كانت طائرة أنتشه ستقلع خلال نصف ساعة. نظرت إلى الساعة فرأيت أن الظلام بدأ يحل، وبدأت أضواء المدرجات الملونة تظهر للعيان. كانت في الجو رائحة كاز مشتعل. وكل ذلك: الرائحة و الضجيج والضوء المتناثر، ولّد فيّ حب السفر على نحو قوّي، وخلق لدي الرغبة في الرحيل، وعدم العودة على الإطلاق؛ كي أبدأ بداية جديدة، في برلين، أو النمسا، أو

سويسرا. كان شعوري مزيجاً من الخوف والتحرّر، وهو الشعور ذاته، الذي لم أكن أحس به إلّا عندما أكون مع إيفونا، على نحو لا يستمر إلّا للحظات قليلة. لم أكن أشعر بالسعادة، لكنني بدأت أشعر للمرة الأولى منذ وقت طويل بالخفّة واليقظة، وكأنني أعود إلى ذاتي بعد فترة طويلة من غياب الوعي. وضعت ظهري على الزجاج الخارجي ورفعت رأسي، فرأيت السماء الصافية فوقي وقد بدت لي، على نحو عبثي تماماً، جميلة.

سبع سنوات

تنطلق «سبع سنوات» رواية الكاتب السويسري بيتر شتام من موتيف قديم في الأدب العالمي يعرف بموتيف «رجل بين امرأتين» وهو يقوم على توزع الرجل بين امرأتين توزعاً يدخله في صراع عنيف، ويجعله يشعر بالتمزق، والانشطار جرّاء ما يعيشه من مأزق حياتي، وليس يخفى أن عنوان الرواية يحيل على السنوات السبع، التي وردت في رؤيا ملك مصر، كما أنّ الرواية تشير إلى ما تذكره التوراة عن النبيّ يعقوب، وزواجه من راحيل . ليعود بعد سبع سنوات؛ ليتزوج من شقيقتها ليا.

لكنّ «سبع سنوات» تحاول أن ترسم حكاية تنفصل عن مرجعياتها، وإن كانت تتحرك في ثناياها . وتسعى؛ كي تكون واحدة من الأعمال الأدبية في سياق الموتيف؛ الذي سبقت الإشارة له. فـ«سبع سنوات» تتحرك في عالم تتوزع شخصياته بين الهندسة المعمارية، والرسم، وتتطور أحداثها في هذا العالم، الذي يجمع بين الأضواء والظلال، القادرة على حد تعبير لوكوربوزييه، أحد المعماريين الفرنسيين الكبار،على كشف الأشكال، وفضح ملامحها.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 170143